صراع الإنسان ضد الطبيعة

قصص مغامرات واستكشافات

جمعها وقدم لها

تشارلز نيدر

ترجمة

محمد عزيز رفعت

الكتاب:صراع الإنسان ضد الطبيعة.. قصص مغامرات واستكشافات

الكاتب:تشارلز نيدر

ترجمة : مُحَمَّد عزيز رفعت

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى : ١٩٥٤

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

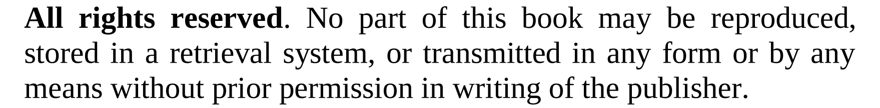
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

نيدر، تشارلز

صراع الإنسان ضد الطبيعة.. قصص مغامرات واستكشافات /

تشارلز نيدر, ترجمة : مُحَمَّد عزيز رفعت

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٩٠ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ١٧٩ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوا ن رقم الإيداع :٧٨١٧ / ٢٠٢١

صراع الإنسان ضد الطبيعة
قصص مغامرات واستكشافات





مقدمة

وقع لي من عهد قريب حادث عجيب. كنت أجيل البصر من خلال منظار إحدى الغواصات وهي تغوص مرة وتطفو مرة أخرى. ولم يكن مثار دهشتي حركة المنظار وعمله، وإن يكن حجمه وقوته "الهيدروليكية" قد أثارا الشيء الكثير من اهتمامي، وإنما الذي أدهشني وأذهلني حقا هو ما كشف عنه لناظري، لا من تلك الرقعة المترامية الأطراف والأكتاف من المحيط تغمرها أشعة الشمس، ولا من تلك الأمواج تكسو هاماتها القلانس البيضاء، ولا من ذلك الشاطئ البعيد النائي، ولا من حيزوم الغواصة ومؤخرتها وهي تطفو تارة وتغيب في الماء تارة أخرى. ليس من ذلك كله فحسب، بل أيضاً لذلك الجانب من دخيلة نفسي الذي كشف لي عنه.

فها أنذا داخل حجرة القيادة أحدة خلال المنظار، فهالني ما رأيت وأزعجني. لا لأنني شاهدت شيئاً من المرئيات لم أكن أتوقع مشاهدته، بل كان الذي أزعجني ما رأيته من اختفائنا. فقد كنت تحت الماء ولست في الماء. إذ على الرغم من أننا كنا تحت الماء، لا يبدو منا أثر لعين، إلا أننا كنا نرى الزبد يطفو فوق المكان الذي كنا فيه آنفا، وكنت ما أزال أرى نور الشمس ورؤوس الأمواج البيضاء الناصعة وخضرة العباب البارد، العابسة الغامضة.

كل منا منشطر من الناحية النفسية تقريبا. لم يكن هذا جديدا علي علمه. ولكن الذي أفزعني هو أن أحس احساسا قويا جليا بأثر هذا الدرس من مكان داخل الغواصة حيث كنت أتوقع نسيان كل ما يتصل بالسيكولوجية والباطنة. ولعلني أكون قد أخفقت في أن أرسم في مخيلتي صورة صالحة الاحتمالات النفسية لحياة مزدحمة مغمورة.

أو ربما أكون لحداثة عهدي بمثل هذه التجارب، قد تطلعت نفسي إلى استجلاء نواح منها غابت عن أذهان من سبقونا من القدماء. على أنني تكتمت ما جال في

خاطري وركزت جل اهتمام في النظر من خلال المنظار مفتونا بما أراه كل مرة من ظهورنا واختفائنا. وأذكر أني قلت لنفسي، ترى ما كان يقول روبرت لويس ستيفنسون مبتدع شخصية دكتور جيكل وهيد المزدوجة لو كان معي الآن ورأى ما رأيت؟ أو ترى ما كان يقول دستويفسكي ذلك الكاتب الذي تخصص في الكلام عن الشخصية الخفية أو المغمورة. فقد كان شطر مني سجينا في مصيدة تحت الماء بينما بقي الشطر الآخر حرا طليقا كالطائر ينظر من علٍ إلى الشطر السجين. وحاولت أن أتخيل كيف يكون شعور الطبيب الذي يقوم بإجراء عملية جراحية على شخصه، أو كيف يكون شعور الجنون، وأن يكون الإنسان ذا شخصيتين في آن واحد لقد كانت التجربة درسا مزعجاً لا أخالني أنساه ما حييت.

كان الملاحون من حولي رجالا يصطرعون لينتزعوا من المحيط امتيازاً لا يمنحه لسوى الأسماك والحيتان. وغني عن القول إن الفضل في هذا يرجع إلى الآلة، فلولاه لما استطاع الإنسان صراعا. وكنت وأنا أتجول بين صفوف الأجهزة والآلات وأستعرض هذه القوى الهائلة ، أفكر فيما إذا لم يكن الإنسان كان في صراع مع الآلة. فقد كان يبدو لي من خوارق الأمور أن يصبح من الماء تدريب الإنسان على ترويض مثل هذه الوحوش الجبارة المعقدة التركيب وإخضاعها لإرادته. ومن ثم أخذت أفكر في "هليرى" و"تينزنج" يتسلقان جبل أفرست حتى قمته وهما ينتقبان قناعيهما المزودين بالأكسجين ويرتديان ملابس خاصة استطاعت أن تزودهما بها أمة بلغت في ميدان التصنيع شأوا بعيداً. وخد من أولئك الرجال في "ويت ساندز" ب "نيومكسيكو"، وهم يقومون تجربة الصواريخ، وزملاؤه في نفس المقاطعة وهم يطلقون القوى الذرية من معاقل، فأدركت من جديد مدى ما ندين به للآلة في قهر الطبيعة من فضل، وكيف أنه يبدو لي أحياناً أن الآلة قد غدت تهدد الإنسان حتى صار يخشى من أن تصبح لها السيادة عليه.

وعندما رسونا بقاعدة الغواصة لازمتني هذه الأفكار ولاحقتني، وكان من الطبيعي أن تعود بي إلى ذكرى تجربة عجيبة أخرى وقعت لي من عهد غير بعيد فوق

جبل "إتنا" بصقلية. كنت في ذلك الحين أزور منطقة الحمم البركانية، وكان في عرض بعض رقاع تلك الحمم يبلغ مئات الأمتار في الغالب الأعم وتصل إلى ارتفاع عظم أشبه ما يكون بالتلال. وكانت هذه الشرائط الباردة تمتد أميالا عديدة، صلبة، صوانية، قاحلة لها حافات محددة مسنونة، وتخيلت الحمم المصهورة منبعثة من بين شقوق الجبل وصدوعه تغمر جزوع الأشجار في الغابات والأحراش وتشمل النيران في الحقول والمروج ثم تخمد حرارتها بعد ذلك وتبرد رويداً وتشرع الغازات تفور وتتبخر، وتطفو المادة المسامية مكونة القشرة الأرضية بينما تربض تحتها الصخور البركانية الصلبة.

لقد وقفت يومئذ أمام ذلك المشهد مبهوتا مأخوذا إلى أن شعرت فجأة بأنني أمام تجربة لا يمكن تحملها، ولأول مرة في حياتي وجدتي في عالم لا عضوي جامد هامد لا أثر فيه الحياة ولا لذكرى. عالم كعالم القمر مقفر محدب مشوه ما حل غير رفيق ولا رحيم بالبشر. أجل لقد شعرت كما لوكنت في رحلة إلى القمر وقد جردت من محطة الفضاء وقناع الأوكسيجين. كانت تجربة جديدة لوحدة الإنسان الرهيبة المرعبة في هذا الكون اللاعضوي، وشعرت بصلة رحم وثيقة بيني وبين كل نوع من المخلوقات الحية من أي فصيلة كانت مهما يكن مبلغ انحطاطها وبدائيتها. وكما أن التجربة التي مرت بي أمام المنظار في الغواصة كانت في معظمها سيكولوجية الأثر، فكذلك أيضاً كانت هذه التجربة. كانت إلهاما للعقل وكشفاً مستمداً من البيئة والمحيط الغريب، ومن ثم كانت ضربا آخر من ضروب صراع الإنسان مع الطبيعة، إلا إنه صراع لم يستعن فيه الإنسان بما تسديه الآلة من خدمات جليلة، كانت الطبيعة في تلك المرة غير دنيوية لأنها انبعثت من بطن الأرض أكثر مما انبعثت من سطحها انبعثت من حيث لا أثر للحياة وحيث اللاعضوية الجامدة الهامدة تسيطر بلا منازع على مملكة العدم.

إن ما أحاول افتراضه هو أن المغامرة، كبيرة كانت أو صغيرة، لا تثير في نفوسنا الجانب المادي الملموس فحسب،بل تثير جانبنا الحسي أيضاً وتشحذ خيالنا. فالمغامرة الحقة هي مسألة سيكولوجية وروحية معا، فإذا ما نظر إليها الإنسان من هذه الناحية

استطاع أن يفهم كل الفهم مغزى ما انطوت عليه غالبية التجارات الخطرة التي سقت أخبارها وتفاصيلها في كتابي هذا.

إن الذي دفع "بيرد" إلى مجابهة شتاء المتجمد الجنوبي وحيداً لم يكن التطلع إلى رصد الأحوال الجوية بدقة فحسب، بل أيضاً ليتيح لنفسه فرصة الانفراد بنفسه عله يتوصل في وحدته المريرة إلى استجلاء حقيقة نفسه، وحياته، ومستقبله، وعلاقته بمحيطه وبالناس. ومثل هذه الدوافع تضفي على المغامرات الشيء الكثير من نبالة الغاية وإن أوحى ظاهرها بأنها من نزوات المتعة وحب الاستطلاع.

وبغض النظر عن العمل المجيد الذي قام به "كوستو"، فإن أبرز ما في الأمر على ما يبدو لي هو هبوط "كوستو" إلى أعماق البحر الحالكة. إنها مغامرة جميلة ورهيبة في آن واحد. أما كون التجربة رائعة في حد نفسها وأنها رهيبة مرعبة كذلك فأمر يقطع به كل من غامر بالدخول إلى الكهوف الضخمة العظيمة، وأحس بذلك الظلام المطبق الشديد الذي لا يكاد يخطر لإنسان على بال.

على أن هذه الأفكار والمقترحات إنما سقتها للقارئ جزافا لم أتوخ فيها التمييز والتحديد، إذ أتى أود أن أترك له فرصة للاستمتاع بقراءة كتاب الطبيعة وكتاب الإنسان وفقاً لميوله واتجاهاته في تفهم مغزى ما رويت من تجارب نبيلة.

وغني عن القول إني شعرت بكثير من السعادة في إعداد هذه المجموعة للطبع، وإنني أدين بجزيل الشكر "لهاربر وإخوته " لإسنادهم إليّ هذا العمل. وقد كان لما قرأته من قبل في هذا الصدد ما جعلني أعتقد بأنني واجد في هذه المجموعة الشيء الكثير من الأمور الشيقة الهامة، ولم يخب ظني فيا قدرت واعتقدت. ولعل القارئ مغتفر لي ما أعتقده من أن هذا الكتاب فريد في بابه من وجوه عدة، فيما يتعلق بمادته وتنوع موضوعاته وعمق بحوثه. وليس هناك فما أعلم كتاب يضارعه في أي لغة من اللغات. لقد صنفت مجموعات كثيرة من الاستكشافات والرحلات، ومثلها من المغامرات، ولكن شيئاً منها لم يربط بين محتوياتها مثل ما يربط بين محتويات هذه

المجموعة من هدف عظم مشترك بصورة وثيقة، ولا التزم شيئاً منها مثل ما التزمته هذه المجموعة من توخي صدق المصدر والسند وروعة التصوير ودقة التعبير وجمال الأسلوب.

ولقد حاولت وضع القارئ، ليس فوق قمة الحوادث، وإما في منتهى أعماقها حتى يتسنى له أن يحس أثناء القراءة قدر المستطاع، بمثل أحاسيس من يقرأ عنهم، وحتى يستطيع أن يحكم على مجرى الحوادث التي سقت له تفاصيلها وظروفها وملابساتها حكما صادقاً متزناً. فإذا ما أنا وفقت فما توخيته، فإني أكون قد وضعت بين يديه طائفة من التجارب الفذة الزاخرة بالوقائع والأحداث في الزمن والفضاء تشهد بشجاعة الإنسان ونزعته الجريئة الجامعة للكشف والاستطلاع، وبما انطوت عليه سجيته من إرادة للسيطرة على البيئة المحيطة به، وتشهد كذلك بما له من وسع الحيلة في ابتكار ما يكفل له البقاء من وسائل، وباستعداده للتضحية بحياته في سبيل تحقيق هذه الغاية إذا دعت الضرورة إلى ذلك. والحق أنه ليس ثمة كتاب يحوي مثل ما حوى الكتاب الذي نحن بصدده من مادة تدلل على صحة ما ذهبنا إليه.

ولقد ضمنته طائفة من القصص بغض النظر عن الاعتبارات التاريخية، لما انطوت عليه من وقائع رائعة حتى لتبدو وكأنها بعض الأساطير، مثل مغامرة رشا كانتون، ومنها ما يسجل استكشاف الإنسان العالم، الذي يعيش فيه كوقائع "بيرى" و"ريت" و"لندبرج" و"هلرى" على أن المجموعة التي اخترتها بصرف النظر عن الاعتبارات الآنفة الذكر، أنما أخترتها قبل كل شيء لجدتها وطرافتها وعمق مادتها في سبر غور الموضوع الذي نحن بصدده. ويسعدني أن أقرر هنا، بأنه على الرغم مما يتطلبه الاختيار والإعداد للطبع من مشقة وجهد، فإني لم أستبعد من القصص التي اخترت هذه المجموعة من بينها، إلا ما اضطررت إلى استبعاده لسبب أو آخر، جاءت النتائج محققة لما كنت أرجو وفوق ما كنت أرجو.

شارلز نيدر
كمبرلاند – بولاية أنديانا
ابريل ١٨ سنة ١٩٥٤



وفاة لويس سلوتن الغريبة

ستيوارت أولسوب
ورالف. أ. لاپ

"يعتبر الإشعاع المتولد من انفجار القنابل الذرية من أشد منتجاتها فتكا كما علم كل إنسان، ولكن الإشعاع ليس وقفا على الانفجار وحده، كما سوف نرى من القصة التالية التي منعت حكومة الولايات المتحدة نشرها فترة غير قصيرة من الزمن، وهذه القصة مثل باهر لامع يصور لنا صراع الإنسان مع الطاقة التي تعلم كيف يطلقها بنفسه من معقدها، والتي يعمل اليوم جاهدا لضبطها والسيطرة عليها".

بدأ عالم الذرة اللامع الدكتور "لويس سلوتن" يموت في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين بعد الظهر، على وجه التحديد، من اليوم الواحد والعشرين من شهر مايو لعام **١٩٤٦**. أما كيف بدأ يموت؟ وما الذي حدث عقب ذلك؟ – وهو أمر لم يكن مصرحا بنشر تفاصيله كاملة قبل اليوم – إنها قصة بشعة مروعة من ناحية أو أخرى.

على أنه لو لم يكن لرواية هذه القصة من هدف، سوى المساهمة في كشف النقاب عن الغموض الذي يكتنف ما يتركه السلاح الذري –ذلك السفاح الخفي– من أثر الإشعاع النووي، لكانت القصة في حد ذاتها، قصة لويس سلوتن جديرة بالرواية.

أما المكان الذي بدأ يموت فيه لويس سلوتن، فعمل بواد ضيق قرب "لوس ألاموس" تلك المدينة التي شيدت خلال الحرب[١] في نيو ميكسكو حيث صنعت أول قنبلة ذرية في العالم. وما إن انقضت بضع دقائق على بدء دكتور سلوتن في

[١] الحرب العالمية الثانية.

الموت حتى عمد بدقة العالم الخبر المتمرن إلى رسم خريطة موضعية للمعمل مبينا فيها بكل دقة مكان كل شخص ممن كانوا بالحجرة في ذلك الوقت. وبفضل هذه الخريطة وما رواه الذين كانوا بالمعمل في ذلك الوقت من كتب لهم البقاء، أصبح تصوير المشهد بتفاصيله أمرا ميسورا يطابق الواقع كل المطابقة.

تخيل حجرة كبيرة مستطيلة مطلية بدهان أبيض، ليس بها من الأثاث سوى مكتب معدني، يتوسط بها على وجه التقريب، ومائدة ألصقت إلى أحد جدرانها تحمل أجهزة صانع القنبلة الذرية من أدوات وآلات معقدة التركيب. وكانت شمس الربيع تنفذ في ميل وانحراف جانبي إلى الحجرة من خلال نافذتها الكبيرة الوحيدة فتغمرها بالضوء. وكان بالحجرة ثمانية أشخاص، وقد خيم على الجميع سكون لا يشوبه سوى رنين دقات جهاز جيجر بينما كانت العيون كلها مسلطة على شخص قصير القامة وقد انتصب واقفا فوق المكتب المعدني.

كان هذا الشخص هو "لويس سلوتن" في الرابعة والثلاثين من عمره لا يتجاوز طوله خمسة أقدام ونصف القدم، نحيف الجسم ضامره، نحاسي اللون من تأثير شمس المكسيك، وخط الشيب فوديه قليلا وقد ارتدى قميصا من الطراز الرياضي، مفتوح الصدر، وتنطق بحزام زاهي اللون على غرار عادة أهل المكسيك، وتسرول سروالا كا كي[1] اللون حشر من أسفل داخل حذاء من من النوع الذي ينتعله رعاة البقر. وكان يضع على عينيه نظارات سميكة قرنية الإطار تنبئ عن طبيعة العالم العقلي، وتفشى سره على الرغم من نعلي رعاة البقر. وكان سلوتن في هذه اللحظة يحدق بإمعان مركز في شيئين فوق المائدة.

كان هذان الشيئاًن شطري كرة معدنية، أجوفين، لونهما فضي رمادي وقد أخذ سلوتن في عزم وإصرار يقرب شطري الكرة، أحدهما إلى الآخر مستغنيا عن البيرم "بمفك" عادى. أما هاتان الكتلتان المعدنيتان فكانتا "أمعاء" قنبلة ذرية.

[1]لون البدلة الحربية (بيج تقريباً).

كان يقف خلف سلوتن زميل عالم، سوف نرمز إليه بحرف (ج) وهو رجل هادئ وسيم الطلعة، في الرابعة والثلاثين من عمره هو أيضاً، وقد وضع يده فوق كتف سلوتن عرضا وفي غير اكتراث، منحنيا إلى الأمام، ينظر في اهتمام بالغ، فهو لم ير هذه التجربة من قبل.

أما الستة الباقون فكانوا من مساعدي المعمل من فنيين وغيرهم، وقد تجمعوا كما لو كان ذلك عن طريق الصدفة، لمشاهده التجربة. وقف اثنان منهم أمام المكتب على بعد ستة أقدام، بينما تجمع الأربعة الآخرون خلفه على بعد ثمانية أقدام أو تزيد. كان المنظر وليد الاتفاق والصدفة، وكان الجميع يرتدون مثل سلوتن قمصانا مفتوحة الصدر أو ما يماثلها. وكان منظر سلوتن يدل على الثقة بالنفس، وينم عن شعور بالغبطة والارتياح، فهو يحب تجربته هذه التي يقوم بها: "دغدغة ذنب التنين" كما كان يسميها. ولقد سبق له أن أجرى هذه التجربة من قبل ما لا يقل عن أربعين مرة إلا أن ذلك لم ينقص من حدة التوتر في الحجرة. فالموجودون بها كانوا يعلمون علم اليقين بأن تقليب "أمعاء" قنبلة ذرية ليس لعبة أطفال.

أرهف سلوتن سمعه بكل انتباه لدقات عداد جيجر، كما كان يشخص بنظره كثيرا إلى آلة تسمى "الرقيب النتروني"، وهي تسجل على اسطوانة من الورق في خط أحمر رفيع متموج، الإشعاع المنبعث من الكتلتين المعدنيتين. وكان الخط الأحمر يتصاعد بينما كان سلوتن يحرك الكتلتين في بطء، ودقات عداد جيجر تزداد سرعتها قليلا كساعة اختلت آلاتها.

وفجأة بدأ عداد جيجر يدق على غير هدى، ثم لم يلبث أن كف عن الدق تماما. وفي مثل طرفة العين شعر الموجودون بالحجرة، أكثر مما رأوا بالأعين، وهجا عجيبا أزرق، أقوى من ضوء شمس الربيع. وفي الحال التي سلوتن بنفسه إلى الأمام جاذبا شطري الكرة المعدنية الفتاكة ليباعد بينهما بيديه العاريتين، ثم انتصب واقفا وقد ابيض وجهه كالكلس تحت بشرته البرنزية. وعلى الفور شرع الرجال الثمانية، بحكم الغريزة، وكأنهم في يقظة الحالم، يغادرون الحجرة بانتظام، الواحد تلو الآخر دون

أن ينبس أحدهم بكلمة واحدة. وكان بعضهم يشعر بجفاف، ووخز، ومرارة في اللسان ، وهي علامة للإصابة بالإشعاع القوى الزائد على الحد. ولا شك أن بعضهم كان يشعر كذلك بخلجة طفيفة من الخوف في أعماق قلبه، على أن أحدا لم يشعر بشيء آخر خلاف شعور المرارة هذه، حتى سلوتن نفسه، الذي كان قد بدأ يموت منذ تلك اللحظة.

ولإدراك ما حدث، وسبب حدوثه ومعناه، يتعين علينا أن نعرف شيئاً عن طباع سلوتن خلال الأعوام الأربعة والثلاثين التي عاشها.

ولد لويس إسكندر سلوتن من أبوين يهوديين ميسوري الحال بمدينة وينيبج في كندا عام ١٩١٢. والتحق مبكرا في الخامسة عشرة من سدنه بجامعة مانيتوبا في وينيبج، وفاز بدرجة الماجستير مبكرة كذلك، إذ لم يكن قد تجاوز بعد الحادية والعشرين من عمره، وانقطع بعد ذلك إلى دراسة على الطبيعة بجامعة لندن لمدة أربع سنوات حصل في نهايتها على درجة دكتور في الفلسفة عام ١٩٣٦. وفي عام ١٩٣٧ نجد سلوتن في شيكاجو، ولعله كان في طريق العودة إلى مسقط رأسه وينيبج حينما تقابل عرضة مع الأستاذ وليم د. هاركنز، رائد الكيمياء الذرية بجامعة شيكاجو، وكان أن أفضى هذا الأخير إلى سلوتن بأنه في أمس الحاجة إلى مساعد يعاونه في أعماله الخاصة "بالسكلترون" معتذراً في الوقت نفسه عن عدم قدرته على دفع أي مرتب المساعد له. ولكن سلوتن قبل أن يعمل بلا أجر، وقد استمر في عمله مع الأستاذ طيلة سنتين كاملتين لم يتناول أثناء هما أي مرتب أو مكاففجأة مالية.

كان من نتائج عمله في جامعة شيكاجو أن سمح له بالدخول إلى حي منهاتن مباشرة حيث كان العمل سائر على قدم وساق لمشروع الذرة إبان الحرب في جو من السرية والتكتم الشديد. اشتغل بعد ذلك لفترة من الزمن بشيكاجو ثم بجامعة أنديانا ومنها انتقل إلى أوك ردج. وفي أواخر عام ١٩٤٣ وفد سلوتن على "لوس ألاموس" في الوقت الذي شرع فيه فعلا بتجميع أجزاء القنبلة الذرية، وهناك بدأ يدغدغ ذيل التنين.

إلى هنا تنتهي الحقائق المجردة ولكن هذه الحقائق لا تجيب على السؤال: من أي طراز من الرجال كان لويس اسكندر سلوتن؟

كتب جون دون: "ما من رجل يستطيع أن يكون جزيرة قائمة في نفسه، على أن لويس سلوتن كان أقرب إلى أن يكون جزيرة في نفسه أكثر من أي شخص آخر. فقد كان عزوفا شديد الانطواء على نفسه، وقد أشار إليه أحد زملائه السابقين بقوله: "إن لويس شاب لطيف رحيم القلب"، ولكن أحدا لم تتهيأ له أبداً فرصة لمعرفته حق المعرفة.

وبالرغم من ذلك كله، كانت تتراءى بعض خصائص الرجل المطبوعة من خلال ضباب الزمن، فأولا كان سلوتن شجاع القلب ، ولكن شجاعته كانت من طراز عجيب. كان له ولع واقعي بالأخطار. فيقول عنه في ذلك أحد من زملاؤه وخبروه. "كان يبدوكما لوكان يشكو من نوع أو آخر من التوتر الداخلي النفساني، وكان يخلد دائما إلى الهدوء والسكون، ولكنه كان يطفح بشرة ويستخفه المرح كلما زاول عملا ينطوي على عناصر الخطر.

وقد أدى به هذا الشغف بالأخطار إلى ملاحقة ولاة الأمر "بمنهاتن" في إلحاح وإصرار ليسمحوا له بمرافقة أول طائفة من القنابل الذرية إلى أهدافها في اليابان على سبيل الملاحظة العلمية، ولقد استولى على نفسه هم عميق دام بضعة أسابيع حينما رفض التماسه، ولا ريب أن هذا الولع نفسه هو الذي قاد سلوتن إلى "حي منهاتن، ليكون كبير الممارسين لدغدغة ذيل التنين.

ويجب أن يفهم بأن هذه التجربة لم تكن لعبة علمية، اتخذها سلوتن وزملاؤه من العلماء الشبان ملهاة لهم لتخفف من ضجره ، لقد كانت ولا تزال تجربة ذات أهمية قصوى في صناعة القنابل الذرية.

شيء عجيب هذا الانشطار الذري – يورانيوم ٢٣٥ وبلوتونيوم – فهذا العنصر الثقيل الوزن جدة، الرمادي اللون، إذا نقص حجماً ووزناً عن معيار معين، لم

يكن له من القيمة والخطر أكثر مما يكون لكتلة من الرصاص.

على أن له خاصية قد تحطم في يوم من الأيام هذه الحضارة كما نعرفها، فإنه إذا جمعت مقادير معينة من هذا العنصر، ووضعت جميعها في مكان واحد، يحدث تفاعل متسلسل في مجموع هذه الكتل الصغيرة. وغني عن البيان أن التفاعل المتسلسل هذا هو الذي يكسب القنبلة الذرية القوة الكافية لتدمير مدينة بأكملها وحرقها. أما مقدار المادة اللازمة لإحداث التفاعل المتسلسل، فيسمى "الكتلة الحرجة"، ويطلق عليه الفيزيائيون في اصطلاحاتهم، على سبيل الاختصار كلمة "كِرِت" .

ولكن ما هي القيمة الحرجة؟ كانت هناك ولا تزال طرق لحساب مقدار المطلوب نظريا من المادة لتكوين الحجم اللازم على مستوى معياري لشطر النواة، أو لإحداث ظاهرة الانشطار. غير أن مثل هذه العمليات الحسابية لا يقطع بدقتها قطعا باتا. زد على ذلك أن تهيئة الظروف الضرورية لجعل القنبلة الذرية ذات أثر فعال إلى أبعد حد مستطاع، يقتضي تحديد القيمة الحرجة للمادة أو العنصر، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال.

وحتى في الوقت الحاضر، ولأسباب تتعلق بضمان السلامة العامة، يتعين عدم اتباع الدقة المطلقة في أمر هذه التجربة التي قام بها سلوتن في ذلك اليوم من شهر مايو سنة ١٩٤٦ والتي لا يزال خلفاؤه يقومون بها، ولكن في ظروف مغايرة. على أنه يمكن الجزم –وإن لم يطابق ذلك المنطق العلمي– بأن الفكرة كانت في الأصل وضع قطع المادة القابلة للانشطار في حيز معين، ثم تضم القطع بعضها إلى بعض بكميات معينة وتوضع بوضع هندسي خاص لكل منها، فيحدث الانفجار. أو بعبارة أخرى يسمح للتفاعل المتسلسل أن يبدأ فيحدث التفجير. ولكن التفجير في هذه الحالة أوقف قبل أن يستفحل خطره. والمشكلة بطبيعة الحال هي معرفة متى يجب وقف التفجير.

لم يعلم أحد من الناس في لوس ألاموس مدى الخطر الذي كان يحدق بهم. على

أنه لم يكن هناك بالتأكيد ما يخشى معه على لوس ألاموس من أن تصبح أثرا بعد عين وتمحى من الوجود إذا ما أفلت العنان ووقع الخطأ. فلتوليد قوة الانفجار الحقيقية لابد للكتلة الحرجة من أن تتماسك بعضها بعض بتأثير قوة خارجية، تسمى "القوة المجمعة"، وإلا أدى ذلك إلى أن يأخذ التفاعل المتسلسل مجراه، فتتحول الكتلة لبرهة –قصيرة– إلى إشعاعات ذرية قوية جداً، فترسل إشعاعا فتاكا مثل الإشعاع الذي ينبعث من القنبلة الذرية تماما حينما تنفجر فوق مدينة من المدن.

كان سلوتن محقا في تخوفه من هذا الخطر بالذات. في اليوم السابق على دغدغته لذيل التنين للمرة الأخيرة، ذهب على الأقل ثلاثة أشخاص من سكان لوس ألاموس ضحية لهذا السفاح الخفي كان أحدهم هاري داجليان صديق سلوتن ومساعده بالمعمل، ولقد قضى سلوتن ساعات طوالا بجانب سرير صديقه أثناء الشهر الذي استغرقته الوفاة فجأة.

ساور القلق أولياء الأمور في لوس ألاموس من خطر الإشعاع الذرى، حتى أن أحد الحائزين على جائزة نوبل، صارح سلوتن بقوله: "إنني لأتنبأ بأن العمر لن يمتد بك عاما آخر إذا أنت أبيت إلا استرسالا في معاودة هذه التجربة كلها عن لك أن تعاودها".

وقال سلوتن لأحد زملائه "صحيح أنها خطر ما في ذلك شك. ولكنه خطر لابد منه". إن الإنسان لا يسعه إلا أن يرتاب في أن يكون سلوتن، قد رغب في غفلة من وعيه أن يكون الأمر كذلك.

ومن سخرية القدر أن سلوتن كان في ذلك اليوم الواحد والعشرين من مايو سنة ١٩٤٦ – يقوم بتجربته المحبوبة، وهو يعلم أنها آخر مرة يقوم فيها بهذه التجربة. ولقد قام بهذه التجربة مراراً وتكراراً طيلة عامين أو أكثر، سالكا في ذلك طرقا وأساليب مختلفة، وفي ظروف شتى. وكان فخورا غاية الفخر لوقوع الاختيار عليه لاختبار قوة تفجير أول قنبلة ذرية ومداها، فلم تسعه الدنيا من شدة الفرح عند

تسليمه القنبلة لتفجيرها في ألامو جوردو، وبعد أن دغدغ ذيلها.

واليوم صدر إليه الأمر بالسفر إلى بكين للاشتراك في اختبار القنبلة بها. كان على وشك السفر، وكان شديد التطلع إليه، ولكن صدرت إليه الأوامر أيضاً في آخر لحظة بإجراء التجربة في المعمل مرة أخرى لمنفعة زميله العالم "ج"، وهكذا قام سلوتن بدغدغة ذيل التنين مرة أخرى، ولكن التنين في هذه المرة استدار ولطمه بذيله فلطمه تحطيما.

ما الذي حدث؟ وفيم أخطأ؟ إن شطر الجواب على هذا السؤال، يوجد ولا شك في ولع سلوتن بالأخطار ، فأمثال سلوتن يكونون دائما أبداً عرضة لتجاوز الحد الذي لا يؤمن معه من وقوع ما لا تحمد عتباه، أما الشطر الآخر من الجواب فهو أن سلوتن، وهو ما يزال في الرابعة والثلاثين من عمره، قد أصبح بالنسبة إلى التطور العلمي من أهل العصر القديم البالي.

تلقى سلوتن كل تدريبه الفيزيائي، خلال العقد الثالث من القرن الحالي(العشرين) ، قبل الوقت الذي أصبح فيه بقاء الأمم يتوقف على مهارة أمثاله. وكان من خصائص تلك الأيام أن يعمل اللامعون من المتخرجين في علم الطبيعة، أمثال سلوتن بلا مقابل، أي بلا مرتب. والواقع أن علماء الطبيعة في العقد الثالث كانوا يعيشون عيشة ضنك وكفاف، لا يكاد يسد رمقهم ما يصل إلى أيديهم. وكانوا يعتمدون، في الحصول على أدواتهم العلمية وعلى إجراء تجاربهم، وما يقوم بأود معاشهم، لأعلى سخاء حكومة قلقة، بل على كرم بضع جامعات كبرى بدافع نزعة أو شهوة عابرة.

وكان الفيزيائيون[1]. في تلك الأعوام يباشرون تجاربهم بأي شيء يقع تحت أيديهم حتى "بمفك عادى"، وكان موقف سلوتن الاستهتاري وهذه الأخطار – وفي حي مترف كحي منهاتن– في فترة قامت فيها سلطاته المحلية بتمويل هذه التجارب

[1] علماء الطبيعة.

والاتفاق عليها عن سعة وبمنتهى السخاء، من الدواعي التي حملت أولياء الأمور على اختراع "حاجز أمان" بسيط، وخاصة بعد موت "داجليان" يباعد بين الكتلتين المعدنيتين بمجرد الإنذار بابتداء الإشعاع الذرى. ولكن سلوتن كان من طراز أولئك العلماء الذين يدفعهم اعتزازه بالنفس إلى عدم المبالاة بما قد يعترض هدفهم من أخطار، لاسيما وهي على وشك إطلاق تلك القوى الرهيبة الكامنة في المادة من عقالها. كانت حجة سلوتن في رفضه استعمال حاجز الأمان أثناء قيامه بتجاربه، أنه يزيد من نسبة احتمال الخطر ووقوع الحوادث، لأنه يغري بالاعتماد عليه قبل الاعتماد على المهارة الشخصية وأصالة الرأي. وتوضح الصور الفوتوغرافية التي رخصت حديثا في نشرها لجنة الطاقة الذرية مدى التناقض الملفت للأنظار بين الحاضر والماضي، فهي تكشف عن مجموعتين جهنميتين من الآلات المعقدة للتفاعل المتسلسل، إحداهما تسمى "المقلوبة"[١] لما تبعثه في النفس من النفور، والثانية تسمى السيدة جوديفا[٢] لأن المجموعة لا يسمح لها بأن تصبح حجماً حرجاً إلا بقدر لا يكاد يذكر. وثمة صورة أخرى توضح المحرك الضابط لهذه الآلات وكأنها مستخرجة لتوها من كتاب جورج أورول ١٩٨٤، مكتملة الأجزاء من عتالات وأكر[٣] وثلا شاشات للتلفزيون وسيدة شقراء مرتدية بلوزة معقمة تسيطر على مجموعة "السيدة جوديفا"، وكانت السيدة الشقراء تسيطر على مجموعة "السيدة جوديفا" من مسافة ربع ميل، كما يستدل على ذلك من نشرة لجنة الطاقة الذرية.

وبعبارة أخرى، كانت السيدة الشقراء قائمة بتحريك أمعاء قنبلة ذرية، تماما كما كان يفعل لويس سلوتن في ذلك اليوم من شهر مايو عندما كان عصر الذرة لا يزال في طفولته، إلا أن المادة القاتلة كانت في هذه الحالة، تحت أنف سلوتن مباشرة، ولم

---

[١] أي مقلوبة رأسا على عقب.

[٢] وهي سيدة سكسونية عاشت من ١٠٤٠ إلى ١٠٨٠ م زوج "ليوفريك أول أوف مرسيا، لورد أوف كوفنترى".

[٣] جمع أكرة.

يكن لديه ما يستخدمه في معالجتها، لا عتالات ولا أكر ولا شاشات التلفزيون ولا مفاتيح لضبط الآلات وتحريكها من بعد. بل لم يكن له سوى عداد جيجر وضابط النيوترون، ومهارته الشخصية وتجاربه بالإضافة إلى ذلك المفك العادي. ليس هناك أي ظل من الشك في حقيقة ما حدث في ذلك اليوم من شهر مايو أو عن الوقت الذي وقع فيه الحادث على وجه التحديد. ولقد احتفظ بسجل "ضابط النيوترون الذي استعمله سلوتن، ومنه يستدل بفضل خط رفيع من الحبر الأحمر الذي يتصاعد رويدا على صحيفة التسجيل مدى الإشعاع المنبعث من الكتلتين المعدنيتين في أوقات معينة. ففي تمام الساعة الثالثة والدقيقة العشرين بعد الظهر اختفى الخط الأحمر، وفي هذه اللحظة بعينها ازدادت قوة الإشعاع بصورة مركزة حتى أن الآلة المسجلة انزلقت من مكانها بعنف.

أما السبب في حدوث هذا فلا علم لأحد به، ولا سلوتن نفسه بصورة قاطعة. كانت التجربة على وشك الانتهاء من أمرها ولم يبق سوى إبعاد قطعة معدنية أخيرة مسافة بوصة عن بقية المجموعة. ولقد كتب أحد الحاضرين: "عندها أوشك التفاعل أن يصل إلى (النقطة الحرجة) انزلقت القطعة المعدنية شيئاً ما فسدت النغرة. (وشيئاً ما) هذه لاتزال بدون شرح. ولعل أكثر الشروح مطابقة للواقع هو مزيج من الثقة المتزايدة بالنفس إلى جانب فيض من شجاعة خارقة، يضاف إلى ذلك استرسال سلوتن في استعمال مفك عادي في زحزحة الكتلتين المعدنيتين القاتلتين أو رفعهما. وبالاختصار انزلق المفك.

وأيا كان الأمر فقد أدرك سلوتن ما حدث على الفور، فكان رد فعله تلقائيا سريعا. فعندما انحنى إلى الأمام وجذب الكتلتين الواحدة بعيدا عن الأخرى جردهما من نشاط التفاعل المتسلسل. ولو أنه لم يفعل هذا، ولو أنه ابتعد سريعا عن المائدة الماسة فجأة لكان من المحتمل أن ينجو، ولكن من أكثر الاحتمالات أيضاً إن لم يكن من المحقق، أنه يكون قد حكم على جميع الموجودين في الحجرة بالموت.

كتب العالم (ج) "لا مجال للشك في أنني وجميع من وجدوا بالحجرة في ذلك

الوقت ندين بحياتنا لما عمله سلوتن. ولست أدري ما إذا كان هذا العمل يسمى بطولة أولا يسمى، على أنني في شك من أن سلوتن كان يقبل وصفه بالبطولة دون أن يعترض على ذلك".

ولإدراك معنى ما فعله سلوتن ينبغي أن نتفهم شيئاً عن طبيعة هذا السفاح غير المرئي.

تنبعث أشعة "جاما" نتيجة سلسلة من التفاعل وتخترق جسد أي إنسان يتعرض لها مدة كافية، وهي تقتل الخلايا الفردية العميقة في الجسد. ومن الخصائص الرهيبة للضرر الناتج من الإشعاع هو أن له فترة كمون في الجسد قبل أن يظهر موت الخلايا. والسبب في هذا، هو أن الخلايا لا تموت قبل أن تبدأ عملية انشطارها، وهي عملية دائبة داخل جسم كل إنسان. ومعنى هذا –من بعض النواحي– أن الضرر الذي يحدثه الإشعاع يكون على نقيض ما تحدثه علة السرطان، فالسرطان يقتل عندما تأخذ الخلايا في الانقسام وتتوالد من نفسها سريعا. أما الإشعاع النووي فإنه عندما تخفق الخلايا في الانشطار لا تتوالد مطلقا.

ولعل ما هو أهم من حالات السرطان أن نفهم نحن الذين نعيش اليوم تحت شبح الحرب النووية وأن نوقن تماما بأنه ليس من الحتمي أن يكون الإشعاع النووي قتالا، إذ أن كل شيء يتوقف على حجم "الجرعة". وهذه "الجرعة" تقاس بكمية ما تمتصه الخلايا من رونتجن. فأول ما تود معرفته الأطباء عند إصابة إنسان ما بأضرار ناجمة عن الإشعاع هو ما إذا كانت الجرعة ن. ق / ٥٠ "هو الاختزال الطبي لجرعة نصف قاتلة"، وهي كمية تسبب موت خمسين في المائة من المصابين.

على أن المقدار الحقيقي للجرعة نصف القاتلة لم يحدد بعد بصورة قاطعة، وذلك لأنه لا يوجد بطبيعة الحال العدد الكافي من الآدميين (الجرذان الآدمية) لإجراء التجارب عليهم لمعرفة مبلغ مقاومة جسم الإنسان بالتحديد للإشعاع، بيد أنه كان يظن أن الجرعة نصف القاتلة تبلغ قرابة أربعمائة رونتجن. غير أن أحسن تقدير لها في

الوقت الحاضر هو خمسمائة وخمسة وعشرون رونتجن بزيادة أو نقصان خمسة وسبعين رونتجن. ويتوقف هذا العدد على قوة مصدر الإشعاع ومدة التعرض له. فعندما أندفع "سلوتن، إلى الأمام ليفرق المجموعة الحرجة لمنع التفاعل المتسلسل، كان قد قلل بصورة قاطعة مبلغ الخطر الذي تعرض له جميع الموجودين بالحجرة من الناحيتين: من ناحية قوة الإشعاع، ومن ناحية مدى مدة الإشعاع. وبدهي أنه عرض نفسه في الوقت عينه للاتصال المادي بكتل الانشطار الذرى في نفس اللحظة التي حدث فيها التفاعل المتسلسل.

وقبل انقضاء ساعة من الزمن على هذا الحادث كان الرجال الثمانية الموجودون بالحجرة قد نقلوا إلى مستشفى "لوس ألاموس" — وهو بناء خشي مؤقت أنشئ وقت الحرب، ووضعوا فيه تحت الرقابة الطبية الدقيقة. وثم عالم آخر، مع استثناء العالم (ج) كان في موقفه بالحجرة أكثر قربا إلى سلوتن من الآخرين، وهو رجل أعزب في الرابعة والخمسين من عمره لم يزد بعده عن المائدة المعدنية على ستة أقدام، لبث في المستشفى عقب الحادث مدة أسبوعين كاملين وكانت تظهر عليه عوارض الإصابة بالإشعاع إلى جانب وجود رواسب الصوديوم المشع والفوسفور المشع في بوله. ولكنه لم يشعر بسوء على الإطلاق، بل إن هذا الرجل، وهو رياضي إلى حد ما، قطع في يوم واحد بعد خروجه من المستشفى ستة أميال مشيا على الأقدام ووجهه يفيض ويطفح بشرا وسعادة دون أن تسبب له هذه الرياضة شيئاً من ألم أو مضاعفات. أما الباقون الذي كانوا بالغرفة فقد كان موقف كل منهم أثناء الحادث أكثر بعدا من المائدة نسبيا، ومن ثم لم يكن نصيبهم من الإشعاع مدعاة للشكوى، وإن يكن كل منهم قد أصابه فعلا قدر من الإشعاع. ولقد كثر القيل والقال وانتشرت الروايات مبالغا فيها في الداخل والخارج حول هذا السفاح النووي، حتى توهم عدد غير قليل من الناس أن الإشعاع النووي يقتل لا محالة أو يكاد من أي مدى. والواقع أن العالم الرياضي الأنف الذكر، بلغ ما أصيب به من الإشعاع وفقاً لحساب الأخصائيين فيما بعد، مائة رونتجن — وهذا القدر يعتبر مماثلا للقدر الذي كان يصاب به لو أنه تعرض

تعرضا كاملا الإشعاع ناتج عن قنبلة ذرية حديثة زنتها مائة كيلو تنفجر على بعد ٦٥٠٠ قدم. وعلى الرغم من سرعة شفاء هذا العالم شفاء تامة فإن الإصابة بمائة رونتجن من الإشعاع الذري ليس بالأمر الذي يستهان به أو يسخر منه، إذ لو أنه تعرض للإشعاع فترة أطول بقليل من الفترة التي تعرض للإشعاع فيها كان المحقق أن تبلغ اصابته مبلغ ما أصيب به العالم (ج) من ضرر وألم – بل ربما لقي حتفه من جراء ذلك.

ولعلك تذكر أن العالم (ج) كان يقف عند وقوع الحادث ويده على كتف سلوتن، يتابع في يقظة واهتمام بالغين، التجربة التي كان من واجبه أن يتولى إجراءها فيما بعد. ويؤخذ من حساب الأخصائيين أن كمية الإشعاع التي تعرض لها تقدر بحوالي ١٨٠رونتجن، وهذه الجرعة وان تكن أقل بكثير من مقدار الجرعة نصف القاتلة إلا أن المصاب بها يعتبر داخل منطقة الخطر. إذ أنها تعادل مقدار ما كان يصيده من إشعاع لو أنه كان على بعد ست آلاف قدم من مكان انفجار قنبلة ذرية عصرية، أي أقل من بعد صاحبنا الفني الرياضي ببضع مئات من الأقدام. فقصر المسافة فيما يتعلق بالإشعاع النووي أمر له خطورته وإصابته أشد ضرر عما لو بعدت المسافة.

كان العالم (ج) رجلا شجاعا هادئا بطبعه، عندما نقل إلى المستشفى، تقيأ مرة عقب دخوله وفارقة الشعور بالدوار والغثيان بعد مضى عشر ساعات، وتحسنت حاله إلا من إحساس بالضعف والتعب وفقدان الشهية. وقد استمر على هذه الحال خمسة أيام أو نحوها. وفي اليوم الخامس بدأ يظهر ما كان كامنا من آثار أشعة جاما بين أنسجة خلايا الجسم فارتفعت حرارته إلى ١٠٣ درجه فهرنهيت مما استدعى إجراء عمليتين لنقل الدم إلى جسمه. وقد ظل وقتا غير قصير يشعر بفتور شديد في جميع أعضائه مصحوبا بضيق بالغ، إلا أن درجة حرارته أخذت تتناقص تدريجيا إلى أن تقدمت صحته في اليوم الخامس عشر من دخوله المستشفى تقدما ترتب عليه أن سمح له بالعودة إلى منزله للراحة والاستجمام.

بيد أن أشعة جاما لم تكن قد فرغت من أمره بعد. فقد نقص وزنه عشرة أرطال واستمر يشعر بالتعب من أقل مجهود لبضعة أسابيع حتى أنه كان يقضى ست عشرة ساعة كل يوم أو أكثر في فراشه. وفي اليوم السابع عشر مر بتجربة غير سارة وإن يكن قد ترقب وقوعها لما كان يعلمه عن نتائج الإشعاع. ففي ذلك اليوم بدأ يشعر بحكة وهب في الجانب الأيسر من رأسه، وهو الجانب الذي تعرض للإشعاع. وازداد الالتهاب حساسية في خلال اليومين التاليين حتى ترتب عليه الشعور بألم حاد. وفي اليوم العشرين بيها كان صاحبنا العالم (ج) يمشط شعر رأسه إذ وجد أن المشط قد علق به قدر غير يسير من الشعر المتساقط. صار شعر رأسه بعد ذلك يتساقط بسهوله ومقادير تملأ الكف، ووقف نماء غالبية شعر عارضه الأيسر كما أصيب بعقم مؤقت حسبما جاء في تقرير لجنة الطاقة الذرية "عن هذه الحالة عينها ، وهي الأعراض المعتادة في حالات الإصابة بالإشعاع الذرى. ولكن الأمر الذي أريد أن ألفت النظر إليه هو أن هذه الأعراض تسبقها أعراض أخرى طارئة مؤقته لا تلبث أن تزول. على أن هناك ظاهرة واحدة كان لها صفة الاستمرار ولازمت العلامة (ج) وهي إظلام متوسط القدر، لعدسة عينه اليسرى أنقص قوة إبصارها من ٢٠ / ٢٠ إلى ٢٠ / ٤٠، ومن الأدلة القاطعة على أن إصابته لم يبق لها من أثر في كيانه سوى ما ذكرنا، ذلك النشاط اللامع الذي ساهم به بعد ذلك في برنامج الطاقة الذرية، وخاصة في إنتاج ذلك السلاح الرهيب "القنبلة الهيدروجينية".

وموجز القول : إن الإنسان يستطيع أن يعيش حتى بعد عدوان ذلك الإشعاع الفتاك الصامت على خلايا أنسجته الحية. فلا نزاع في أن العلامة (ج) قد لامس الموت عن كثب ولكنه لم يمت، ولقد كتب عن لويس سلوتن الذي يجزم بأنه مدين له بحياته.

"ربما استطعت أن أقول لك الشيء الكثير عن أخلاق سلوتن وشخصيته إذا أنا لخصت ذلك في كلمتين قالها لي في المستشفى عندما كنا نزيلين في غرفة واحدة – قال: "إنني جد آسف لما جنيته عليك من هذا الأمر. أخشى أن احتمال شفائي أقل

بكثير من خمسين في المائة، وإنني لأرجو أن يكون حظك أوفر من هذا. ولقد كنت أنا شخصيا أقدر احتمال شفائنا مثل هذا التقدير أو قريبا منه. لقد شعرت بأن شفائي أمر كبير الاحتمال. ورجوت أن يكون نصيبه مثل نصيي.

ساد الأمل لبضعة أيام في احتمال شفاء سلوتن، فقد تقيأ مرتين قبل وصوله إلى المستشفى وظل يتقيأ مراراً طيلة الساعات الاثنتي عشرة الأولى من دخوله المستشفى، إلا أن ما كان يشعر به من إغراء زال عنه كما زال عن العلامة (ج) من قبل، ولم يبق من أعراض الإصابة سوى ارتفاع يسير في الحرارة وإحساس بالفتور والتعب.

وبديهي أن مقدار الإشعاع الذي أصيب به سلوتن في يديه كان شديدا رهيبا نظرا لاستعمالها في إبعاد الكتلتين المعدنيتين الواحدة عن الأخرى الوقف التفاعل المتسلسل. وفي بحر ثلاث ساعات أحمرت يده اليسرى احمراراً شديدة وتورمت وازرق ما تحت الأظافر. وبعد ثمان وعشرين ساعة من وقوع الحادث أخذت "النار الفارسية"[1] تظهر على جلد هذه اليد اليسرى فتسبب له آلاما شديدة، وسرعان ما انتشرت فوق يده اليسرى وفوق ذراعيه. ومنذ ذلك الحين لفت ذراعاه بالثلج لتخفيف التورم والآلام. واحمر كذلك الجزء الأسفل من بطنه والتهب ولم يلبث أن انتشر الالتهاب تدريجيا إلى المناطق المجاورة بصورة مركزة.

على أننا إذا صرفنا النظر عن هذه الأعراض المحلية، وجدنا أن حالته العامة بدت كما لو كانت قد أخذت تتحسن كثيرة بعد الساعات الأربع والعشرين الأولى. وقد انتشر خبر الحادث سريعا بين جميع أوساط حي "منهاتن"، وأخذت جميع التدابير الممكنة لمساعدة "سلوتن"، وإسعافه، فاستدعى لفحصه وللاستشارة ما لا يقل عن عشرة أطباء.

وكتب إليه الجنرال "ليزلى جروفز" يقول: "ليس لدي ما أقوله لك سوى إني معجب أيما إعجاب بصنيعك الذي ينم عن البطولة الحقة .... فإقدامك وسرعة

---

[1] نفاخات ممتلئة ماء رقيقا يخرج بعد حكة وهب.

تصرفك على الوجه الذي تصرفت به مزدريا ما يحدث في سبيل ذلك من الخطر لشخصك، قد حال بلا ريب دون تفاقم الخطب وحد من خطورة الموقف".

أشاع خطاب الجنرال السرور في نفس "سلوتن"، ورفع من روحه المعنوية. وضاعف من اغتباط سلوتن ما تراه إلى علمه من أن الجنرال قد أمر بإرسال طائرة حربية خاصة إلى ونيبج لإحضار أبويه لزيارته. ولقد وجداً ابنهما حين وصولهما في حالة طبيعية، وادع النفس منشرح الصدر على الرغم ما كان يعانيه من ألم في ذراعيه. وكان كلما حضر زملاؤه وأصدقاؤه لعيادته قدمهم لأبويه ثم كان يفاجئهم نصف مازح بذلك السؤال الحرج: والآن ما مقدار الجرعة التي أصبت بها؟.

لم يكن أحد يعرف جوابا لهذا السؤال طيلة أيام خمسة. ولكن الجواب جاء في اليوم الخامس يحمل نذير المأساة المؤلمة. فقد قدرت الجرعة بأكثر من نصف قاتلة. وفي صباح هذا اليوم عينه شكا سلوتن من عارض جديد فقد التهب لسانه في الموضع المقابل لسن محشوة بالذهب. وبفحصه وجد الأطباء رقعة صغيرة متقرحة فوق لسانه، فارتابوا من فورهم في المادة الذهبية داخل سنه ومن أنها قد تأثرت بالإشعاع، فعمدوا إلى تغطية الذهب بعنصر مضاد خف الألم بعض الشيء. بيد أن هذا كان علامة تنذر بالشر.

وظهر في اليوم نفسه أثر أكثر سوءا عندما جاءت نتيجة تحليل دم سلوتن. فما إن رأت الممرضة أنا ماى دكى. وهي من ممرضات مستشفي "لوس ألاموس" نتيجة التحليل حتى أخذت في البكاء، فقد عرفت معنى التناقص السريع في عدد كريات الدم البيضاء. أجل إن السفاح الصامت الخفي كان قد راح يعبث فسادا في دم سلوتن إلى أن عجزت خلايا الدم الأبيض التي عليها عماد الحياة عن أن تتوالد.

وفي نفس اليوم أيضاً ازداد نبض المصاب سرعة. لم يستطع سلوتن بعد ذلك تناول شيء من الطعام، ونقص وزنه بصورة ملموسة. وفي اليوم السابع بدأت قواه العقلية تضعف، وكانت تمر به فترات تختلط عليه فيها الأمور ويرتبك عقله فلا يتعرف

على أبويه ولا يميز أصدقاء وزملاءه، ومن ثم أخذ يدخل تدريجيا في غيبوبة الموت. وفي الصباح الباكر من اليوم التاسع الموافق الثلاثين من مايو عام ١٩٤٦ لفظ لويس سلوتن النفس الأخير في هدوء وسكون. هذا بمجمل القول في قصة سلوتن. ولقد حمل أبواه جثته إلى دونيج، على ظهر إحدى الطائرات، واحتشد لتشيع رفاته جمع غفير من علماء الولايات المتحدة وكندا وغيرهم. وقدم أبواه قربانهما الأخير على مذبح العلم لخدمة قضيته، فسمحا بتشريح جسد ابنهما على الرغم مما في ذلك من خروج على تعاليمها الدينية وأحكام شريعتهما.

ويؤخذ من التقرير الذي نشرته حديثا للجنة الطاقة الذرية بشأن هذا الحادث أن كمية الإشعاع النووي التي أصيب بها سلوتن تقدر بحوالي ٨٨٠ روتنجن، ومعنى ذلك أن سلوتن قد تعرض تعرضا كاملا لإشعاع يعادل ما ينبعث من قنبلة ذرية عصرية تنفجر على مدى ٤٨٠٠ قدم من موقعه. وبذلك ينعدم كل أمل في النفجأة من الموت.

لم يكن سلوتن بالرجل العظيم ولا بالذائع الصيت،بيد أن قصته، في اعتقادي، قصة جديرة بالرواية، لا لأن الإشعاع النووي الذي يفتك بالبشر دون أن يرى أو يحس له وجود، يبالغ الناس في الفرع منه لما يكتنفه من غموض، لا لذلك فحسب، بل لأنها قصة جديرة بالرواية أيضاً، لأنها قصة تمثل شجاعة البشرية وما تقدمه من تضحية. صفات ربما قدر لها أن تنقذ الحضارة مما يتهددها من دمار وخراب على يد الأسلحة عينها التي ساهم سلوتن في صنعها.

الانتقام الإلهي العادل

بقلم: مجهول

كانت القصة التالية –ويرجع عهدها للقرن الثامن عشر– من بين محتويات يوميات عثر عليها في جزيزة أسانسيون "موسن" قبطان السفينة "كميتون" وهو في طريقه إلى وطنه إنجلترا عائداً من الهند.

وكان عنوان هذه اليوميات العتيقة ما نصه (الشرح الكامل للصلة الحقيقية بين إنزال الكاتب إلى شاطئ تلك الجزيرة بأمر قائد الأسطول الهولندي وربابنته عقابا له على الجريمة الكبرى التي ارتكبها وبين ما تكبده من مشاق وآلام وبؤس من يوم تركه بهذه الجزيرة إلى يوم مماته، وهذه اليوميات التي وجدت بجانب رفاته هي من قلمه وبخط يده:

أنزلت إلى شاطئ جزيرة أسانسيون بأمر قائد الأسطول الهولندي وربانه في الخامس من شهر مايو سنة ١٧٢٥ فتملكني الخوف والقلق، ولم يبق لي من أمل إلا أن يتداركني العلي القدير برحمته ورعايته. وكان كل ما تركوه لي على الشاطئ "جمدانة" ماء وفاسا ودلوين وإناء لطهي الطعام وبندقية خفيفة اصيد الطيور وإبريقا وقطعة قماش مطلية بالقار للوقاية من الأمطار، وقدرا من البصل والبازلاء المجففة والحمص والأرز ... الخ. وفي الحال نصبت خيمتي على الساحل ووضعت بعض الملابس على الرمال إلى جانب صخرة قريبة ليسهل على تناولها كلما احتجت إلى ذلك.

وفي اليوم التالي وهو السادس من الشهر وكان يوم الأحد، صعدت إلى قمة إحدى التلال لأرى ما إذا كان هنالك شيء من الكائنات يصلح للطعام، أو شيء

من الخضر أسد به رمق، ولكن شد ما أحزني وأقلقني أن لا أجد شيئاً يصلح لهذا الغرض، فأخذت أنعم النظر في أمر نفسي وفي حياتي الفاشلة وفي عدالة الخالق العلي القدير الذي شاء أن يأخذني بما أستحق من قصاص فيه موعظة وعبرة على ما اقترفته من آثام خبيثة. ووددت صادقا لو أن الأقدار وضعت حدا لحياتي التعسة التي ساء مصيرها بسبب ما ارتكبته من أوزار دنيئة.

وعدت مع المساء إلى خيمتي بعد جهد ومشقة لعدم خبرتي بالطريق، وكنت أنقل خطواتي على الرمال كئيبا حزينا وأنا أضرع إلى الله أن يمهد إلى سبيل النجاة من هذه الجزيرة الموحشة. وما إن وصلت إلى خيمتي حتى أخذت في تحصينها بالحجارة وغطيتها بقطعة القماش المطلية بالقار وقاية من الرياح والتقلبات الجوية وحوالي الساعة الرابعة أو الخامسة وفقت إلى اصطياد ثلاثة طيور ملحتها على الفور بعد أن انتزعت جلودها ثم وضعتها في الشمس لتجف. وكانت هذه الطيور البحرية الثلاثة أول ما اصطدت في هذه الجزيرة.

وفي صباح السابع من الشهر سرت إلى حيث تركت جمدانة الماء في مكان يبعد عن الخيمة بما لا يقل عن نصف فرسخ فثقبتها لأستخرج بعض الماء فانسكب جزء كبير منها وذهب كثير من الماء هباء فقلبتها على رأسها بكل مشقة وبهذا تيسر لي الاحتفاظ بما بقي فيها، عمدت بعد ذلك إلى صنع راية بيضاء مستعملا لذلك قميصا عتيقا، وثبتها فوق تل قريب جداً من البحر متخذا من بندقيتي ساقا الراية إذ لم يكن لدي شيء يصلح لذلك غيرها. ولم يكن لها أي نفع لعدم وجود البارود والخرطوش. وشغلت نفسي بقية المساء في نقل بعض الحجارة إلى الخيمة زيادة في تحصينها وتدعيمها.

وبكرت في صباح الثامن من الشهر إلى إنزال رايتي من مكانها ونقلتها إلى تل بالجانب الآخر من الجزيرة. وفي أثناء الطريق إلى التل صادفت سلحفاة بحرية فتلتها

بمؤخرة البندقية ثم رجعت أدراجي إلى الخيمة لأريح أطرافي[1] وكان الأمل ما يزال يداعب خيالي في قدوم إحدى السفن على عجل لإنقاذي.

وبحلول الليل نقلت خيمتي إلى الجانب الآخر من الصخرة خشية ما يتهدد حياتي من سقوط الحجارة ولم تكن لي رغبة في أن أكون عونا على إزهاق روحي أملا مني في أن يكون القوي العظم قد قدر لي أن أتمتع بعد بمستقبل أحسن من حاضري. ولم يكن بالجزيرة كابها مكان أوفر للراحة من المكان الذي نصبت فيه خيمتي وهو أمر يبعث على قدر غير يسير من الارتياح الشخص أنهكه العمل الشاق المتواصل في مثل هذه الظروف القاسية المضنية. وكان مما زادني ثقة بعناية الله ورحمته أني كنت ما أزال أتمتع بصحة جيدة. وفي المساء قتلت ثلاثة طيور أخرى.

وفي صباح التاسع من الشهر ذهبت في طلب السلحفاة التي كنت قتلتها في اليوم السابق مصطحبا فأسي، فشطرت ظهرها لعجزي عن قلبها عليه لضخامة حجمها ثم قطعت بعض اللحم من ناحية زعنفتها الأمامية وحملته إلى خيمتي حيث ملحته وجففته في الشمس. وكنت قد فرغت للمرة الثانية من تغطية خيمتي بالقماش المطلي بالقار فشرعت في رص الحجارة حولها زيادة في تحصينها.

وفي صباح العاشر من الشهر أخذت أربع بصلات أو خمس وحفنة من البازلاء الجافة وحملتها معي إلى الناحية الجنوبية من الجزيرة للبحث عن مكال ملائم لوضعها فيه وكنت أدقق النظر طيلة الطريق في الرمال عسى أن أستكشف جدول ماء صيني أو آثار أقدام بعض الحيوانات أسترشد بها إلى المكان الذي يشربون منه. كذلك كنت متيقظا أشد اليقظة لما قد أعثر عليه من الأعشاب أو النباتات. وبعد جهد ومشقة تكبدتها فوق رمال هذه الجزيرة القاحلة، وفوق التلال والصخور التي يتعذر تسلقها إلا بشق الأنفس عثرت على قليل من الرجلة (البقلة الحمقاء) تبلغت بجزء منها. ولما كنت منهوك القوي، وقد أجهدني الظمأ ولم أجد ما ينقع غلتي، وضعت ما بقي من

[1] كناية عن السيقان.

الرجلة في كيس كان معي ووليت وجهي شطر الخيمة. على أنى عثرت في طريق العودة على بعض أنواع أخرى من الخضر ولكن لم أجرؤ على أكلها إذ كنت أجهل صلاحيتها للطعام.

وفي صباح الحادي عشر توغلت في الجزيرة من جديد حيث عثرت على بعض جذور مذاقها قريب من طعم البطاطس، ولكنني كنت أخشى ألا تكون صالحة للأكل، وبذلت قصارى الجهد للكشف عن غيرها ولكن من غير طائل فأهمني ذلك كثيرا، ولما كان حلقي قد جف من الظمأ فقد عدت إلى خيمتي وكنت قد نصبتها عند سفح تل صغير يقوم إلى جوار تل أكبر منه حجما ويتاخم خليجا رمليا. وفي المساء شرعت في سلق بعض الأرز فوق أكبر التلين، وكنت شارد الفكر منهوك القوي عقلا وجسدا.

وفي صباح اليوم الثاني عشر سلقت حفنة من الأرز مرة أخرى تناولت قليلا منها ثم صليت لله متضرعا إليه أن يقيض لي خلاصا سريعا مما أنا فيه من عذاب ونصب. وليت وجهي بعد ذلك شطر الساحل يراودني الأمل في اقتراب سفينة عابرة، ولكنني لم ألمح شيئاً على الأطلاق فأخذت أذرع الشاطئ جيئة وذهابا لا تقع عيني إلا على أصداف المحار الحالية، فران على نفسي السأم والضجر وفضلت العودة إلى الخيمة. وكان من عادتي أن أخرج إلى الشاطئ كل يوم وأسرح البصر فوق المحيط لعل سفينة من بين السفن العابرة تلجئها الأنواء والرياح إلى الاحتماء بهذه الجزيرة القاحلة المقفرة المجدية لإصلاح ما قد يكون طرأ عليها من الخلل، وبعد ذلك أقطع سحابة النهار في القراءة ورتق ملابسي. أما الشطر الأكبر من الليل فقد كنت أقضيه غارقا في التأملات مفكرا فيما آلت إليه حياتي التعسة البائسة.

وفي عصر الثالث عشر من الشهر وضعت في بطن الأرض بالقرب من الخيمة البصل وبعض البازلاء والرجلة علها تنبت وتنمو. على أنني كنت قد بكرت في هذا اليوم نفسه بالذهاب للبحث عن بعض دراج الماء ولكني لم أجد شيئاً منه، وفي طريق العودة صادفت سلحفاة اتخذت من بيضها ومن لحمها غذاء ممتعا مع قليل من الأرز

ودفنت ما تبقى منها في الرماد خشية أن تؤذيني رائحتها فحجمها كبير يتعذر على رجل واحد أن يأتي عليها في وجبة واحدة. وعثرت كذلك على بعض بيض السلحفاة في أعشاشها فسلقته وخلطته بعض الدهن المذاب من السلحفاة بينها وضعت ما تبقى من دهنها في إناء صغير للإضاءة ليلا إذ لم يكن لدي شيء من شمع أو غيره.

وفي صبيحة اليوم الرابع عشر خرجت لنزهتي المعتادة بعد أن صليت الله، ولكنني لم أعثر على جديد فعدت إلى الخيمة حيث واصلت عملية رتق ملابسي ثم استأنفت كتابة يومياتي هذه.

وفي اليوم الخامس عشر أكلت قليلا من الأرز ثم خرجت لمزاولة عملي المعتاد، وهو صيد الطيور وأخذت بعد ذلك أرفه عن نفسي بالقراءة، وبعدها حاولت تهدئة أعصابي وعقلي الملتهب بالرقاد.

وفي اليومين السادس عشر والسابع عشر اصطدت عددا من الطيور الانف ذكرها محتفظا بواحد منها حيا نحو ثمانية أيام ولكنه مات بعد ذلك.

وفي اليوم الثامن عشر اصطدت طائرين آخرين. ولكن لم يحدث في اليومين التاسع عشر والعشرين شيئا يستحق الذكر.

وفي اليوم الثاني والعشرين توجهت إلى الجانب الآخر من الجزيرة أملا في استكشاف شيء جديد ولكن لم أوفق إلى شيء. وفي عصر اليوم نفسه أعددت خيطا لصيد الأسماك وجلست فوق صخرة قريبة من الشاطئ قرابة أربع ساعات، فتصور أيها القارئ مدي قلق واضطراب عقلي والمخاوف التي كانت تساورني إذا ما انتصف الليل، هذا الليل الذي هو رمز أوزاري وآثامي، وتصور العذاب الذي يتجدد كلما أشرقت شمس يوم جديد. وما إن عدت إلى الخيمة حتى وجدت الدخان يملأ جوانبها فتذكرت أنني كنت قد تركت فوق مرتبتي صندوق مادة الاشتعال، فأسرعت إلى الشاطئ بالدلو فملأتها من ماء البحر وعدت فأخمدت اللهب وحمدت الله على أن متاعي لم تأت النيران عليه ، فلم يحترق منه سوى قميص وعباءة وطرف من أطراف

المرتبة وجانب من الإنجيل، وتضرعت إلى الخالق سبحانه وتعالى أن يهبني الصبر والجلد على تحمل هذه الصدمات والكوارث.

قطعت طيلة اليوم الثالث والعشرين في التسبيح بحمد الله وبفضله. وكنت أحياناً أعذب نفسي بالتأمل فما تستحقه آثامي من العذاب والقصاص، علما بأن الجزاء الذي أستحقه على ما اقترفت من الإثم هو الموت الذي لا مفر منه إذ كانت جريمتي من أبشع الجرائم حتى عجز تفكيري عن تصور نوع العقاب الكافي للتكفير عن ذنبي العظيم.

في اليوم الرابع والعشرين جررت الخطى إلى حيث رايتي ثم قفلت عائدا إلى خيمتي بعد أن اصطدت طائرا واحدا شويته على الجمرات الباقية وتبلغت به. وفي الخامس والعشرين بعد تناول الإفطار ذهبت لأصطاد بعض الدراج البحري ثم عدت به إلى خيمتي لتجفيفه. وفي اليوم السادس والعشرين كررت محاولات لاكتشاف بعض السفن الماخرة وسط المحيط ولكن خاب رجائي وتبخرت جميع آمالي فيما وقع نظري في ذلك اليوم على شيء مطلقا ولا حتى على شيء من الدراج. ولازمني هذا الطالع السيء طيلة اليوم السابع والعشرين. وفي اليوم الثامن والعشرين تسلقت تلا عاليا، فلو أن قدمي زلت للقيت حتفي ما في ذلك شك على أني لم أجد هناك شيئاً يستحق الذكر، كما أني لم أجد في المنطقة ما يحفظ رمقا لجائع. وفي اليومين، التاسع والعشرين والثلاثين، منيت بمثل ما منيت به في اليوم السابق من خيبة الأمل. وفي اليوم الواحد والثلاثين جمعت المؤن التي سبق أن ملحتها ووضعتها في الشمس لتجف، ومن العبث أن أقص عليك كيف أجهدت عيني من أول يوم في شهر يونيو حتى الرابع منه في محاولة تبين شيء من السفن في عبورها للمحيط على مدى مرمى البصر، ولكن عبثا حاولت فقد كان من نتيجة رغبتي الملحة في إيجاد طريق للخلاص ما أنا فيه أن أخذت بعض الظواهر الطبيعية التي تتمثل صورا وهمية لعين تحت وهج الشمس تلوح لي وكأنها سفن تقترب من الشاطئ. وكانت لجة المحيط المدوية تبدو لعيني وقد امتزجت بأشعة الشمس اللامعة كما لو كانت ظلالا باهتة كظلال القمر عند ما يحجب منه

جانب. وكانت ألوان عناصر الطبيعة المختلفة وكل سحابة في السماء تبدو لي كما لو كانت شراع مركب رحيم، فتصور مبلغ جزعي عند ما يرتد إلي بصري المتعب خاسئا حسيرا بعد أن ينقشع السراب وتتبخر الرؤى ولم تبق غير الحسرة اليائسة.

كان الربان قد أخبرني عندما أنزلني إلى الشاطئ بأننا في موسم ارتياد السفن لهذه الجزيرة أو مرورها بها، فكان هذا حافزا إلي لترقبها، ولقد كنت أرتاد الشاطئ وأتردد عليه بدون انقطاع من اليوم الخامس إلى السابع. ولكن بغير طائل.

وفي اليوم الثامن نقص مقدار ما عندي من الماء حتى لم يتبق لي سوى لترين. وكان الماء قد كثف جداً حتى اضطررت إلى ترويقه مستعينا على ذلك بمنديل، وشرعت من فوري – وإن يكن ذلك قد جاء متأخرة – في حفر حفرة وسط الجزيرة. ولكن بعد تعمق نحو ستة أو سبعة أقدام في الحفر لم أجد أثرا لشيء من الماء فعدت إلى خيمتي وشرعت في احتفار بئر جديدة ولكني وجدت ذلك غير عملي. وقد رانت علي الكآبة إذ لم أجد بعد أن تعمقت في الحفر قرابة مترين شيئاً يدل على احتمال وجود أثر الماء فتضاءل أمامي كل أمل في العثور على العناصر الضرورية لبقاء المخلوق على قيد الحياة. وفي اليوم التاسع لم أجد شيئاً أتقوت به فقطعت الوقت مفكرا في مصيري وفي الابتهال إلى الله أن يصرف عنى غضبه ومقته. وفي اليوم العاشر سلقت بعض الأرز في البقية الباقية لي من الماء بعد أن تبددت كل آمال في البقاء على قيد الحياة، واسترجعت الله كثيرا، ووكلت إليه أمر نفسي ثم ما لبثت أن تذكرت ما سمعته في الماضي عن وجود بئر بهذه الجزيرة، فرحت أذرع الأرض وأتسلق التلال والصخور من جانب إلى جانب رغم ما كنت أشعر به من الضعف وقد استقر عزمي على أنبش الجزيرة كلها بحثا عن الماء، وما إن قطعت أربع ساعات في هذا البحث المضني حتى بدأت أشعر بالظمأ الشديد، وكانت أشعة الشمس المحرقة تجعل من الحياة عبئا ثقيلا على عاتق، ولكنني كنت مصمما على المثابرة على الرغم من فتور همتي من وطأة القيظ وشدة التعب، فقد كنت أقرب إلى الموت مني إلى الحياة بيد أن الله الغفور الرحيم هداني بفضله وكرمه إلى جوف صخرة ينبعث منها جدول ماء عذب!

ليس في مقدوري أن أعبر عن مبلغ ما غمرني من السرور والارتياح لدي رؤية هذا المنظر المبهج، فقد شربت من هذا الماء حتى ارتويت ورحت أعيد الكرة وما إليه من ظمأ، وجلست إلى جانب الجدول مدة غير يسيرة وأنا أستمتع بالنظر اليه، ثم نهلت منه مرة أخرى وأخذت بعدها في طريق العودة إلى الخيمة دون أن أحمل معي شيئاً من ذلك الماء القراح إذ لم يكن معي إناء أحمله فيه. وفي صبيحة اليوم الحادي عشر صليت شكرا للصانع العظم في خشوع وإخلاص عميقين ثم تناولت إبريقي وحفنة من الأرز وبضعة ألواح من الخشب ويممت وجهي شطر الينبوع حيث شرعت في طهو ما معي من الأرز. وفي صباح اليوم الثامن عشر طهوت حفنة من الأرز لفطوري، ثم أخذت دلوين فملأتهما من الينبوع وعدت بهما بكل مشقة إلى خيمتي، ولما كان نعلاي قد تمزقا من كثرة التجول فقد أخذت الصخور تمزق قدمي بصورة مؤلمة حتى خشيت على نفسي من السقوط وتحطم الدلوين اللذين لولاهما لم يكن استمرار الحياة أمرا ميسورا.

وفي اليوم الثالث عشر خرجت في طلب شيء أقتات به فلم يسعفني الحظ، وكل ما عثرت عليه بعض نباتات صغيرة تشبه ثمار أشجار "البتولا" جمعتها وعدت بها إلى الخيمة حيث سلقتها مع بعض الأرز لعشائي. وبعد ذلك خرجت إلى الشاطئ لمراقبة البحر كالمعتاد ولكن خيبة الأمل لازمتني وحركت في قلبي عوامل الحزن العميق ورانت عليه كآبة مريرة.

وفي الرابع عشر والخامس عشر أخذت حفنة من الأرز وإبريق وذهبت إلى الينبوع حيث صنعت طعامي وارتويت، ثم عدت إلى خيمتي فشرعت أرتق ثيابي وبعد ذلك خلدت إلى القراءة بقية يومي... وفي السادس عشر اتخذت موقفي من الشاطئ كالمعتاد ولكن بغير طائل فعدت إلى الخيمة لأنال قسطا من الراحة. وبينما أنا في جوف الليل الحالك الهادئ إذا في أفاجأ بأصوات غريبة من حولي تلعنني بألفاظ مفزعة وتعبيرات فاحشة لم أسمع لها نظيرا من قبل، فانتصب شعر رأسي وتملكني الرعب وتصبب العرق البارد فوق صفحتي وجهي الشاحب. التزمت السكون في

رقادي وتحاشيت الكلام وأنا أرعد من الفزع خشية أن يكون من بين أولئك الشياطين من يفوقهم شرا فيفتر سني، وما أجدرني أن أكون طعاما شهية لأولئك العفاريت بعد ما أتيته في جانب الله من خطايا ومن عصيان لشرائعه الحقة العادلة. فلو أن حيا على وجه الأرض رأي ما رأيت لشبت عنده أن الشيطان قد نزح عن كهفه المظل وجاء إلى هذه الأرض ومعه حاشيته من الأرواح الشريرة ليقيم له جحيما على الأرض، فقد كنت واثقا كل الثقة من أنه ليس بالجزيرة مخلوق غيري إذ لم يقع نظري على آثار لقدم منذ هبطت إليها.

وكان حديثهم وتصرفاتهم معا لا تصدر إلا عن أمثالهم من الأرواح الشريرة، وكان واحد من بينهم أعلى صوتا وأكثر جلبة من الآخرين قد أخذ يلطم وجهي بذيله بصورة مستمرة حتى بت أتوقع أن يمزق جسدي من لحظة إلى أخرى. وخيل إلى أنني سمعت صوت صديق لي كنا كثيرا ما تتجاذب معا أطراف الحديث أيام كان على قيد الحياة، فتوسلت إلى الله سبحانه وتعالى أن يتداركني برحمته وأن يغفر لي خطيئتي، وفي اعتقادي أن هذا المشهد من صميم الجحيم لم تنسدل عليه الستار حتى كانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحا، وكنت قد أجهدت كل الاجهاد ونال مني التعب منتهاه فاستغرقت في نوم عميق. نهضت حوالي السابعة فشرعت أصلى لله وأحمده على خلاصي. على أنني كنت لا أزال أسمع بعض الصرخات المرة بالقرب من خيمتي ولكنني لم أكن أرى مصدرها، فأسرعت إلى الإنجيل وأخذت أرتل تلك الصلوات الملائمة لمثل من يكون في موقف وظروفي وسمعت في الوقت نفسه صوتا يصيح لي "أيها الوغد ". ليس لدي من الورق ما يكفي لتخصيص جانب منه لسرد كل ما حدث لي في ذلك اليوم المشئوم.

وفي اليوم السابع عشر أحضرت ملء دلوين من ماء الينبوع، ولكنني كنت أرقب هبوط الليل في جزع ورهبة، فتوسلت إلى الله أن يقيني شر تلك الأرواح الشريرة، ويقيني أن الله قد استجاب لي فلم أرزأ بهم في ليلتي هذه. وفي اليوم التالي ألم في طيف على صورة رجل كنت وثيق المعرفة به وتحادث معي شارحاً لي ذلك الشطر

الشرير من طبيعة البشر الذي كنت من ضحاياه، فندمت أشد الندم على ما فرط مني حتى وددت لو أن الصدمة التي اعترتني وضعت حدا لحياتي التعسة.

وفي اليوم الثامن عشر بعد الفراغ من الصلاة ذهبت كعادتي إلى الشاطئ، ولكن منيت بخيبة الأمل من جديد، فتحولت بخطى حثيثة إلى الجانب الآخر من الجزيرة حيث وجدت لفرط غبطتي شجرة أعتقد أن القدر قد ألقى بها إلى الشاطئ لتخفيف ضائقتي فقسمتها بفأسي إلى أجزاء إذ لم يكن في مقدوري أن أحملها دفعة واحدة. حملت جزءا منها فوق عاتقي ولكني اضطررت إلى التماس الراحة في منتصف الطريق فألقيت بها على الأرض وجلست فوقها برهة من الوقت. وا أسفاه! ما أتعسني من رجل كانت زلته سببا في نفور الأصدقاء منه، وكرهه الزملاء والرفاق حتى تركوه يمم على وجهه وحيدا في هذه الجزيرة القاحلة "كبختنصر" يرعى مع الوحوش حتى كره نفسه وتحاشاه الناس فراح يبتهل إلى الله أن يمن عليه بالموت، فضميره يؤنبه ويكته وآثامه لا تبرح خياله، وحياته الفاشلة التي قضاها في اللهو والعبث تستمطر عليه نقمة الخالق. هذا هو أنا، أنا الشق التعب الذي يستحق ما أنزل به الله من قصاص عادل. وبينما كنت أريخ أطرافي المتعبة المنهوكة غارقا في تأملاتي ألم في الطيف مرة أخرى فتملك نفسي من الجزع والفزع ما لا يستطيع قلبي وصفه.

ليس لي رغبة في ذكر اسمه إذ لا علم لي بما قد يترتب على ذلك من نتائج. لقد لازمني طويلا حتى أصبح يعاملني (بغير كلفة). وبعد أن نلت قسطا من الراحة رفعت حملي وسرت إلى الخيمة ثم قفلت راجعا لاستحضار بقية أجزاء الشجرة.

وفي اليوم التاسع عشر ذهبت مع الصباح إلى حيث تخفق رايتي لتسريح بصري فوق المحيط أملا في مشاهدة سفينة تقترب من الشاطئ، ولكن قدر لي أن أحرم مثل هذا المنظر فعدت مع المساء إلى خيمتي لأستريح، ولحسن الحظ لم تعد هذه الأرواح الشريرة لتقلق راحتي تلك الليلة ولا سمعت أصواتهم في اليوم التالي مما أيد رجائي في أن تكون هذه الأرواح الملعونة قد عادت إلى كهوفها المظلمة. ولكن ما كاد يخيم ظلام الليل حتى أتت هذه الأطياف وهي تستشيط غضبا مضاعفا وأخذت تقيمني

وتقعدني في خيمتي حتى بدا جسدي في الصباح وكأنه إحدى المومياء المصرية. وتحدث إلي الشخص الذي كنت أعرفه فيا سبق عدة مرات ولا أظن أنه كان يريد في شرا لأننا كنا متآخيين في حياته كما لوكنا شقيقين حقا، أيام خدمته العسكرية في "باتافيا" وجدت إناء التحمير على الأرض والشمعة مطفأة وأمتعتي مبعثرة. ورجوت، إذا لم تكن مشيئة الله قد اقتضت بعد أن تضع جداً لما أنا فيه من الكرب والبلاء الشديد، أن يكون ما أقاسيه من العذاب تكفيرا عن الخطايا الشنيعة التي ارتكبتها. إن ساعتي الأخيرة أخذت تقترب وأخذت قواي تنهار وتتدهور وأصبحت الحياة حملا لا يطاق.

وفي اليوم الواحد والعشرين تضرعت إلى الله طالبا منه الرحمة والمغفرة ثم خرجت للبحث عن شيء أتبلغ به في يومي هذا، ولكنني وجدت يد القدر قد انقبضت من دوني فرانت على نفسي الكآبة وتغلغل الحزن والألم إلى روحي القلقة المعذبة، وساورت الهموم العميقة أحاسيسي ومشاعري وأصبحت أتوقع الهلاك من لحظة إلى أخرى. ما أشد الآلام التي تنتاب المخلوقات الشقية الذين زين لهم الغرور والعناء أن يسلكوا طرق الحياة الملتوية ويتنكبوا طريق الفضائل القويمة فرحين بأنهم قد زادوا في عدد الملعونين في الأولى والآخرة.

وفي اليوم الثاني والعشرين أخذت الدلوين وذهبت لأملأهما من الينبوع والعودة بهما إلى خيمتي فاستغرقت العملية سحابة النهار لسيري البطيء بسبب ما كنت أشعر به من الآلام الشديدة في قدمي الحافيتين اللتين أدمتهما الصخور الحادة. وقضيت اليوم الثالث والعشرين في الصلاة والتأمل ومراقبة البحر. كذلك كانت الحال في الفترة من الرابع والعشرين إلى السابع والعشرين فقد قضيتها كلها في صلاة متواصلة. وفي صبيحة الثامن والعشرين خرجت لأنظر ما إذا كانت رايتي لا تزال قائمة، وبعد أن تخشعت الله والتمست منه الرحمة والمغفرة كررت عائدا إلى الخيمة وسرعان ما جمعت فراشي وبعض ما لا غنى عنه ويممت وسط الجزيرة حيث اتخذت لي مأوى جديدا في جوف صخرة ضخمة لأكون بمقربة من ينبوع الماء السالف الذكر. ولكن ما كان

أعظم ذهولي عندما ذهبت الحمل بعض الماء فلم أجد في الينبوع قطرة واحدة. لم أجد بدا حينئذ من تناول بعض البيض وسلقه في إبريق الشاي ببعض ما كان قد بقي لي من ماء قليل. وبعد ذلك تحولت إلى جانب الجزيرة الجنوبي ،حيث يقوم تل كبير من رمال وصخور جمعت بعض الرجلة ووضعتها في كيس مع بعض البيض. حمرت جميع ذلك وتمتعت بوجبة شهية ولكنني اضطررت إلى التبكير بالعودة خشية أن أضل الطريق إلى مسكني الجديد إذا أنا تأخرت. وما أن وصلت إلى الصخرة حتى كان قد اشتد بي الظمأ وتقرح جلدي بصورة بشعة واكتوي بحرارة الشمس حتى تعرى لحمي أو كاد.

وفي اليوم التاسع والعشرين صعدت إلى قمة التل لأرقب البحر على أجد فرقه مركبا أستلفت نظر ربانها، ولكن عبثا حاولت. وبينما أنا أذرع الشاطئ لمحت قطعة خشب غائصة في الرمال فحسبتها لأول وهلة شجرة أو جذع شجرة، ولكن ما إن اقتربت منها حتى تبينت أنها صليب فاحتضنته وصليت بحرارة وخشوع إلى الله متوسلا إليه أن ينقذني مما أنا فيه من المحنة والبلاء الشديد. ويغلب على ظني أن أحد الملاحين أو المسافرين كان قد دفن بهذه الجزيرة من قبل. وفي طريق العودة إلى خيمتي تمزقت قدماي من الصخور الحادة وتشققت إلى حد بالغ، حتى وددت لو أني هلكت في أثناء هبوطي من التل وما إن وصلت الخيمة حتى خلدت إلى الراحة بعض الوقت ثم خرجت مرة أخرى، وبينما أنا أسير إذ عثرت على شظية من زجاجة فتتبعت الأثر وهبطت إلى كهف عميق وجدت به بعض الماء الآسن المتعفن، وهكذا بؤت بالفشل من جديد. وفيما أنا أجر الخطى عائدا إلى مسكني الجديد في الغار إذ وقع نظري على بعض أخشاب مبعثرة فوق الأرض جمعتها وحزمتها وأخذت استأنف المسير وأنا أندب مصيري. وما كدت أصل الغار حتى طرق سمعي صوت رهيب يشبه صوت جماعة كثيرة من النحاسين أثناء عملهم. خرجت من الكهف مرة أخرى للحصول على بعض النباتات والبيض فوجدت منهما ما اقتت به وشربت آخر جرعة بقيت لدي من الماء.

وفي الثلاثين خرجت للبحث عن الماء في أجده. وتبخر كل أمل في البقاء على قيد الحياة، وظهر لعيني هيكل عظمي بغيض الصورة رافعا يده مشيرا إلى حنجرته كأنما يريد أن يخبرني بأني سأموت ظمأ.

وفي أول يوليو لم تبق بالجزيرة عين ماء إلا وقد جفت تماما. فأيقنت بالهلاك المحقق ورحت أصلي لله متوسلا اليه أن يحفظني ويرعاني كما فعل بموسى وأبناء إسرائيل ويأمر الماء أن يتفجر من بين الصخور، وأنا أعتبر أن ما نال بني إسرائيل من جهد وما حل بهم من كرب وبلاء دون ما أعانيه من شقاء وهول، إذ كنت لم أحرم من الطعام والشراب والملبس فحسب، بل حرمت كذلك من مخالطة الإنسان ونفيت من المجتمع وتركت فريسة الجوارح الطير التي تخص مجموعها هذه الجزيرة الموحشة المجدبة. وبينما كنت أهم على وجهي جيئة وذهوبا في طلب الماء، صعدت إلى قمة أحد التلال فلاحت على بعد قطيعا من الشاة كثير العدد وهي ترعى فطاردتها بكل ما استطعت من سرعة ولكنني وجدتها للأسف أكثر سرعة مني. بيد أنني واصلت تتبع أثرها رجاء أن أعثر على المكان الذي ترتوي منه، وبعد لأي وصلت إلى حفرة على عمق عشرة أمتار أو اثني عشر مترا فنزلت إلى قرارها ولكن دون أن أجد فيها قطرة ماء. وتأكد عندي وجود الماء بالحفرة أحياناً بحكم تردد الشياة عليها، والفضل في ذلك إلى هطول الأمطار. ولكن الذي أدهشني هو بقاء هذا القطيع وأمثاله على قيد الحياة في فصل الجفاف مع انعدام الماء في الجزيرة. إنها لمعجزة حرت في تعليلها. ولولا أني كنت قد اختزنت جالونا من الماء، وعاهدت نفسي على عدم استخدامه إلا عند مساس الحاجة لكنت اليوم في عداد الهالكين.

توجهت بعد ذلك إلى الشاطئ ولكني لم أجد شيئاً يعينني على أمري، فاستأنفت المسير مصعدا في تل مرتفع حيث رأيت قطيعا من الشياه يفوق القطيع الأول عددا ومعها جداؤها، فتبعتها ولكن لغير طائل. وعجبت كيف لم أرها من قبل مع وجودها في الجزيرة بهذه الكثرة. وأكبر ظني أنها تترك صغارها في جوف الصخور والحفر وما بين الشقوق حتى إذا تبخرت الرطوبة من حرارة الشمس نزحت للبحث عن مواضع

أخرى. وهنا وجدت نحوا من جالونين من الماء في جوف إحدى الصخور.

وفي اليوم الرابع نقلت أمتعتي من الغار وتحولت إلى الجانب الآخر من الجزيرة لأستقر فيه إذ كنت واثقا من عدم وجود شيء من الماء بهذا الجانب الذي كنت أقيم به، ودعوت الله أن يرسل وابلاً من الأمطار على هذه الجزيرة، وترقبت الغيث من الخامس إلى الثامن من الشهر ولكن مشيئة الله اقتضت ألا تستجيب لدعائي.

وفي اليوم التاسع بينما كنت أسير فوق الرمال وأنا غارق في تأملاتي وقد نال مني الظمأ حتى كاد يقضي على طرق سمعي صوتا رهيبا صاخبا يسب ويلعن بلغتي في الوقت الذي حجب فيه ضوء الشمس سرب ضخم من الطير.

وفي اليوم العاشر تسلقت تلا آخر شديد الانحدار ولكني لم أجد به سوى قطعة من الخشب استعنت بها على تثبيت مسكني الجديد. ومن الحادي عشر إلى الثامن عشر لم يحدث ما يستحق الذكر. وفي اليوم التاسع عشر خرجت في طلب شيء من الماء في أجد سوى بيض بعض الطيور فعدت بها إلى مسكني وسلقتها في قدر قليل من الماء الثمين الغالي والتهمتها من فوري ولم يبق لدي من الماء سوى ما يكفي للغد. وأما من اليوم الواحد والعشرين حتى الواحد والثلاثين فيعجز اللسان والفكر معا عن وصف ما قاسيته من عذاب وآلام فوق طاقة البشر.

ومن أول شهر أغسطس إلى اليوم الثالث منه خرجت أتجول بدلوي فعثرت على وبر بقي من الشياه في جوف صخرة حملته إلى خيمتي. وفي اليوم الرابع خرجت إلى ساحل البحر فعثرت على مجدافٍ مكسور وعلى ثلاث أو أربع قطع من خشب لا تخلو من بعض المنفعة لحملتها وتابعت السير، ولمحت على بعد شيئاً بدا لي كما لوكان أحد المنازل فتذكرت في الحال ما كنت قد سمعته فيما مضى عن إقامة بعض البرتغاليين بهذه الجزيرة فحثثت الخطى بكل ما في طاقتي من قوة، ولشد ما كانت دهشتي عندما اتضح لي أنه لم يكن سوى صخرة بيضاء مفرغة، في جوفها بعض المسامير وقنينات مهشمة لم أجد لي فيها مآربا حملت خشباتي وعدت بها إلى مسكني.

وفي اليوم الخامس خرجت للبحث عن الطعام أيضاً،ولكنني عدت صفر اليدين وقد فاضت نفسي بالحزن وغشيها الهم من الحرمان. وفي السادس توجهت إلى الشاطئ ولاحظت أن ثلاثة أو أربعة من أعواد نبات الحمص التي سبق أن زرعت بذورها قد ترعرعت وأوشكت على النضوج، ففرحت لذلك غير أني ما كدت أشرع في خصدها عن كثب حتى تبين لي أن الدود قد فتك بالشجيرات الأخرى جميعاً فاستحال الفرح حزنا. ولم يصل مجموع الفترات التي هطلت فيها الأمطار خلال الشهور الثلاثة إلى أكثر من نصف ساعة من الزمن، ولم يكن بالجزيرة كلها نقطة واحدة من الماء مع استثناء ما أودعته في "جمدانتي"، فاذا لم تتدارك رحمة الله الأرض بغيث من السماء فإني هالك لا محالة. لم أجد قطرة من الماء خلال الفترة بين اليوم الثامن والعاشر لذلك شرعت أعد نفسي للتحول العظم الرهيب الذي كنت أعتقد في قرارة نفسي باقتراب موعده، فصليت إلى الله طلبا للغفران.

وفي اليوم الحادي عشر توجهت إلى خيمتي القديمة قرب الشاطئ حيث سمعت مرة أخرى صوت ضوضاء شديدة بيد أني عجزت عن تبين مصدرها، فقررت الصعود إلى التل للوقوف على جلية الأمر، ولكن لم أجد سوى سحابة من الطير (الذي سبق ذكره) فتبت عندي أنه مصدر هذه الضوضاء.

وفي اليوم الثاني عشر إلى السابع عشر لم أستطع الحصول على شيء من الماء على الرغم من كثرة البحث والتنقيب وكان كل ما بقي لدي من الماء في الجمدانة ستة جالونات فقررت عدم استعمال شيء منها للطهو أو لسلق البيض أو الخضر وأن أكتفي بجرعة قليلة لإخماد نيران الظمأ. وانقضى اليومان الثامن عشر والتاسع عشر على منوال ما قبلهما، إلا أنني كنت عند غروب اليوم الثاني منهما على مسافة بعيدة من خيمتي في الجانب الآخر من الجزيرة ففضلت الطريق في الظلام ولم أجد بدأ من قضاء الليلة بين صخرتين غير أن الجرذان –وما أكثرها– أزعجتني طيلة الليل حتى خشيت على نفسي الهلاك وودت لو أنني قضيت الليلة على الشاطئ. وفي اليوم العشرين بعد أن صليت الله العلي القدير وسألته إرسال الغيث على الجزيرة أخذت

فأسي وحفرت عن أربعة أمتار في الأرض دون أن أجد أثرا لرطوبة، فصوبت النظر نحو السماء أملا في رؤية مزنة وشيكة الهطل تغمر صخور هذه الجزيرة المقفرة المجدبة وتخفف من ضيق وتفرج كربتي ولكن آمالي ذهبت كلها أدراج الرياح، فهمت على غير هدى فوق التلال العقيمة الجرداء متمنيا لو أن الصخور والرمال غيرتني. إذ كانت تلك القطعان من الشاء الضاربة حول الجزيرة أسعد حالا من رجل أدت به الشهوة الدنيئة الجامحة إلى مثل ذلك النصب والوصب.

وفي اليوم الواحد والعشرين خرجت أتجول حول الجزيرة وبيدي دلوي عساي أجد ماء أنتعش به ولكن عبثا حاولت، وكان ما اختزنته من الماء قد نفد أو كاد، فلم أر بدا من التبول في الدلو ثم شربت ذلك ثقة مني بأنه خير من ماء البحر الأجاج إذ كان الظمأ قد بلغ مني مبلغا التصقت معه شفتاي الواحدة بالأخرى.

وفي اليوم الثاني والعشرين خرجت للتنزه على الشاطئ بعد أن صليت لله صلاة التضحية بالنفس تقربا إليه سبحانه) فصادفت سلحفاة فقتلتها وشربت ما يقرب من جالون من دمها مستعيضا به عن الماء واتخذت من بيضها ومن شحمها طعاما تبلغت به، ولكن الدم الذي شربته لم يلائم مزاجي ولا يطفئ أواري فاضطررت إلى شرب مقدار كبير من "بولي".

وفي اليوم الثالث والعشرين فقدت كل أمل في احتمال العثور على شيء من الماء فأخذت مقدار من دم السلحفاة التي قتلتها بالأمس بعد أن تركته يتركز طيلة الليل، ومزجته بما تبولته وأضفت إلى ذلك كله مقدارا من الشاي وغليت الجميع معا ثم احتسيته وما أشك أن الدم كان وهو ممزوج بهذه الصورة أفضل منه قبل مزجه. عدت إلى خيمتي حوالي الرابعة بعد الظهر وليس لدي ما أشربه سوى دم السلحفاة ولكن سرعان ما أصبت هيضة شديدة ودوار نتيجة شرب الدم حتى عجزت عن الوقوف على قدمي. ولعل ذلك كان خيرا إلى من أن أصاب بتشنج أو صرع، وكنت أرجو صادقا لو أن الله عجل بقضائه وختم أيام حياتي الشقية التعسة فليس لي منذ اليوم رغبة في أي شيء آخر وأخذت بعد ذلك في طريق العودة إلى الخيمة بكل مشقة وألم.

وفي الفترة ما بين اليوم الرابع والعشرين والسابع والعشرين لم أفكر في شيء سوى الموت، واستبد بي المرض واشتدت على وطأته فرحت أضرع إلى الله أن يضع حدا لبؤس وشقائي. ولم يعد بيض الفراريج يروي ظمأي، لذلك لم يكن بد من غلى قليل من الشاي وبعض دم السلحفاة في "بولى"، وقد كان بالجزيرة مالا يحصره العد من هذه الدواب. وفي الثامن والعشرين خرجت في الساعة الثالثة صباحا لقتل سلحفاة أخرى بفأسي ووضعت دمها في الدلو، وكان بمثانتها قدر كبير من الماء، فاستخرجته وشربته فهو أطيب من دمها، ولكن معدتي لم تحتمله لغير فترة وجيزة. عمدت بعد ذلك إلى لحمها ففصلت قطعة منه عدت بها إلى الخيمة. ولما كانت أشعر بجفاف شديد في حلقي غليت قليلا من الشاي في دم السلحفاة، بيد أن معدتي كانت في حالة ضعف شديد يتطلب طعاما أكثر تغذية، وكان الدم لشدة مرارته مقيئا فلم أستطع الاحتفاظ به طويلا. وفي اليوم التاسع والعشرين لم أستطع النوم من شدة الظمأ وجفاف الحلق وما اعتراني من أرق خلت معه أني قد جننت، خرجت مرة أخرى في طلب الماء ولكن لم أجد منه شيئاً على الإطلاق.

وفي الثلاثين من الشهر قضيت الشطر الأكبر من النهار في التعبد ضارعا إلى الله أن يقبضني إليه، فقد بدا لي أن ما أنا فيه من عذاب وشقاء يفوق ما امتحن به أيوب. فأنا محروم من متعة معاشرة البشر ومحادثتهم وأنا مريض وعريان، حركاتي وتصرفاتي لا مبرر ولا هدف لها. عذابي وبلائي يعجز عنهما الوصف، وهلاكي لا مفر منه. حاولت أن أتمالك نفسي بعد أن ابتهلت إلى الله أن يرسل المطر أو يقبضني إليه قبل انبلاج الصبح. وبعد الظهر حاولت الخروج ولكني لم أستطع السير على قدمي من شدة الضعف فاكتفيت بأكل بعض بيض السلحفاة وكان لدى بعض لحومها ولكنها لم تكن تصلح للطعام، وكان إلى لا يطاق من شدة العطش وبعد لأي وفقت إلى صيد ثلاثة طيور فقتلتها وشربت دمها.

وفي اليوم الواحد والثلاثين بينما كنت أزحف فوق الرمال إذ لم يكن في مقدوري السير على قدمي أكثر من ثلاث خطوات لمحت سلحفاة. وكنت لشدة ضعي قد

عجزت عن حمل الدلو فاضطجعت على جني بعد أن قتلتها بالفأس ورحت أمتص الدم منها ثم أدخلت ذراعي في جوفها وانتزعت كيس مثانتها وزحفت به عائدا إلى الخيمة حيث أفرغت ما فيه في إبريق الشاي، ثم رجعت إلى السلحفاة فقطعتها قطعا صغيرة لاستخراج ما بداخلها من البيض فانكسرت يد الفأس أثناء العملية، فكان هذا مصاباً جديدا أضيف إلى مصائبي الجسام. ولكنني نجحت في استخراج بعض البيض وعدت به إلى الخيمة فقليته ثم غليت بعض الشاي في "بولى" فأنعشني كثيراً على الرغم من شدة غثيانه.

وفي أول سبتمبر قتلت سلحفاة أخرى وسحقتها إذ كانت فأسى قد كسرت، وبينما كنت أنقب في أحشائها انفجرت حوصلتها الصفراوية (المرارة) مما جعل مذاق الدم بالغ المرارة ولكني اضطررت إلى شربه وإلا هلكت لتوي. كانت أفكاري تسبح في عالم آخر وكانت الرغبة الملحة في لقاء المنية المقتربة مني تهج روحي المؤذنة بالوداع وتعذيبها في آن واحد. شربت لترا من ماء البحر ولم أعد أنتظر شيئاً سوى أن أهلك من فوري، فاستلقيت على الأرض راجيا أن أذوق كأس المنون المرة، إلى أن استغرقت في نوم هادئ تحت ثقل الهم والوصب. استيقظت من نومي في اليوم الثالث وانا أشعر بشيء من التحسن، فقطعت الوقت في تدبير يد للفأس بدلا من التي انكسرت، وتناولت قليلا من لحم السلحفاة التي قتلتها في الليلة الماضية.

ومن اليوم الخامس إلى الثامن عشت على دم السلحفاة وبيضها، وأما من الثامن إلى الرابع عشر فلم يكن عندي ما أتبلع به أصلا.

ولقد أصبحت هيكلا عظميا متحركا، وخارت قواي تماما حتى أصبحت غير قادر على مواصلة الكتابة أكثر من ذلك. إنني نادم كل الندم على ما اقترفت من الآثام والخطايا، وأرجو صادقا ألا يرتكب أحد من الوزر ما يستحق معه مثل ما نالني من القصاص، وما قاسيت من بؤس وشقاء، لذلك أترك قصتي هذه لتكون تذكرة وعبرة للبشر فتردعهم وتردهم عن غواية الشيطان. والآن أسترجع الله وأعيد له الوديعة التي استودعنيها راجيا رحمته وغفرانه.

الطاعون

جوفاني بوكاشيو

كان الوباء الذي كتب عنه بوكاشيو في "اليوم الأول" من مؤلفه (ليالي ديكامرون) هو الموت الأسود الذي حل بمدينة فلورنسا عام ١٣٤٨، وهو وباء عام، وربما اعتبر الطاعون الغددي شطر من هذا الوباء. وقد ذهب ضحية هذا الموت الأسود ثلاثة أشخاص من بين كل خمسة في "فلورنسا"، حيث يعيش بوكاشيو، وقد ترتب على نزوح السكان عن المدينة أن نمت الحشائش في شوارعها.

* * *

في عام ١٣٤٨ ميلادية انتشر في فلورنسا، أجمل مدن إيطاليا وأروعها، طاعون مريعا كان قد اجتاح الشرق من عدة سنوات خلت، إما بتأثير الكواكب وإما أن يكون الله قد ابتلانا به جزاء وفاقا على أوزارنا وخطايانا ، فظلت جراثيمه تنتقل من مكان إلى مكان مزهقة الأنفس في طريقها بصورة لا يتصورها العقل حتى وصلت إلى الغرب. ولم تجد في التحصين منها جميع التدابير التي تفتق عنها فن النظافة وكل ما تستطيع القوى البشرية من تطهير للمدينة والعناية بها من الوجهة الصحية، وإغلاق أبوابها في وجه من يشتبه في إصابتهم وعقد الاجتماعات من حين لآخر للتشاور فيما يجب عمله. وخلاصة القول أن أولياء الأمور لم يتركوا بابا لوقاية المدينة وتحصينها من الوباء إلا طرقوه. كما أنهم لم يهملوا الجانب الديني فأقيمت الصلوات الجماعية، وراحت المواكب تشق شوارع المدينة مراراً وتكراراً، ضارعة مبتهلة إلى الله أن يتداركها برحمته وعنايته.

كان الوباء قد بدأ ينتشر في الربيع السابق بصورة محزنة فذة، وكانت أعراضه

تختلف عما كانت عليه في الشرق حيث كان النزيف من الأنف أهم أعراض هذا الداء القتال. أما هنا فتظهر أعراضه على صورة تورم في الأرفاغ [1] أو تحت الآباط، بعضه في حجم التفاحة الصغيرة وبعضه في حجم البيضة. وبعد ذلك تنتشر فوق غالبية أجزاء الجسم بثور أرجوانية اللون كبيرة الحجم، قليلة العدد في بعض الحالات، وفي بعض الحالات الأخرى تكون أصغر حجما وأكثر عددا، ولكنها كبرت أو صغرت، كثرت أوقلت كانت رسل موت في الحالتين.

ولم يجد في معالجة هذا الداء الفتاك طب أو عقاقير، إما لأن الداء كان بطبيعته قتالا فتاكا، وإما لعجز الأطباء (الذين كان عددهم في ازدياد مطرد وخاصة إذا أضفنا إليهم الدجالين والدايات المدعيات) عن تكوين فكرة صائبة عن مسببات الداء، لذلك تعذر عليهم الاهتداء إلى طريقة ناجعة للعلاج. ومهما تنوعت الأسباب فلم يكد ينجو أحد من براثنه المميتة إلا القليل. وكان المصابون يلاقون حتفهم بوجه عام في اليوم الثالث من ظهور أعراض هذا الوباء دون أن يصابوا بحمى أو بتدهور في حالتهم الصحية، وكان الداء بانتقاله من السقيم إلى الصحيح يزداد انتشارا كل يوم وتشتد وطأته، مثله في ذلك مثل النار كلما زدتها حطبا زادت تأججا. ولم يكن انتقال العدوى عن طريق المخاطبة والاتصال المباشر بالسقيم أو بالاقتراب منه فحسب، بل كان مجرد لمس ملابسه، أو ما سبق له لمسه، كافيا لانتقال العدوى إلى الأصحاء.

وإن ما سأرويه هنا المدعاة إلى العجب، ولولا أني رأيته بعيني رأسي، ولولا أن هناك من شهود العيان من يؤتمن على قولي لما اجترأت أبداً على سرده. ولو أن ناقلا نقله إليَّ لخامرني الشك في قوله مهما يكن مبلغ ما يعرف عنه من الصدق وتوخي الحقيقة فيما يقول وينقل. ولا جرم فعدوى هذا الداء الوبيل لا تنحصر كما قلت آنفا في الانتقال من شخص إلى آخر، ولكن الغريب فيا عرف عن طبيعته أن مجرد لمس أي شيء من ملابس المصاب أو أمتعته يكفي لانتقال العدوى إلى اللامس ما في

---

[1] جمع رفغ وهو خن الورك.

ذلك ريب. وقد يقضي نحبه في بحر فترة وجيزة من الزمن، فهذه الأحداث وما إليها أفزعت الناس الذين بقوا على قيد الحياة من مختلف الوجوه ودفعتهم إلى ابتكار الوسائل التي تبعدهم عن مواطن العدوى، وهي وسائل تتسم بالقسوة والتجرد من الشفقة والرحمة لأنها في مجموعها تستهدف تجنب المصابين وكل من اقترب منهم أو اتصل بهم، ظنا منهم أن في ذلك ما يكفل لهم السلامة. ورأى فريق من الناس أن يعيشوا جماعات متفرقة في عزلة تامة عن بقية البشر، مقتصدين في المأكل والمشرب، مستعينين بالموسيقى وما إليها من وسائل التسلية والترفيه عن النفس على قتل سأم الفراغ داخل منازلهم، لا يستمعون إلى شيء مما يجري خارجها حتى لا يعكر عليهم صفو عزلتهم.

ورأى فريق آخر أن التحرر من القيود وإطلاق النفس على سجيتها في أحوال المعيشة وعدم الحد من نزوات النفس وشهواتها أضمن وسائل الوقاية، فعمدوا إلى التنقل من حانة إلى حانة يأكلون ويشربون ما استمرأت نفوسهم من طعام وما استساغت من شراب أو يرتادون المنازل التي كانت كثيرا ما تخلو من سكانها الأصليين فتصبح مشاعا لكل غاد ورائح. ولكن على الرغم من عدم مبالاتهم بشيء مما تواضع عليه العرف والتقاليد، إلا أنهم كانوا يحرصون أشد الحرص على تجنب المصابين فلا يقتربون منهم أبداً. وكانت الشئون العامة في المدينة قد تدهورت إلى درجة تدعو للرثاء، حتى إن القوانين، مدنية كانت أو سماوية، لم يكن أحد ليأبه بها نظرا لأن المسئولين عن تطبيقها كانوا، إما في عداد الأموات وإما في عداد المرضى؛ فهم والحالة هذه أحوج ما يكون إلى من يرعاهم ويعنى بأمرهم.

وخلاصة القول: إن الأمر في المدينة كان بالغ الفوضى، كل يعمل كما يشاء ويهوى. وكان هناك فريق ثالث من الناس اختاروا مسلكا وسطا بين المسلكين، فلاهم يأخذون أنفسهم بالاقتصاد في المأكل والمشرب على غرار جماعة الفريق الأول، ولاهم يسرفون فيهما كل الإسراف الفريق الثاني، ولكنهم كانوا يتناولون من هذا وذاك بقدر ما يحتاجون إليه منهما. على أنهم كانوا حيثما ذهبوا، يحملون معهم العطور وباقات

الزهور، اعتقادا منهم أن في تشممها جلاء للأذهان وتركيزا لها، إذ كانوا يفترضون أن الجو كله ملوث من تعفن جثث الموتى، ومنشؤه جراثيم الوباء نفسه. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى بسبب الرائحة المنبعثة من تخمر الأدوية التي لم تزل في جوفها وأحشائها. وكان هناك فريق آخر من الناس أقسى قلوبا وأغلظ أكبادا، ارتأوا أنه من الخير لضمان سلامتهم تجنب المدينة الموبوءة إذ كان لا هم لهم سوى مصلحتهم الشخصية فنزحوا عنها أفواجا، هجروها رجالا ونساء تاركين وراءهم منازلهم وأمتعتهم وأقاربهم ولاذوا بالريف، كأن غضب الله كان مقصورا على المقيمين داخل أسوار المدينة، أو كأنهم قد خيل إليهم أن أحدا من الناس لا يجب أن يقيم ببلد اقتضت مشيئة الله أن يكون مآله الدمار.

ولكن على الرغم مما كان بين هذه الجماعات من فوارق ونزعات، ومن تباين في الحكم على الأشياء، فلا هم ماتوا جميعاً ولا هم نجوا من الموت جملة، بل منهم من أصابه الوباء ومنهم من كتبت له الفجأة سواء أكانوا من هذا الفريق أومن ذلك. فهم أول من ضربوا أسوأ مثل على الأثرة وحب النفس فلم يرحمهم القدر وسوف أتجاوز الآن عن ذكر عدم اكتراث المواطنين ما بينهم من روابط وعلاقات، فقد تملكهم الفزع إلى أقصى حد حتى إن الأخ كان يهرب من أخيه والزوجة من بعلها، بل كان أغرب من هذا وذاك أن الآباء والأمهات كانت تهرب من أبنائها وفلذات أكبادها. وقد ترتب على هذا الوضع أن عددا كبير من المصابين كانوا لا يجدون من يعنى بأمرهم اللهم إلا بعض من جبلت نفوسهم على حب الخير من الأصدقاء –وما كان أقلهم– وإلا بعض من أغراه الحرص والطمع من الخدم – وما كان أندرهم على الرغم مما كانوا يتقاضونه من أجور باهظة، وعلى الرغم من جهلهم بفن التمريض، فما كانوا يحسون شيئاً من شئون الخدمة سوى مناولة المريض بعض ما يطلبه وكثيرا ما لاقوا حتفهم نتيجة جشعهم وحرصهم على جمع المال في مثل هذه الظروف.

كان من نتيجة مفاجأة الأصدقاء لأصدقائهم ومن ندرة الخدم أن انتشرت في المدينة عادة لم يسمع بها من قبل، فما من سيدة بالمدينة بلغت ما بلغت من الجمال،

وفي عنفوان صباها، كانت تأنف من خدمة الذكور لها والتجرد من ثيابها أمامهم (إذ كانت طبيعة الوباء تقتضي ذلك) وهو أمر قد يجعل من قيض لهن الشفاء من العلة أقل خفرا وحياء في مستقبل الأيام. وما أكثر من فقدوا حياتهم وما كانوا ليفقدوها لو أن الأقدار ساقت إليهم من يعينهم ويقوم على خدمتهم. فبين شدة وطأة الوباء، وندرة الخدم، كان الناس يساقون إلى الموت زرافات ووحدانا، تصر عنهم الأسماع وتحسر الأبصار. ومن ثم، وبحكم الضرورة، نشأت في المدينة عادات وطباع لم تعرف بها من قبل.

كان مما تواضع عليه العرف يومئذ، وكما هو متبع اليوم أن تجتمع النساء التي تربطهن بالميت أو بذويه صداقة أو جيرة ويشتركن معهن في ندب المتوفي في منزله بينما يجتمع الأصدقاء الذكور أمام الباب مع رجال الكنيسة.

ويحمل النعش رجال من طبقة الميت وأترابه ويسيرون بوقار وبأيديهم الشموع على نغمات الأناشيد الجنائزية حتى يواروه التراب في الكنيسة التي رغب المتوفي في أن يدفن بها، ولكن سرعان ما أهمل كل ذلك الآن وخرج من الدنيا عدد من المصابين لا حصر لهم دون أن يتبعهم إلى مقرهم الأخير شخص واحد، فلا نساء يندبنه ولا رفاق يشيعون رفاته وحلت محل الدموع التي كان يذرفها الأصدقاء والمحبون على الراحلين ضحكات اللهو والمرح، وحتى النساء قد تعلمن تأجيل ما كان يهمهن من شئون الحياة وأصبحن لا هم لهن إلا العناية بأنفسهن وإنقاذ حياتهن. أجل، لم يكن عدد المشيعين للميت ليزيد حال من الأحوال على عشرة أشخاص أو أثني عشر شخصا. ولم يكن أولئك النفر من أصحاب الشخصيات المعروفة أو المراكز المحترمة بل كانوا من الطعام المأجورين لهذا الغرض، فكانوا يحملون النعش ويسيرون به بأقصى ما يستطيعون من السرعة إلى أقرب كنيسة فيدفنون الرفات حيثما وجدوا مكانا خاليا دون مراسيم أو كبير عناية.

أما بالنسبة إلى الطبقات السفلى ومتوسطي الحال فالخطب كان أشد تفاقا وأكثر مدعاة للرثاء. لأنهم كانوا يلزمون بيوتهم، إما بدافع فقرهم وإما بدافع الأمل في أن

يقيض الله لهم من يسعفهم في ضائقتهم، لذلك كان عدد من يفتك بهم الوباء يوميا يقدر بالآلاف. ولما لم يكن لديهم من يعني بأمرهم وبتمريضهم كان الموت مصيرهم الحتمي في الغالب الأعم. ومنهم من كان يلفظ النفس الأخير في الشوارع والطرقات، ومنهم من كان يلقي حتفه في عقر داره حيث كانت الرائحة الكريهة المنبعثة منها هي الدليل الوحيد على حدوث الوفاة فجأة في المنطقة. والواقع أنه ما من مكان بالمدينة إلا وكان يعج بجثث الموتى.

ولكن الناس لم يلبثوا أن انتهجوا نهجا جديدا بدافع الرحمة بالأحياء من ناحية، والبر بالموتى من الناحية الأخرى. فعمد الجيران بمساعدة من قد يصادفونهم من الحمالين إلى تطوير المنازل من جثث الموتى ووضعها أمام أبواب منازلهم. فكنت تشهد كل صباح عددا كبيرا من الجثث تستخرج من المنازل بهذه الطريقة، ومن ثم تحمل على النعوش أو التخوت جثتان أو ثلاث جثث معا. وكان يحدث أحياناً أن يجمع النعش الواحد زوجين معا أو أخوين أو ثلاثة إخوة، أو والدا وولده. وكثيرا ما شوهد رهط من الحمالين ينضمون إلى القساوسة الذين كانوا يسيرون أمام النعش وهم يحملون الصلبان، رغبة منهم في المساعدة على دفن الميت، فما إن يصلوا إلى نهاية الشوط والمقر الأخير حتى يتبين لهم أنهم قادمون على دفن ست جثث أو ثمان لا جثة واحدة.

ولم يكن هناك من يسير خلف النعوش ولا من يذرف دمعة حزن أو أسى على الراحلين، إذ كانت الحالة قد بلغت إلى حد لم يكن لأرواح الناس معه من الاعتبار أكثر مما لبعض الدواب. ومن هنا يتضح لنا بجلاء أن مالا يتعلمه الناس، حتى أكثرهم عقلا واتزانا من مجرى الحوادث ومن تتابع النكبات، وهو الصبر، يتعلمه أقلهم حكمة وتفكيرا من تفاقم المصائب وفداحة الخطوب.

ولما ضاقت المقابر عن أن تتسع لمثل هذه الجموع المتكاثرة، وخاصة إزاء الرغبة في دفن الموتى بالمدافن المخصصة لأسرهم، حفرت الخنادق وأودعت فيها الجثث عشرات ومئات معا، مرصوصة بعضها فوق بعض كما ترص السلع المشحونة في

السفن، ثم هيل فوقها التراب وسويت الأرض.

سأكتفي بهذا القدر تجنبا للإفاضة والإسهاب في وصف تفاصيل ما أحاق بنا من البؤس والبلاء الشديد، على أنه لا مناص من أن أشير هنا إلى أن البلاد والقرى المتاخمة لم تكن أحسن حظا منا. فإذا نحن ضربنا صفحا عن ذكر القصور المتناثرة حولنا والتي كانت أشبه بالمدن في منظرها، ولكن على نطاق أصغر، فإنك قد ترى الأكرة ومن إليهم من فلاحي المزارع التعساء رقودا مع ذويهم على قارعة الطريق العامة، فلا اطباء ولا خدم يعنون بأمره. وهم وإن كانوا قد نجوا من الطاعون، إلا أنهم تركوا لمصائرهم، أو بالأحرى تركوا أنفسهم يموتون في الحقول وفي المنازل السائمة لا كالآدميين، إذ كانوا كأهل المدينة قد تغير نظام حياتهم فلا هم يكترثون لشيء أو يعنون بشئون أنفسهم، وإنما كانوا يعتقدون في كل صباح تشرق عليهم شمسه، أنه آخر يوم من حياتهم. ولم تكن تتجه أفكارهم إلى استنباط الحيل لإصلاح أحوالهم أو استخدام ما لديهم لسد حاجة معاشهم. فترتب على ذلك أن هجرت المواشي والأغنام حظائرها، حتى الكلاب –وهي الوفية لأصحابها– لم يطب لها المقام إلى جواره فهامت على وجوهها في الحقول ترعى غلة الأرض التي تركها أصحابها بغير حصاد. وكثيرا ما كانت تحن إلى حظائرها ليلا من تلقاء نفسها بعد أن تكون قد شبعت وامتلأت بطونها من رعى النهار كأنها مخلوقات عاقلة حكيمة.

ما الذي أستطيع أن أقول أكثر مما قلت إذا أنا عدت إلى المدينة؟ لا شيء سوى أنه كان من قسوة القدر، وربما من قسوة الناس أيضاً، إنه خلال الفترة ما بين شهري مارس ويوليو بلغ عدد الهالكين في المدينة وحدها على أقل تقدير، ما يربو على مائة ألف نسمة، بينما لم يكن يظن قبل حلول هذه النكبة النكباء أن بالمدينة مثل هذا العدد من السكان.

كم من مسكن وقصر شامخ خلا من ساكنيه ومن خدمه وحشمه. وكم من أسرة انقرضت عن آخرها. أي ثروات وعقار تركت دون وريث معروف؟ وكم من فتى

وفتاة في ميعة الصبا وريعان الشباب، ممن لا يسع جالينوس[١] أو أبقراط[٢] أو حتى إسكلبيوس[٣] نفسه، إلا أن يشهد في الصباح بأنهم أوفر ما يكونون صحة، تغدوا مع ذويهم على موائد حوت كل ما تشتهيه الأنفس وفي المساء يذهبون إلى العالم الآخر مع الراحلين من أصدقائهم.

---

[١] طبيب إغريقي اشتهر بفن التشريح (١٣١ – ٢٠١) بعد الميلاد.

[٢] أكبر أطباء العصر القديم. وهو يوناني الأصل ولد حوالي عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

[٣] طبيب إغريقي مشهور (١٢٤ إلى ٩٦) قبل الميلاد. أسس في روما مدرسة مشهورة وعارض نظريات أبو قراط.

وحيد

رتشارد. أ. بيرد

رابط أمير البحار "بيرد" بمفرده خلال ليالي الشتاء بالقطب الجنوبي عام ١٩٣٤ بقاعدة "بولنج الأمامية للأرصاد الجوية" القائمة على حاجز دروس، الجليدي عند خط يمتد بين أمريكا الصغيرة والقطب المتجمد الجنوبي فكاد يقضي نحبه أثناء قيامه بهذا المجهود الشاق. أما قصة بطولته فقد سردت في كتاب حوى التواضع والذكاء والجمال تحت عنوان "بيرد في وحدته" وهو الذي اخترت من بين صفحاته قصة هذه المغامرة. فبيرد مستكشف ومفكر صاحب أسلوب خاص، وهو يعتبر بحق من أروع من أنجبتهم الولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

كان شهر مايو صخرة ضخمة أخذت تغرق أمام تيار جارف. وانتزعت يد الزمن كل ما يمت إلى مقومات الحياة بسبب، كما تنتزع الأنسجة الميتة من الجسد، ومرت الأيام متشابكة متلاحقة لا أكاد أحس لها مضيا. وكانت بضعة الأخبار العالمية القليلة التي يقرأها على "ضير" تبدو لي تافهة غير ذات موضوع، غامضة غموضها على سكان المريخ. فدنياي كانت في عزلة تامة عن كل ما تثيره الاقتصاديات النائية من أزمات وصدمات. فلقاعدة وبولنج الأمامية، قوانينها الخاصة. وكان يكفيني عندما أصحو من النوم في الصباح أن أقول لنفسي: اليوم يوم استبدال صفحة مقياس الضغط المسجل[1] أو اليوم يوم ملء خزان الموقد. وكان الليل قد جد في نشر ذوائبه. فما وافى اليوم السابع عشر من مايو، أي بعد شهر من غروب الشمس وراء

[1] باروجراف.

الأفق حتى أخذ شفق الظهيرة يتضاءل إلى مجرد نقطة بسيطة وسط ظلام لا يضيئه سوى وهج أحمر باهت بارد. وما أكثر الأيام التي كانت تركد فيها الرياح، في الشمال أو الشرق، فتصبح منطقة الحاجز الجليدي وكأنها ظل منتشر بعيد الأكناف والأطراف، تعلوه كتل ضخمة من السحب المظلمة، طبقة فوق أخرى. هذا هو دليل القطب، مظهر العصر الثلجي الجهم العبوس !! ما من شيء يتحرك، ما من شيء يري. هنا الركود المتجسم بنصه وفصه. وإن الإنسان ليسمع أو يكاد صوت فرقعة آت من بعيد كأن ثقلا ضخما يتقلقل ليستقر.

ومن بين طيات الظلام العميق تأتي البرودة؛ ففي التاسع عشر من مايو خرجت أمشي للتريض. على عادتي، وكانت درجة الحرارة يومئذ خمسا وستين درجة تحت الصفر. ولأول مرة عجزت نعلاي عن صيانة قدمي وكانتا مصنوعتين من القنب، إذ انتزع كعب إحداهما فاضطررت إلى العودة للكوخ واستبدالها بنعلين من جلد الوعول. ولقد غشيتني الكآبة في ذلك اليوم وانتابني رداع شديد مؤلم كما لوكنت تحت تأثير غازات سامة. ولعلي كنت كذلك، فقد اكتشفت صباح اليوم التالي، بينما كنت ماضيا في فحص أنابيب التهوية بأن أنبوب التغذية مسدود بقطرات الندى المتجمدة، وبأن أنبوب العادم مملوء إلى ثلثيه. وكان اليوم الذي تلاه –أي يوم الأحد الموافق عشرين من مايو– أشد برودة من كل ما مر بي من أيام، فكان متوسط الحد الأدنى كما سجله مقياس الحرارة ٧٢ درجة تحت الصفر، وسجل مقياس الحرارة[١] الداخلي– وتسجيله عادة أقل بيسير من الآلات غير المكشوفة – ٧٤ درجة تحت الصفر بينما وقف الثرموجراف المظلل عن الحركة تماما. وبالرغم من أن الحبر كان ممزوجا جيدا بالجلسرين فإنه قد تجمد هو ومادة التشحيم معا. وما إن أوقدت الموقد حتى تمدد الهواء الموجود في خزان الوقود بصورة عنيفة ترتب عليها أن تفجر الزيت وتناثر في كل حدب وصوب. وحرصا مني على عدم تكرر مثل هذا الحادث وجعل الخزان بمأمن من تمدد الهواء، لففت حوله وسادة هواء من الكاوتشوك، كانت أدرجت

[١] ثرموجراف.

خطأ ضمن أمتعتي وأدواتي. ورأيت البخار على ضوء مشعل كهربائي صغير وهو يتصاعد من أنبوب الموقد ومن أنبوب التهوية الطارد، فكان أشبه بما يخرج من محركين بخاريين. ولقد آلمتني أصابعي إلى أقصى حدود الألم وأنا أعالج إصلاح مقياس الحرارة المسجل حتى إني لم أستطع إنجاز العملية قبل مضي بضع ساعات. وكان الوقود السائل ينبعث من البراميل، فاضطررت إلى حمل برميل منها إلى الداخل وتسخينه إلى جانب الموقد. واحتفظت طيلة اليوم بموقدين مشتعلين من طراز بريموس داخل النفق.

وجاء يوم الأحد الموافق ٢٠ مايو ببرنامج للتحادث بالراديو، وما كان أشد ما لاقيت من عنت وعناء في إعداد العدة لذلك. فقد استعصى المحرك عن العمل مدة ساعة من الزمن وتصلبت أصابعي من شده البرد وأنا أعالج المبخر حتى إني عندما اتصلت فعلا " بأمريكا الصغيرة، لم أقر على تشغيل المفتاح إلا بعد جهد جهيد "أطلب هينز" لمحادثتي، كان هذا أول ما طلبته. وبينما ذهب "هتشسون" للبحث عن كبير خبراء الأحوال الجوية بين سرب أمريكا الصغيرة، تحادثت برهة قصيرة مع "تشارلي ميرفي" الذي أفضى إلي " بأن درجة الحرارة في أمريكا الصغيرة كانت ٦٠ درجة تحت الصفر لا غير، ثم أردف بقوله "إننا شارعون في نقل الآلات النحاسية إلى أسفل فقلت: إن درجة الحرارة هنا في النفق ٧٠ درجة". فقال "إهنأ بها وحدك"، وهكذا ختم ميرفي حديثه من الشمال.

وبعد ذلك رنت في السماعة نبرات صوت "بل هينز" المرح. فشرحت له ما أعانيه من أمر مقياس الحرارة المسجل فأجاب بقوله "لقد ابتلينا هنا نحن أيضاً بمثل ما بتليت به، ولعل السبب في ذلك تجمد الزيت.وأقترح عليك نقل الآلة إلى الداخل، وحاول غمسها في البترول لمحو ما قد تبقى من أثر الزيت. ثم اغمسها بعد ذلك في محلول "الأثير"، أما فيما يتعلق بتجمد الحبر، فأضف له مزيدا من الجلسرين. كان "بل" مرح المزاج نشيطاً أثناء حديثه فقد أردف قائلا. "انظر إلي يا أمير البحار. إنني لا ألقى أي عناء أبداً من الآتي. والسر في هذا هو أن لدي مساعدا طموحا طبعا "

لقد ضحكت طويلا لدى سماع هذا الكلام، لأني كنت أعلم من رحلتنا الاستكشافية الأولى مبلغ ما كان يعانيه "جريمنجر" من مشقة تحت إمرة "بل" بوصفه إخصائي الأحوال الجوية الأصغر، وقد تخيلت "بل" وظهره إلى المدفأة والكلام المعسول يجري به لسانه مستنهضاً همة المجند الشاب، مؤكدا له بأن الواجب انتهاز الفرصة لترقية مداركه وتحسين مركزه، يقتضيه الخروج في العواصف والزوابع لتثبيت خشبة سلك أو ما يشبه ذلك. ويمضي "بل" يدندن لنفسه في الدفء داخل الكوخ بينها مساعده يشق طريقه في العراء وسط العاصفة الثلجية وبيده المنقلة يترقب صوت اختراق "البالون" الفضاء في عتمة الليل، وقد راح يتلو على "بل" في التليفون في تهتهة وتلعثم من كثرة ما اصطكت أسنانه، أرقام التسجيلات الدقيقة التي منها يحسب "بل" سرعة التيارات الهوائية في طبقات الجو العليا ويقف على اتجاهاتها.

لقد وددت في ذلك اليوم لو أن لي مساعدا أنا أيضاً، إذن لقام بنوبته في قراءة مسجل قوة الهواء.واخترق الجليد المتراكم على العوارض الحديدية لنعلي المصنوعتين من فراء الوعولف ،. وكان لزفيري صوت فرقعة خافتة في الهواء، وبدا لي أن رئتي تنكمشان وتضمران مع كل شهقة وزفرة.

نادرا ما يكون الشفق أكثر تألقا وأشد لمعانا منه في ذلك الحين، والليل يتراقص في ضوء ذلك الشفق المتلألئ المتهدج .. وأحياناً كان صوت زلازل الحاجز يدوي وكأنه طلقات المدافع الثقيلة. وكان لساني قد تورم من حرارة الشاي المغلي الذي كنت أحتسيه طلبا للدفء. وكان يؤلمني أشد الألم من شدة البرودة. وترجح لدي أن مثل هذا السكون المتناهي في البرد لابد أن تأتي في أعقابه ريح صرصر عاتية، فرأيت من الحكمة أن أبادر إلى حمل جالونات من الماء إلى السطح لصبها فوق أركان الكوخ، فكانت تتجمد بمجرد الملامسة. ومن المعروف أن الجليد المتراكم بعضه فوق بعض طبقات، أشد متانة من البناء المسلح أو ألواح المعادن المصفحة.

وفي منتصف الليل حينما صعدت إلى السطح لأرقب انبثاق الفجر أحسست بمجرد إخراج رأسي وكتفي من الكوة باختناق شديد مفاجئ، وأحسست رئتي تلهثان

للتنفس ولكن الهواء لا يصل إليهما، فاعتراني شيء من الذهول وربما شيء من الفزع أيضاً، فأسرعت إلى الهبوط وارتميت داخل الكوخ، وفي الحال فارقني ذلك الإحساس بمثل السرعة التي غشيني بها، وكان الفضل في ذلك الجو الدافئ داخل الكوخ. ودفعني الفضول إلى تكرر المحاولة، فشرعت أتسلق السلم من جديد، ولكن في شيء من الحذر، بيد أن نفس الإحساس الذي اعتراني في المرة الأولى عاودني في هذه المرة أيضاً، فلهثت فجأة وعجزت عن التنفس، إلا أنني استبنت في هذه المرة سبب هذه الظاهرة. فقد كان هناك هواء رقيق الكثافة يتحرك هابطا من الناحية الشرقية وكانت ملامسته المريرة بمجرد مواجهته يحدث تقلصا في القصبة الهوائية فتتعذر عليها الشهيق، حولت وجهي عن اتجاه مهبه وشرعت أتنفس في قفازي، وهذه الوسيلة استطعت إتمام مراقبتي لانبثاق الفجر. وقبل الهبوط من السطح قمت بتجربة طريفة حيث وضعت مقياس الحرارة فوق الجليد وتركته برهة قصيرة من الزمن، فتبين لي من درجة الحرارة التي سجلها أن درجة البرودة عند السطح تزيد على مستوى ما سجله مقياس الحرارة الداخلية خمس درجات. وعندما شرعت بعد ذلك في قراءة بعض الكتب وأنا داخل كيس النوم، تجمد أحد أصابعي على الرغم من أني لم أبرح أنقل الكتاب من يد إلى الأخرى الفينة بعد الفينة بصورة منتظمة بعد أن أكون قد دسست اليد الفارغة داخل الكيس التماسا للدفء.

أقبلت الريح بعد ذلك من الجانب الشرقي وئيدة الحركة مشبعة ببرودة قاسية حتى لكأنها قد عجزت عن أن تقلل من شدة تلك البرودة الطاغية المريرة. وفي الليلة الواحدة والعشرين من الشهر شرعت درجة الحرارة في الهبوط، وكان الليل قاتما حالكا على غرار الليالي المشحونة بالرعد حينما صعدت أول مرة إلى السطح. وكان توتر الجو والريح وتكاثف الظلال تنذر بأن مركزا جديدا للعاصفة قد أخذ يتكون. وفي صبيحة اليوم التالي وجدت لنفسي عذرا في المكث تحت الأرض فشغلت نفسي فترة طويلة بالعمل في نفق الإنقاذ على ضوء شمعة حمراء ثبتها في ثقب جليدي. وفي ذلك اليوم زحزحت باب الطوارئ مسافة اثنين وعشرين قدما، وهي أقصى مسافة يستطاع

الوصول به إليها. وما إن انتهيت من هذه العملية، حتى جلست على صندوق وأخذت أفكر في مبلغ ما للضوء المنبعث من الشمعة الحمراء من جمال ساحر، وما لسطح الجليد الناصع المتشعث من روعة. وماهي إلا لحظات قصيرة حتى استرعى انتباهي رنين كأس الجهاز التلقائي لقياس سرعة هبوب الريح، فأدركت أن الريح قد أوشكت أن يشتد هبوبها، فصعدت على الفور إلى أعلى لأتأكد من أني قد أخذت كل حيطة للأمر. ولكن ما أعجب المشهد الذي يمثل على مسرح الطبيعة حينما توشك العاصفة أن تثور. فها هي ذي الرياح أولا ترتفع من حيث لا تعلم! من العدم! ... ثم ها هو الحاجز ينتزع نفسه من السكون انتزاعا.. وها هو ذا سطح الأرض الذي كان يبدو من لحظة قصيرة جامدا كصفحة المعدن اللامعة المطهمة فإذا هو قد شرع يتشعث وينبعث كالخضم الطامي. وحينا تندفع الرياح ثائرة جامحة عنيفة شديدة البطش مكتسحة منطقة الحاجز وكأنها سحب بيضاء مسرعة قد قذف بها في الجو مئات الأقدام ... وأحياناً ترتفع تدريجيا وئيدة بطيئة. وإنك لتشعر آنئذ حركة انزلاق العناصر من حولك وقد امتلأ الجو بأصوات شبيهة بما يصدر من تناثر الأشياء في الفضاء. وسرعان ما تتحرك الثلوج كثيفة متراصة كالأمواج المتدفقة فتغمر الأقدام حتى الكعوب ثم لا تلبث أن ترتفع إلى الحصور ثم إلى التراقي. ولقد سرت مرة في مثل هذا الجو العاصف وقد تكثف إلى درجة لم أكن أتبين معها طريق إلى أبعد من مسافة قدم واحدة أمامي، على أنني كلما رفعت رأسي نحو السماء كنت أبصر النجوم لامعة متلألئة من خلال طبقة رقيقة فوقي.

وما إن فرغت من هذه المعاينة حتى كان الدخان الناجي قد زحف متصاعدا إلى عمود جهازنا لمقياس سرعة الريح، فسارعت إلى باب الكوة فأحكمت إغلاقه كما يفعل الملاح في السفن، هابطا بعد ذلك داخل الكوخ إلى حين تمر العاصفة بسلام. وكنت أعلم أنها لن تصل إلي وأنا في مخيمي بين القشرة الثلجية بمنطقة الحاجز، على أن ذلك لم يمنع من تطرق الصوت المزعج إلى سمعي، فقد كانت العاصفة تعوي في جهاز التهوية وتهز مدخنة المرقد هزا عنيفا حتى ظننت أنها ستخلعها من منبتها،

وراحت تلطم السقف كما لو كانت تنهال فوق، بمطرقة ضخمة جبارة. وأصبحت أحس بنتيجة امتصاص الثلوج للهواء البارد القارس من ثنايا المسام الدقيقة، وسرت في الحجرة وفي النفق نسمة اضطربت لها شعلة الشمعة لحظات قصيرة ثم انطفأت، فلم يعد لي ما أستضئ به سوى ضوء مصباح العواصف، وهو ضوء باهت ضعيف قليل الجدوى في مثل هذا الظرف.

وحتى في هذه اللحظة لم أكن أعلم مدى شدة العاصفة بصورة قاطعة فصعدت إلى السطح لأتبين الأمر، ولكن ما كدت أفتح باب الكوة حتى صدمني التيار الجارف الذي كان يتحرك كأنه حائط سميك، ولم تكن المسافة بين السلم ومكان جهاز قياس سرعة الريح لتزيد على بضع خطوات ولكنها في هذا الطرف كانت تبدو لي أكثر من ميل. فقد واجهتني الريح وثابة مشحونة بالثلوج كالأمواج العاتية الصاخبة، فصمدت لها ما وسعني الصمود في ليلة حالكة مظلمة لا عهد لي بها، ولم يكن ضوء المصباح السحري شيئاً ذا غنى وسط هذ البهم المعتم حتى إني لم أستطع أن أتبين يدي وهي مرفوعة أمام بصري.

قفلت هابطا إلى الغرفة وقد كسى معطفي الواقي من الريح بطبقة سميكة من الجليد على الرغم من قصر الفترة التي قضيتها فوق سطح الكوخ. ولم ألبث أن غشيني إحساس غامض بأن شيئاً ما قد تغير على وجه التحديد، بيد أنني سرعان ما لاحظت أن جو الغرفة قد أصبح أكثر برودة من ذي قبل بصورة ملموسة، فرفعت غطاء الموقد عفوا، فوجدته مطفأ على الرغم من أنه كان من بالوقود إلى منتصفه، فعجبت لذلك وتوهمت أني ربما كنت قد أدرت مفتاح الإشعال عن غير قصد قبل صعودي إلى السطح فانطفأ. ولكن ما إن أتيت بعود ثقاب لإعادة إشعاله حتى كان تيار الهواء المنبعث من ماسورة التغذية قد أطفأه مرة أخرى، فأدركت من فوري أن الرياح كانت سبب إخماد شعلته في المرة الأولى، ومن ثم أخذت أعالج الأمر حتى أوقدته من جديد ورحت أراقبه بمنتهى العناية.

ازدادت قوة الريح شدة ووثوبا واستحالت إلى زوبعة جبارة هوجاء، وكان الطنين

العميق للنبرات المنبعث من سلك الراديو الأرضي وصلصلة أسلاك الجهاز الخاص بقياس سرعة الريح تعلو فوق زفزفة الإعصار فذكرني ذلك بالصوت الذي تحدثه الريح في قلاع السفينة.

كانت تسجيلات جهاز مقياس سرعة الريح واتجاهها غير واضحة المعالم على صفحة التسجيل فأيقنت أن الثلوج المتحركة قد أحدثت ماسا بالأسلاك ما من شك في هذا. وأدركت من فوري أنه من العبث محاولة إصلاحها، فليبق الجهاز على ما هو عليه لحين فرصة أخرى، فثمة وسائل أخرى لمعرفة اتجاه مهب الريح، وعهدت في الحال إلى منديل عقدت طرفه إلى خزرانة أخرجتها إلى الفضاء من خلال جهاز التهوية الطارد، مستعينا على الرؤية بمصباحي السحري، وبذلك استطعت معرفة اتجاه الريح من انحراف المنديل أمام مهبها. ولقد كررت هذه العملية مرة كل ساعة مدونا النتيجة في السجل. ولكن ما وافت الساعة الثانية صباحا حتى مللت هذه العملية التي تشبه عملية الرصد خلال مرقب الغواصة. ولم يكن ثمة بد من إصلاح ما طرأ على الجهاز من عطل إذا أنا اردت –وقد كنت أريد– أن أنعم بشيء من النوم مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بتسجيلات كاملة غير منقوصة.

كانت الريح ما تزال تهب عنيفة عارمة، وكانت منطقة الحاجز تهتز فوق رؤوسنا من ارتجاجات جوية شديدة، وكان لضجيج الأنواء جلجلة تشعر كما لو أن عالم المادة قد أخذ يمزق نفسه بنفسه إلى شذرات وذرات دقيقة، حتى إني لم أستطع دفع باب الكوة إلا بجهد ومشقة. وما إن مرقت منه حتى غرقت في تيار جارف من شذرات الثلوج المتناثرة أعمتني، خرجت أزحف وانا أشدد قبضتي على مقبض الباب. وكان لابد من غلق الباب خشية أن يمتلئ النفق بالثلوج ولكني لم أترك مقبض الباب يفلت من يدي حتى وثقت من أمري وتمكنت من نفسي.

وكانت كل محاولة للإبصار ضربا من المحال، إذ كانت الملايين من الكريات الثلجية الصغيرة تتفجر في عيني فتلسع مثل "رش" البنادق. ولم تكن عملية التنفس بالأمر السهل الميسور إذ كان الثلج قد سد في وأنني غير أني على الرغم من ذلك

كله، أخذت طريق صوب جهاز مقياس سرعة الريح زاحفة على يدي وركبتي، خشية أن تطرح في الريح إذا أنا مشيت منتصبة، فزلة قدم واحدة هلاك محقق وقضاء محتوم.

عثرت على العمود بعد لأي، وبعد أن ارتطم رأسي بنجوة متجمدة، غير أني استطعت تسلق العمود على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أن عشرة ملايين من الأطياف الشريرة كانت قد أخذت تمزق جسدي وتجأر عيني بأباهيمها، إلا أن محاولتي كانت عديمة الجدوى إذ ما من شك في أن مثل هذه الزوابع العاصفة وقوة اندفاع كتل الثلوج المتراصة كفيلة بأن تعيد إفساد ما أصلح على الأثر، أضف إلى ذلك أن كباس الجهاز كانت تدور بسرعة مذهلة حتى أنه كان من المحتمل كثيرة أن يبتر من يدي إصبع أو إصبعان في المحاولة. فشرعت أهبط إلى الأرض، وشعرت وأنا ما أزال على العمود يأتي وسط دوامة عنيفة حالت بيني وبين السيطرة على حركاته وسكناته. كان باب الكوة عندما عثرت عليه مدفونا تحت طبقة كثيفة من الجليد، قضيت فترة من الوقت في كشطها وإزالتها بيدي المتفلتين ثم أخذت أجذب الباب من مقبضه بإحدى يدي تارة ثم بالأخرى تارة ثم بهما جميعاً. ولكنه استعصى علي ومر بخاطري ما كان من توخي الدقة في تركيبه لإحكام غلقه. استجمعت كل ما في عضلاتي من قوة ووقفت منحنيا فوق الباب ورجلاي منفرجتان عن حافتيه وجذبته جذبا شديدا ولكن بغير طائل كما لوكنت أحاول رفع حاجز المنطقة بأكمله.

لا مفر من الاعتراف بأني جزعت جزعا شديدا واستغلق على وجهي الرأي، وطار صوابي، وأنشبت أظافري في قطعة من الخشب لا تزيد مساحتها على ثلاثة أقدام مربعة وأنا كالمجنون. ثم أخذت أنهال عليها ضربة بمجمع راحتي محاولا إزالة الثلج عن صفحتها، ولكن عبثا حاولت، فأطرحت على بطني فوقها وأنا أجذبها بكل ما في كيان من قوة، حتى كلّت يداي وتسرب إليهما الوهن من الجهد وشدة البرد، ثم ثنيت ساعدي على كوعيهما ودفنت وجهي بين راحتي، ورحت أقول لنفس مراراً وتكراراً: أيها الأبله المأفون أيها الأبله المأفون ... "هأنذا أحصن نفسي من عدة أسابيع خلت

لأكون بمأمن من خطر الأنواء، فلا أعاصير داخل الكوخ، ولكن هأنذا اليوم قد استعصى علي الدخول، إذ كنت لا أرتدي تحت معطف الواقي من الريح سوى شعار واحد من الصوف، وقد أصبحت وليس بيني وبين الملجأ الأمن والدفء والطعام وشتى أنواع الآلات سوى مسافة قدمين .. قدمين اثنين بيني وبين كل الوسائل الكفيلة بالبقاء حيا، إلا أني عاجز كل العجز عن الوصول إليها. إن زوابع المتجمد الجنوبي الليلة تتسم بالإغراق للسرف في الجموح والطغيان، فشرها وأذاها لا يقاسان بجهاز، ولا يدونان في سجل المقياس. فهي أكثر من مجرد رياح، إنها حائط ضخم من الثلج له قوة انطلاق الأعاصير الهوجاء، فهو أشبه بالأمواج العاتية المندفعة من خلال الصخور وفوقها[١].

وتركز هذه الزوابع هجومها الشرير الماحق عليك كما لوكنت عدوا شخصية لها، ثم أنت أمام دوي الانفجارات الصوتية المجردة عن كل معنى لا تلبث أن تصبح شيئاً يزحف على حافة عالم منعزل. فأنت لا تبصر ولا تسمع، وتكاد لا تستطيع حراكا، بينما تلهث الرئتان بعد أن أفرغتا من الهواء، ويختل توازن المخ. وليس أكثر من هذا شيء يفكك كيان الإنسان.

كان جسدي قد تجمد من شدة البرودة أو كاد، وكان أحد أجهزة التهوية على بعد بضع أقدام من مكاني، فبينما أنا أزحف نحوه إذ لمس قفازي شيئاً باردة مستديرة، فأطبقت عليه بكلتا يدي وتحاملت على نفسي حتى انتصبت على قدمي. كان هذا الشي المستدير ماسورة جهاز التهوية الطارد. ودفعني شعور غريزي لست أعلم له تعليلا إلى الجثو على ركبتي ملصقاً وجهي بفتحته، لم أستطع تمييز شيء في الغرفة سوى قبس من نور ضئيل خافت انعكست أشعته الباهتة على رقعة ضيقة من الغرفة. وسرعان ما تسرب إلى وجهي الدفء المنبعث من الداخل فأنعشني قليلا، وأخذت

[١]تعتبر رياح المتجمد الجنوبي، حتى المتوسط السرعة منها أشد نكبة وأبعد أثر في الإضرار من الزوابع والأعاصير التي تفوقها بسرعة في المناطق الأخرى، بسبب ما تثيره من تيارات ثلجية تعمى الانسان وتحول بينه وبين القدرة على التنفس.

أفكر وأنا ما أزال راكعا على ركبتي وظهري إلى الزوبعة العارمة فما عساني أصنع. فكرت في كسر نوافذ السقف، ولكنها كانت غارقة تحت قشرة صلبة من أثر الثلوج المتراكمة على عمق لا يقل عن قدمين، زد على ذلك أنها كانت مزودة بسلوك متينة ضاعفت من صلابتها. كم وددت لو أن معي شيئاً يصلح لأن أحفر به، إذن لاستطعت تفتيت القشرة الثلجية التي تغطى النافذة، ثم دفعت فيها بقدمي فيتم لي تحطيمها. كانت الماسورة التي انطوت عليها يداي، أول مصدر إلهام لي في موقفي هذا. وتبادر إلى ظني أنني ربما استطعت أن أستعين بها على الحفر، فشرعت أجذبها بكل ما استطعت من قوة حتى كانت يداي، بيد أني لم أوفق إلى زحزحتها قيد أنملة، فقد كانت هي أيضاً محكمة الوضع، وعندئذ فقدت كل أثر في دورة الزمن، واستولى على اليأس والقنوط، وأيقنت أنني بسبيل مشكلة لا حل لها ولا نهاية. وفجأة تذكرت المجرفة فقد كنت غرزتها من أسبوع مضى في القشرة الثلجية إلى جانب الكوخ في مواجهة مهب الرياح، إن في هذه المجرفة نجاتي. ولكن كيف السبيل إلى العثور عليها في هذا الإعصار المكتسح كل ما يصادفه.

استلقيت على الأرض أو بالأحرى فوق الجليد، ومددت رجلي إلى أقصى ما يستطاع دون أن أرفع يدي عن ماسورة جهاز التهوية، وبدأت أخص بقدمي في كل اتجاه ولكن لم أعثر على شيء سوى الفضاء الأجوف. ومن ثم أخذت أتحرك رويدا إلى الوراء صوب الكوة، ممسكا بحافتها الثلجية التي أتاحت لي بفضل صلابتها مقبضا متينا آخر أتشبث به، وتمددت على الأرض مرة أخرى، ورحت أخص بقدمي من جديد، ولكن التوفيق جانبني في هذه المرة أيضاً. ولم أجسر على ترك ما أنا قابض عليه قبل أن أجد شيئاً آخر مألوفا لدي أتشبث به، على أن قدمي ارتطمت في هذه اللحظة بماسورة جهاز التهوية الأخر. فأخذت أزحف مرتدا نحوها. ومن مرساتي الجديد شرعت أعيد المناورة وإذا بكتفي يصطدم بشيء صلب، ما إن تحسسته حتى علمت أني قد عثرت على طلبتي فكدت أقبلها من الفرح.

احتضنت هذه المجرفة المثلثة البركات، وأخذت أجر قدمي نحو باب الكوة شبرا

شبرا، وكانت يد المجرفة من صغر الحجم بحيث يمكن إدخالها تحت مقبض الباب الخشبي، ثم ضغطت على المجرفة بكلتا يدي، محاولا رفع الباب، ولكن لم أجد من قوة ساعدي ما يحقق الغرض، فانبطحت على وجهي وجهدت حتى أدخلت كتفي تحت يد المجرفة، ثم استجمعت كل قواي ودفعتها إلى أعلى فانفتح الباب دفعة واحدة وانزلقت واقعة إلى أسفل الدرج وسط الحجرة حيث النور والدفء ورحت أفكر وأتأمل .. ما كان أروعها لحظة وما أجملها!

ضللنا في الصحراء

رونالد ر. ج. كاميرون

القصة التالية، جانب من قصة مطولة كتبها رجل انجليزي يصف فيها رحلة قام بها عبر الصحراء الكبرى، وهو يعتذر في مقدمتها بأنه غير ضليع في "فن الكتابة". ولأنه كتب قصته في ظروف غير مواتية، إذ كتبها في الثكنات والمعسكرات. ولكن فليوفر الكاتب على نفسه عبء الاعتذار، ففي اعتقادي أن كتابته هي أروع ما كتب عن الصحراء، وخاصة وصفه لشعور الضال في مفاوزها وقد كاد يقتله الظمأ. فهو وصف لا يدانيه وصف في أي مكان وزمان. وكان قيامه برحلته هذه في منتصف العقد الثاني من القرن الذي نعيش فيه.

***

استيقظت في صبيحة اليوم التالي فوجدتني، وكل شيء حولي قد غشيه طبقة رقيقة من الرمال. فالرياح التي هبت في الليل لم تلبث أن ازدادت سرعة هبوبها إلى نصف عاصفة، فكان نومنا في أثناء الليل متقطعا، وكنت أقوم بين آونة وأخرى لأحكم وضع قطعة المشمع الواقية من الماء، إذ كانت الرياح لشدتها قد اقتلعت مسندها الضعيف المؤقت، حتى إنني كنت أجدها فوقي في كل مرة أستيقظ فيها. كان البرد قارسا، واكتنفتنا من كل جانب سحابة رملية أثارتها الرياح. وكان علمي بعدم الاضطرار إلى النهوض مع أول خيوط الفجر، وقطع ساعات النهار الطويلة في السير وسط تلك المفاوز والفلوات، قد أشاع في نفسي الشعور بالغبطة والارتياح إلى حد يعجز القلم عن وصفه، كما كان إغراء البطاطين بالبقاء بين طياتها عظيما لا يقاوم. على أن كل أمل في الاستجابة إلى هذا الإغراء سرعان ما تبدد وتلاشى أمام هذه الريح الصرصر العاتية. لقد كنت دائما أحرص على نصب خيمتي بكل عناية ودقة،

تاركا منفذها الوحيد مواجها للناحية العكسية لمهب الرياح، وقد أتى هذا الوضع بالغرض المنشود في ذلك الجزء المكشوف من الصحراء الذي قدمنا منه، حيث اتجاه الرياح يكاد يكون ثابتا. ولكن الآن – في هذه المنطقة ذات الكثبان– فإن تقلبات الرياح الجهنمية الخبية أصبحت كما لو كانت موجهة ضدي أنا شخصيا، وعلى الرغم من أني أقمت الخيمة بطريقة تضمن لي أقصى قدر من الوقاية، إلا أنه يخيل إلى أن هذه الرياح تجد لذة شيطانية في التحول إلى جهة منفذ الخيمة، وإثارة سحابة رملية عاتية على شخصي الضعيف، ويجب علي أن أعترف بأن هذا هو في الواقع السبب الوحيد الذي حملني على التفكير في النهوض من الفراش. لم يكن هنالك حتى يومنا هذا ما يبرر مشقة حملنا المشمع الواقي من المطر، هذا إلى جانب عبء الخيمة ومحتوياتها، ولكن الحوادث برهنت الآن على عظيم نفعه وقد بذلنا جهدا جهيدا استغرق فترة غير قصيرة من الوقت في تثبيت المشمع بدء فوق الخيمة بعد أن صفقته الرياح طويلا حتى أصبح في مقدورنا الاستمتاع بقسط من الراحة داخل هذا المأوى، وتناول وجبة من الطعام لا يكون قوامها خمسين في المائة من رمال الصحراء.

تركنا "الطاهر" يبحث عن عين الماء التي لم يدهشني عدم استطاعته تعيين موقعها على وجه التحديد، نظرا لانقضاء فترة طويلة من الزمن على زيارته الأخيرة والوحيدة لهذه الناحية، وأرسلت مُحمَّدا ليحاول إغراء بعيري على النهوض وأنا أترقب عودة الطاهر لأطعمه وأسقيه إلى أن ينتعش ويدب فيه النشاط من جديد، ولم يكن لدي ما أعمله بعد ذلك سوى انتظار عودة الطاهر. ولكن زاد من قلق ما اكتشفته من قلة ما يوجد في هذه الناحية مما يصلح مرعى للإبل، فلم يكن بالمكان سوى تلك الشجيرات القليلة اليابسة التي سبق لنا العثور عليها في الليلة الماضية. على أننا لم تلبث أن عثرنا على بضع شجيرات أخرى أمام مدخل الأراضي الواقعة إلى الجانب الشمالي، ولكنها كانت يابسة هي أيضاً أو كادت تكون كذلك بصورة محزنة. ليس بها أكثر من وريقات هي أبعد من أن تقيم أود المطايا التعسة.

انقضت ساعة على ذهاب الطاهر أو ساعتان عندما قطع عليَ ضحكاتي الهادئة

من مغامرات فولستاف[1] المزرية اقتحام أجرائي الستة باب الخيمة، وكالهم من البربر. فلا بد أن يكون هناك ما أزعجهم، وليس من العسير التنبؤ بالمتاعب عندما يكون المرء متصلا بالأهالي. والواقع أن مجرد رؤيتهم متجمعين، وتلك النظرات الرائعة التي كانت تعبر عن سؤالهم المتحفز على شفاههم والآن ماذا ستعمله حيال هذا الموقف؟، هذه النظرات الرائعة التي تبينتها بوضوح أكدت لي بأن هناك ما أهمهم إلى حد بعيد. على أني لم أكن أترقب الأنباء المزعجة التي أفضى إلي بها "بركات" من أن الطاهر قد فشل في الاهتداء إلى عين الماء، وهذا هو السبب الذي من أجله قطعوا علي انهماكي في قراءة مسرحية شكسبير الفكاهية.

كانت المفافجأة مذهلة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها، فقد كان الطاهر يبدو واثقا كل الوثوق من معرفته موضع عين الماء، حتى إني يخامرني في ذلك أدنى شك، ولكن ها هو ذا الآن يعترف بأنه لم يستطع العثور على هذه العين، بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا فقرر أن المكان الذي نحن فيه ليس "كاتلات"، وأن المنطقة غير معروفة له، أذهلنا وأزعجنا اعترافه في آن واحد، ولم يكن لدي أي ريب فيما يجب على عمله إزاء هذا الموقف، وهو جمع كل ما بقي لدينا من الماء ووضعه في مكان أمين أغلق عليه. وقد كان من نعم الله علينا ورحمته بنا برودة الجو، فلم نشعر منذ مغادرتنا "تدغات" بالحاجة إلى استهلاك حصتنا الكاملة من الماء، ولكن ما وفرناه من هذه الناحية ضاع من ناحية أخرى، لما اعترى قرب الماء من جفاف جزئي بسبب الرياح.

كان مجموع ما لدينا من الماء بعد عصر كل نقطة ما كنا نحمله معنا من القوارير لا يربو على ملء برميل كامل ونصف برميل، أو بعبارة أخرى ستة جالونات أو سبعة على الأكثر. وكان البرميل الوحيد المملوء حقا هو الذي أحضرناه معنا لحسن الحظ من "تدغات"، وإليه رجع الفضل في إنقاذ حياتنا، كما سوف نرى من مجريات الأمور.

[1] احدى شخصيات شكسبير الفكاهية في مسرحية.

فهذان البرميلان كانا يحتويان على الشيء الوحيد الذي يحول بيننا وبين ورود المنية من الظمأ. لذلك أحكمت إغلاقهما واحتفظت بالمفاتيح معي ولم أتركهما يغيبان عن بصري وكان عندي بضع صفائح صغيرة جداً من اللبن المحفوظ، ولكنها لم تكن لتغني في إخماد أوار الظمأ. وكانت المسألة الثانية هي كيف أقسم الحصص؟ فأين ومتى نحصل على مقدار آخر من الماء؟ أمر لا يعمله إلا الله وحده، لذلك لم أجد بدا من تحديد الحصص إلى أقل ما يلزم الإنسان لبقائه على قيد الحياة. وفي النهاية استقر الرأي على تحديد المقدار بنحو كوز أو قريب من ذلك يومياً.

قال لي الطاهر: إنه عند خروجه وحده من "تغازي" أخبرته بعض قبائل الملثمين الذين صادفهم في الطريق عن قبائل من المرابطين يرعون إبلهم في مكان بجوار "كاتلات"، واقترح أن يذهب هو ومحمد للبحث عنهم، فإن وجدهم هان كل شيء، فقبلت اقتراحه. وغادرنا هو ومحمد عصر اليوم نفسه، وقد ركب هذا الأخير أقوى النياق المخصصة لحمل الأمتعة، وكان قد عاد إلينا بعد أن أخفق في إغراء جملي على النهوض.

انتشر الأجراء الباقون بعد ذلك في المنطقة المحيطة بنا لعلهم يعثرون على عين ماء منعزلة لم يتنبهوا إلى موضعها من قبل. كانت تحت مضارب خيامنا رقعة من الأرض على شكل زاوية قائمة منتظمة الأضلاع، حتى ليتبادر إلى الذهن أنها قد مهدتها يد الإنسان، وكانت جوانبها ترتفع قليلا بسبب انحدار الصخور إليها مدفوعة مع السيول، فتراكمت أكواماً عند القاعدة مكونة شبه أسوار متموجة، تبدو من بعيد وكأنها بعض الحصون أو بقايا بعض القلاع القديمة.

وكانت تتصل في جانبها الغربي بمجموعة التلال الصخرية الجرداء عن طريق ممر يبدو كأنه سرج جواد. وكانت تحيط بنا من جميع الجهات ما عدا الجهة – الجنوبية، مجموعات أخرى من هذه التلال الموحشة الجرداء المكونة من تراكم الصخور التي جرفتها السيول. وكانت الأرض الممتدة بين هذه الصخور رملية مستوية، لذلك كان افتراض وجود الماء إذا كان ثمة ماء، إنما يكون في أحواض السيول فوق تلك التلال

بشقوقها التي تشبه الجراح. فأسرعنا إلى هناك حيث قضينا بقية اليوم في البحث والتنقيب متسلقين الصخور الضخمة الملساء منها وغير الملساء، منقبين في الأغوار المنتشرة بين الرمال، وعند قواعد التلال نفسها، وهي شبيهة بالوهاد تملؤها السيول الجارفة عندما تهطل الأمطار، وتسيل المياه لامعة متألقة فوق المنحدرات. ولكننا لم نجد قطرة ماء واحدة على كثرة بحثنا وتنقيبنا، إذ كان قد انقضى على هذه المنطقة زمن طويل لم تنعم فيه طول الأمطار. فالجفاف يحيط بها من كل جانب، والرمال والصخور جافة جفاف العظام التي تعرضت طويلا لأشعة الشمس.

عدنا إلى مضارب خيامنا في هذا المساء نتعثر في مشيتنا واحدا خلف الآخر والكتابة بادية على وجوهنا والحزن يملأ قلوبنا، فقد بدأنا نشعر حقيقة بوطأة الظمأ وكانا يعلم أن لا مطمع له في أكثر من كوب ماء يصرف له كل نهار. والواقع أن معرفة الإنسان بقلة ما لديه من الماء يحدو به إلى الشعور بالظمأ أكثر مما لو توفر لديه هذا الماء. وإن لأعترف هنا بأني لم أتشوق طيلة حياتي إلى تلك الأكواب من الشاي الساخن التي اعتدت الاستمتاع بشر بها بعد مشقة السير سحابة النهار مثل تشوقي إليها الآن.

عاد الطاهر ومحمَّد عصر اليوم الثاني ليخبرانا بإخفاقهما في العثور على أي نبع أوعين ماء، وأن الأول لم يهتد إلى أية معالم تساعده على معرفة حقيقة المكان الذي نحن فيه. والواقع أنه اعترف صراحة بأننا قد ضللنا الطريق. كان شعوري نحوه في هذه اللحظة أبعد من أن يكون أخويا. فهو يعرف أنه قد ضل الطريق السوي منذ أيام مضت، وقد كتم عنا هذا الأمر على الرغم من تيقنه بأننا نتخبط على غير هدى. وأظن السبب الذي دعاه إلى إخفاء الحقيقة عنا أمله في مقابلة بعض قوافل الملثمين مصادفة فيرشدونه إلى الطريق السوية، أو أن يكون من حسن الحظ أن يعثر مصادفة على الطريق الصحيحة فيردنا إليها. وعندما علقت على أن البوصلة تشير إلى أننا قد ملنا إلى جهة الغرب أكثر مما يجب، التزم الصمت ولم يقل كلمة واحدة تدل على أننا قد ضللنا الطريق حقا، وتركني أتوهم أن كل شيء سائر على ما يرام.

على أنه لوكان اعترف لي بالحقيقة لتغيرت الأمور ولكنا حافظنا على ما كان معنا من ماء فلم نشرب منه إلا القدر الذي يضمن عدم نفاذه قبل الاهتداء إلى بعض العيون، أو كنا على أسوأ التقدير عدنا من حيث أتينا فوصلنا "تدغات".

والآن .... ماذا نعمل؟ فالإبل ولو أنها قد استراحت قليلا إلا أنها في حالة يرثى لها من الضعف والهزال لقلة الغذاء، ولعدم وجود المرعى اللازم لها والماء الضروري. لذلك كان الأمل ضئيلا وهي في تلك الحال، أن تستطيع تحمل مشاق العودة إلى "تدغات" فهي رحلة قاسية شاقة تستغرق ستة أيام عبر الصحراء الجرداء، حيث لا مرعى ولا ماء. وكان من المحتمل أيضاً أن تكون آثار الطريق التي سلكناها من "تدغات" قد عفت عليها الرياح. أضف إلى ذلك أن العودة إلى " تدغات" بعد الذي قاسيناه من مشاق السفر، وبعد الذي ذللناه من الصعوبات للوصول إلى "دجانيت" كان أمرا بغيضا لا ترتاح إليه نفسي. ولم أجد في الخريطة التي كانت معي ما يساعد على تحديد مكاننا، إذ كان مقياسها من صغر الحجم إلى حد لا يسمح لي بالاعتماد عليها، فالبيانات الدقيقة لا تظهر فيها إنما هي توضح المعالم العامة والأماكن الكبرى لا غير. كذلك لا يمكن الرجوع إليها في تحديد موضع آخر ينبوع مررنا به لنفس السبب، لأن مقياس المسافة التي كنا نقطعها في مسيرنا كل يوم إنما كان تقديريا، إذ لم أكن أعتمد على شيء في تقدير المسافات سوى معدل السرعة التي تسيرها الإبل، وعدد الساعات التي يستغرقها مسيرنا اليومي. ولكن الأمر الثابت هو أنا قد ملنا نحو الغرب أكثر مما جب، ولابد لنا من الاتجاه نحو الشرق، علنا نهتدي إلى الطريق التي حدنا عنها، على أن الأمر لا يخلو من الخطر. فإذا كانت النقطة التي قد وصلنا إليها تبعد عن الخط الذي يمتد موازية لخط العرض الذي تقع عليه "كاتلات"، وإذا كنا قد ضللنا موضع عين الماء أو الطريق المطروقة، وهذا من أسوأ الأمور فإننا نكون قد توغلنا على غير هدى في الصحراء المجهولة التي تمتد شرقا المئات من الأميال حتى منطقة " جادو: بيد أنه لم يكن ثمة مفر من القيام بهذه المغامرة. وبناء على ذلك استقر رأينا على الاتجاه شمالا نحو الناحية الشمالية الشرقية

من الغد، سالكين طريق واد صغير بين التلال فبعثت الطاهر مرة أخرى في العصر ليرتاد تلك الناحية باحثا عن معالم الطريق لعله يكون قد شاهدها من قبل. وعاد إلينا الطاهر مع المساء ليخبرنا بأن أحد تلك التلال البعيدة يبدو كما لوكان من المعالم التي يعرفها، وأنه يشعر بأن في مقدوره أن يقودنا إلى الماء بعد مسير ثلاثة أيام. فسرنا النبأ، ولكن ثقتي فيه كانت قد تزعزعت بعض الشيء فلم أتفاءل بقوله كثيراً.

أمعنت النظر في هذه الليلة وأنا راقد بخيمتي في المأزق الذي وقعنا فيه، فلم أجد مفرا من الشعور بأن الموقف كله متناقض لا تعقل فيه. فقد كان من العسير أن أتصور أنني نفس الشخص الذي كان يجلس من ثلاثة أشهر خلت أو نحو ذلك آمنا مطمئنا على شرفة نادي الضباط في "نيجيريا" يأمر فيسعى إليه الغلام بما أمر به دون إبطاء، أو على وجه الدقة، ينادي الغلام ثلاث مرات، إذ المعروف عن الخدم في نيجيريا أنهم بطيئون في تلبية النداء من أول مرة. وقد نازعني الشعور القوى بجفاف الحلق واللسان الذي أصبح مثل قطعة من الجلد إلى تناول الكوب الذي لم يبق فيه من الماء سوى الثلث، وهو كل حصل حتى مساء اليوم التالي. ولكن سرعان ما رد الظمأ إلي رشدي وأيقنت بأني أنا والرجل الذي أشرت إليه في نادي الضباط شخص واحد ما في ذلك شك.

وفي صبيحة اليوم التالي وهو الثاني عشر من الشهر، حزمنا أمتعتنا وخيامنا ومدنا إلى الطريق الشمالية الشرقية في الاتجاه الشمالي، مقتفيين أثر الوادي الرملي الضيق الممتد إلى جانب التلال، وطبيعي أنه لم يكن في مقدورنا أن نترك للجملين المتخلفين شيئاً من الطعام ولا من الماء. ولم يسمح لنا المأزق الذي نحن فيه الاهتمام كثيرة بأمر الجملين. على أنني تركتهما لمصيرهما مغلوبا على أمري وعلى غير رغبة مني، ولا شك أنهما سيموتان جوعا وعطشا إن عاجلا أو آجلا.

وفيما نحن نجر الخطى بين التلال، لمحنا بعد ساعة من الزمن رقعة من الحشائش الجافة في سفح منحدر بين التلال، وكان من اليسير ألا نتنبه لوجودها لولا أننا كنا نسير وسط هذه الثغرة بين التلال، فأنزلنا المطايا، وتركنا الإبل ترعى، كما أمرت

الرجال بجمع كل ما يستطاع جمعه من هذه الحشائش وحزمها، لحمل ما يمكن حمله منها معنا. وهنا أعترض الطاهر بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى ذلك، فهو قد استبان معالم الطريق الأن، وأنه يوجد أمامنا كثير من الحشائش، ولكني كنت ما أزال في ريبة من أمره، والحكمة تقضي بانتهاز هذه الفرصة وعدم ترك ما في يدنا اعتمادا على افتراض وجود غيرها في الطريق بعد حين، وخامرني كذلك الشك فيما يقول، وإلا فكيف لم يلمحها من قبل أثناء تجولاته حينما أرسلته في طلب الماء، إذ لابد أنه مر بهذا الموضع وإلى أبعد منه، ولكن فاته أن يلمحها. غير أنه راح يؤكد لي وجود الحشائش أمامنا في الطريق. ومن المسلم به أن الإنسان قد يمر قريباً من الهدف فيعمى عنه نظرا لطبيعة هذه المنطقة المتباينة المناظر والأوضاع. فقررت استئناف المسير وعدم ضياع الوقت في الجدل، إذ كان يبدو لي أنه حقيقة قد تعرف على معالم الطريق في هذه المرة. على أننا لم نشاهد في مسيرنا إلى آخر النهار عود حشيش واحد.

سرنا سحابة يومنا هذا وسط مناطق جرداء قاحلة يتكون شطرها الأكبر من الرمال والتلال الصخرية، وعثرنا في الطريق على آثار أخفاف جمل تتجه شرقا نحو التلال التي بدت لنا شمالا وجنوبا واستطعنا تمييزها من مسافة بعيدة مما جعلنا نميل في طريقنا نحو الشرق، وكان من المحتمل وجود ما يصلح لرعي الأبل في ظل مثل هذه السلسلة من التلال، كما كان يحتمل وجود شيء من الماء. ولكن أدركنا الغروب دون أن نرى شيئاً من النبات على طول امتداد مرمى البحر، وكل ما طرأ على المشهد من تغيير، هو أن التلال أصبحت أكثر ارتفاع، وأكثر تناثرا، فأنخنا الجمال وقد نال منا التعب والإجهاد. ولم نجد أي قطعة من الخشب لنوقد بها نارا تقينا برودة الربيع القارسة. كما أننا لم نجد حفنة من نبات نطعم بها الجمال، حتى اضطررنا مرة أخرى إلى استخراج "القش، من رحال الجمال لنطعمها به، إذ لم يكن لدينا شيء أفضل من هذا. وكان أصغرها سنة قد وصل لتوه بعد أن أزعجنا طيلة الطريق بسبب ما يعانيه من الجوع والعطش والإعياء حتى اضطررنا إلى تجريده من حمله.

وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوس الأجراء، فراحوا يصلون ويضرعون إلى الله أن

يرسل إليهم الماء، فبذلت بعض الجهد لاحتفظ بالبشر ورباطة الجأش، ورحت أؤكد لهم بأن كل شيء سيتم بخير في النهاية، وأنني أعلم أنها سوف نجد الماء المنشود. وبينما أنا أحاول أن أحمل نفسي على تناول شيء من الطعام، جاءني المدعو صقر من خيمة الأجراء التي كانت على بضعة أمتار من خيمتي، وطلب إلي أن أعطيه "بسكوتة" مما معي، فسألته عما يريد من ذلك، وأجاب: "أقدمها قربانا إلى الله، فقد تبرع كل واحد منهم بجزء يسير من طعامه" وهو يريد من "السيد أن يشترك معهم في هذا القربان" ففعلت، وراقبتهم وهم يضعونها مع قرابينهم في إناء صغير، ورأيتهم يصطفون أمامه، بينما راح صقر يبتهل إلى الله أن يرسل الغيث، ثم صلوا ركعتين ضارعين إلى المولى أن يستجيب لهم. كان منظرهم رائعا ومؤثرا في نفس الوقت، وهم يرعدون من البرد في جوف الليل، فشعرت في قرارة نفسي بشيء من تبكيت الضمير إ فإني المسئول الأول عن وجودهم في هذا المأزق الحرج، فلولاي لما أتوا إلى هذه الصحراء القاحلة المجدبة.

وما إن أشرقت شمس النهار التالي حتى استأنفنا مسيرنا وسط هذه المهامه المقفرة الموحشة، ونحن نحث الخطى صوب سلسلة التلال المذكورة آنفة، وقدرت أننا قد نصلها مع هبوط الليل. كان مسير ساعتين أو ثلاث ساعات كافية للجمل الفتي الذي يشكو من شدة التعب في اليوم السابق، فركع على ركبتيه ورفض أن يتحرك من موضعه بالرغم مما بذلناه من جهد لإنهاضه. ولم أشأ أن أتركه يقاسي آلام الموت البطيء. خلصته من بؤسه برصاصة من مسدسي، ثم استأنف المسير على عجل. وكان سبب إسراعي هو عدم رغبتي في مشاهدة العملية التي أعرف أن الأجراء كانوا على وشك إجرائها جيفة الجمل، وهي شق بطنه واستخراج ما بقي فيه من سائل، وقد لحقوا بي بعد بضع دقائق وأروني زجاجتي ماء من النوع الفرنسي الكبير الحجم استطاعوا ملئهما من ذلك السائل. ولم أجد في نفسي –على شدة ما بي من الظمأ– أية رغبة في احتساء شيء مما في هاتين الزجاجتين، فقد كانت تشمئز نفسي من مجرد التفكير في ذلك. ولم يشرب الأجراء شيئاً منه كذلك، ولكنهم استعملوه لطهو

طعامهم تلك الليلة وفي الليلة التي تلتها. اقتربنا من سلسلة التلال، انفرجت واتسع ما بينها من الأرض، وقل عدد التلال وازداد اتساع السهول الرملية وكانت تتخلل تلك السهول كثبان من الرمال، وبعض الصخور التي كانت تمتاز ببريقها. وهي على نوعين: نوع أخضر اللون كبير الحجم يبدوكما لوكان بقايا أشجار متحجرة. أما النوع الثاني فأزرق اللون، وغالبيته منحرف القطر في تكوينه. وتبدو صخوره كما لو كانت ألواحا إردوازية قد وضعت في صفوف منتظمة، إلا أن أطرافها مستديرة تغطي الرمال بعض أجزائها.

وما إن وافت الساعة الرابعة بعد الظهر حتى انتابني الشعور باليأس، واستبد بي الظمأ وأنهكني المسير، فقد كنت أسعى على قدمي سحابة كل يوم، مع استثناء فترات قصيرة لا يتجاوز مجموعها ساعة واحدة في اليوم كنت أمتطي فيها ظهر جمل من الجمال المخصصة للأمتعة جالسة فوقها. ولقد قطعت المسافة كلها سيرا على قدمي، أضف إلى ذلك أني لم أذق من الطعام إلا النذر اليسير، إذ كنت قد اضطررت لتخفيض حصة الماء لكل منا من جديد على قلتها وتفاهتها، فبدأت أشعر بأثر هذا الحرمان شديدة قاسيا. ولم يبق بيننا وبين سلسلة التلال سوى بضعة أميال، فأخذت أدقق النظر فيها من خلال منظار الميدان المكبر، ولكنني عجزت بعد طول النظر عن رؤية شيء من الخضرة، وأيقنا من أننا سنقضي ليلة أخرى شبيهة بالليلة الماضية المشؤومة الموحشة. ولكننا واصلنا السير على كل حال.

وما كدنا نبلغ التلال عند هضبة تشرف على منخفض من الأرض حتى لمحنا أمامنا شيئاً أبيض اللون، فحثثنا الخطى نحوه، فوجدناه هيكلا عظمية الناقة نفقت فغمرنا الفرح، ووجدنا إلى جانب العظام بضع قطع من الخشب، ورأينا أمامنا أيضاً على مسافة قصيرة رقعة صغيرة من الحشائش الكثيفة الملتفة، فقصدناها على الفور، فإذا هي تقوم حول مسيل ماء قليل الغور، يمتد موازية للتلال، كما وجدنا حوله على امتداد البصر رقعة أخرى شبيهة به فاستبشرنا بقرب انفراج أزمة المرعى للأبل. ولكن الشيء الذي بعث فينا بريق الأمل هو اكتشافنا أثر أقدام إلى جانب حوض مسيل

الماء، وكأنها تتعقب جهة انسيابه.

تجددت في نفوسنا روح الأمل في هذه الليلة، وكان الطاهر كثير التفاؤل على عادته، فراح يقدم بكل ما هو مقدس عنده. بأننا قد أصبحنا الآن في الطريق الممتدة بين "كاتلات" و"تفيفي" وأننا سوف نصل هذه القرية الأخيرة مع ظهر اليوم التالي، وأنه ليحل لي دمه إذا لم يتضح صدق قوله. ولعله لم يدرك في هذه اللحظة عدد المناسبات التي كنت أشعر فيها بميل شديد إلى إخماد أنفاسه، وتبادر إلى ذهني في الحال أمر تلك الحشائش والأعشاب التي أكد لنا وجودها في الطريق، حينها أغراني بعدم حزم حشائش الرقعة التي سبق أن نزلنا بها اعتمادا على ما سوف نجده أمامنا، لقد أكد لي في إحدى المناسبات أيضاً بأنه قد تعرف على التل، وأن واحة "دجانت" تقع على الجانب الآخر منه، وأن الوصول إليها لا يستغرق أكثر من مسير يوم، على أني كنت أدرك تماما أن قوله هذا هراء، لأني كنت أعلم من خريطتي أن سهلا فسيحة من الأرض يمتد غرب هذه الواحة، تتخلله كثبان من الرمال، لا بد من اجتيازها قبل الوصول إلى الواحة. أضف إلى ذلك أن بيننا وبينها مسيرة عدة أيام.

لقد تبخرت ثقتي فيه الآن، ولم أعد أصدق شيئاً مما يقوله، وأدركت أن إسراف في المزاعم والادعاءات لم يكن في الحقيقة إلا لإحياء الأمل في نفوسنا حتى لا يتسلط عليها اليأس والقنوط. ثم هومن ناحية أخرى، إذا جاءت الأمور مطابقة لمزاعمه عن طريق الصدفة يكون قد استعاد مركزه في أعيننا كدليل ومرشد. وقد ترتب على احتمال انفراج الأزمة مضافا إلى ذلك نبوءة الطاهر، أن طلب إلى صقر بأن أزيد من حصة الرجال في الماء. ولكنني أفهمتهم بأني لا أشاطر الطاهر تفاؤله، وبأني أرى من الحكمة أن تبقى الحصص كما هي في الوقت الحاضر، فلم أكن أرغب لهم أن يغتروا بما يبديه الطاهر من تفاؤل؛ خشية ألا نجد في يومنا ما يبرر هذا التفاؤل. ووجدت إلزاما على ألا أتركهم يسترسلون في الاستبشار وقرب الفرج؛ حتى لا يكون وقع العكس إذا خابت الظنون شديدة على نفوسهم. وقد بدا لي أنهم أدركوا ما أرمي إليه فكفوا عن الطلب، بيد أني أعتقد بأنني صرفت لهم في الواقع أكثر من الحصة المقررة

في ذلك اليوم، فأعطيت كلا منهم قدحا كاملا بدلا من القدح الناقص.

ولم أكن قد أدركت حتى الآن أنه قد أصبح من المتعذر على هؤلاء الأجراء أن يطعموا شيئاً. فطعامهم يتكون شطره الأكبر من الدقيق والحبوب، وهي لا بد من أن تطهى لتؤكل، على أنه لابد لطهوها من الحصول على الماء، وهو الشيء الوحيد الذي كنا لا نملك منه ما يفي بهذا الغرض؛ فالحصة اليومية لا تكاد تكفي للشرب، فكيف يتوفر منها شيء الطهو الطعام وإنضاجه؟

منذ هذه اللحظة سمحت لهم بمشاطرتي حصتي من الراد. ولكن البسكوت والشوكولاتة والعبوات الصغيرة من لحوم البقر والأسماك المحفوظة لم تكن لتشبعهم بمثل ما كان يشبعهم طعامهم الخاص الذي يملأ البطون.

عندما يستبد أوار الظمأ بالإنسان تقل شهيته لتناول الطعام. ولكن قلة الطعام تنهك البدن وتضعفه، وهذا ما كانت عليه حال الرجال.

تابعنا المسير في الصباح في طريق قناة الماء الحاوية. وكنا نلمح بكل وضوح في الأماكن التي قال فيها تراكم الرمال آثار بعض الطرق المطروقة وأحيا في نفوسنا بصيص الأمل احتمال ازدياد النبات أو وجوده. وما إن سرنا ساعتين من الزمن حتى وصلنا نقطة تقاطع من طريق آخر في اتجاه زاوية قائمة واضحة المعالم، فبدأت أشعر بأن الطاهر ربما كان على حق فيما زعمه لنا من أن هذا التقاطع يقع في الطريق المؤدية إلى "أزوغات" وهو زعم يبدو من المحتمل أن يكون مطابقا للواقع. فواصلنا المسير قدما في الطريق التي كنا نسير فيها عارجين على مجموعة من التلال مقوسة الشكل، يدل منظرها على أنها قد تكون من رماد بركاني. وأخيراً دخلنا في واد قائم بين مجموعة ضخمة من التلال به كثير من الأعشاب والحشائش، معظمها طعمته الحيوانات في مناسبة سابقة. يدل على ذلك كثرة ما به من آثار الإبل والماعز، ولا جدال في أنه كان مرعى للسائمة، انتجعته فيما مضى بعض قبائل الملثمين أو المرابطين بيد أننا لم نعثر فيه على أي أثر لحياة أو لعين ماء.

واصلنا المسير بقية يومنا خلال الوادي وما حل المساء حتى كان الوادي قد أخذ يضيق وينكمش شيئاً فشيئا، وتلاشى النبات من حشائش وأعشاب، على أننا لم نلبث أن عثرنا على رقعة أرض صغيرة معشبة، فأنخنا الجمال ونصبنا الخيام. كان يومنا هذا مخيبا للظنون أيضاً، ونحن وإن لم نتوقع العثور على شيء من الماء، إلا أن وجود مثل هذه الآثار الكثيرة للإبل والماعز قد بعثت في نفوسنا شيئاً من الأمل والرجاء، وإن يكن قد غيرني في دخيلة نفسي شيء كثير من الاستياء والامتعاض.

كان قد استقر عزمي، إذا ما بلغ الأمر حد اليأس، أن أرسل الطاهر على جملة القوي؛ ليرتاد لنا بأقصى ما يستطيع من السرعة عين ماء تروي ظمأناء: فإذا ما وفق إلى ذلك عاد إلينا بعد أن يكون قد ملأ القرب التي يحملها معه، فقد كان جمله لا يزال محتفظا بقوته وجلده، كما كان هو أيضاً في حالة من القوة لا بأس بها، فهو من رهط المرابطين، قد اعتاد مشاق الأسفار الطويلة واحتمال الظمأ أكثر من غيره لفترة غير قصيرة من الزمن، ودفعني إلى تنفيذ هذه الخطة قبل الوقت الذي كنت أزمع تنفيذها فيه، اقتراح مماثل تقدم إلى بن صقر في تلك الليلة، لا يختلف عن خطتي في شيء إلا في طلبه مرافقة دليلنا الطاهر، وأن يكون له رديفة على ظهر جمله، فقد كان الأجراء قليلي التتمة بالدليل، وخشوا إن هو ذهب ألا يعود إلينا، والواقع أني كنت أشاركهم في شعورهم، ولكني كنت في شك من قدرة صقر على احتمال ما يستطيع الطاهر احتماله من المشاق، وفي أن يكون له من القوة والجلد ما يؤهله لمثل هذا السير السريع المضي دون أن يكون معه القدر الكافي من الماء. ولكنه أصر على الذهاب، وعلى أنه من القوة بحيث يستطيع الصبر على العطش ومشاق الطريق. فنزلت على إرادته، وبدأ الرجلان رحلتهما في ضوء القمر في هذه الليلة بعد أن زودتهما ببعض البسكوت والأطعمة المحفوظة في العلب، ومقدار من الماء لا يتجاوز ملء كوبين، وأكدت عليهما ضرورة ترك بعض علامات معينة في الطريق التي يسلكونها، نستطيع الاهتداء بها حيث تكون معالم الطريق غير واضحة، وخاصة في المناطق الصخرية حيث يصعب تمييز آثار جملهما؛ حتى نستطيع اللحاق بهما في

سهولة ويسر.

بدأنا مسيرنا مقتفيين أثرهما في صبيحة اليوم التالي بأقصى ما تسطيعه إبلنا المكدودة من سرعة. وكان هذا اليوم بالمصادفة يوم عيد ميلادي، وتمنيت لو ابتسم لي الحظ قليلا في هذه المناسبة، فليس من هدية أرحب بها في هذا اليوم، ولا أحب إلى نفسي من صفيحة كبيرة ملأى بالماء البارد العذب.

صادفنا في طريقنا كثيراً من كثبان الرمال والحصى. فكنا نتبين آثار جمل مرشدنا الطاهر دون عناء أو مجهود، ولكن في الطريق الصخرية القريبة من المناطق الجبلية كان تعقب الأثر غير ميسور مثل تلك السهولة، على أنا استطعنا بفضل العلامات التي تركها لنا صقر ألا نضل الطريق.

لم يكن السير قد امتد بنا طويلا بعد، حتى وجدنا أن الدليل قد عثر على آثار أربعة جمال. وكانت الآثار تبدو حديثة العهد لم يمض عليها بعد أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة. كذلك كنا نستبين بين الفترة والفترة آثار بعض الماعز والجدي ومن المعروف أن الحمار لا يصبر على العطش أكثر من أربعة أيام، لذلك شعرنا حقيقة بأننا قد اقتربنا من منطقة الأمان.

كانت حال الرجال المعنوية قد ساءت إلى حد بعيد، وبلغوا من الضعف مبلغا يثير القلق. فالسير على الأقدام في أغلب الأحيان لفترات تمتد إلى ثمان أو تسع ساعات في اليوم، مضافا إلى ذلك قلة الغذاء وشدة العطش، قد بدأ يؤثر على الرجال تأثيراً سيئاً للغاية، حتى كادت قوة الاحتمال تبلغ مداها. فقد كنا نسير ونسير، ونرغم أقدامنا المتعبة المكدودة على متابعة الحركة ومواصلة الخطى، بينما كانت العيون تلتهم بنظراتها الزائغة السهول والوديان الممتدة أمامنا أو المحيطة بنا، باحثة عن أي أثر للغوث، وكانت ترنو أحياناً إلى أعالي الهضبات في قلق، آملة أن يكون بالجانب الآخر الذي لم نصل إليه بعد، ما قد يتمخض عن مفاجأة سعيدة. وكثيرا ما كنت أتقدم القافلة في أثناء المسير وأسبقها ثم أنتهز الفرصة لأرقد قليلا

طلبا للراحة، مبتهلا إلى الله أن يكون لحاقهم بي بطيئا غاية البطء. فقد يصيب الواحد منا شيء من الدوار الخفيف، ولكن ما أن تتوسط الشمس كبد السماء حتى نصبح في ذهول أو كما لو كنا نعيش في شبه غيبوبة. وأحسب أن العقل كان يطلق الجسد ثم يطل من مكان علوي على تلك الحفنة التعسة من الحيوانات، وهي تزحف متحسسة طريقها في المهمة القفر الموحش.

كان من حسن حظنا أن الجو لم يكن قائظاً إلا في بعض فترات استثنائية، عندما يقف هبوب الريح وكثيرا ما كانت السماء متلبدة بالغيوم. فلو أن الجو كان قائظاً حقيقة لما استطعنا أن نصل إلى حيث وصل بنا المسير.

وما إن وافت الساعة الثالثة بعد الظهر، حتى كنا قد أخذنا نقترب من مجموعة تلال مرتفعة بعض الارتفاع، مترامية الأطراف تمتد إلى جانب مسيل ماء رملي عريض، عندما سمعت ففجأة صراخا خلفي، فالتفت ورائي فإذا الجمال قد توقفت عن السير وإذا "ملام"، يعدو نحوي. فلا بد أن هناك حادثا غير عادي، وإلا لما كلف "ملام، نفسه مشقة العدو وهو على مثل تلك الحالة من الإعياء. أضف إلى ذلك أنه حتى في الأحوال الطبيعية العادية، ما كان ليسمح لنفسه أن يأتي بمثل هذا العمل الذي لا يتفق مع الوقار. رأيت في قبضة الملام حالما وصل إلى حيث كنت – حفنة من طينة سوداء وهو يقول في تلهف: بأنه لمح رقعة قائمة من الأرض يجسر مسيل الماء وأنه عندما خصها وجد الأرض رطبة. لا جدال في أنه كان صادقا في قوله كل الصدق، فأسرعت بالعودة معه ما وسعني الإسراع، ورحت أخص الأرض بنفسي وما هي إلا طرفة عين حتى كنا قد اختطفنا من فوق ظهور الإبل فؤوسنا التي كانت معنا، وشرعنا نحفر في الرقعة وحفرنا ساعة بنشاط ولهفة، ولكننا اضطررنا إلى التخلي عن متابعة الحفر ولم نجن منه غير ازدياد أوار الظمأ، إلى جانب ما نالنا من تعب منها وإعياء شديد. وعمد جمالنا "هنجاء"، وكان خبيرا بحفر الآبار وعيون المياه – إلى خص التربة وما ظهر من اختلاف الوان طبقاتها، فقرر أن الماء إذا وجد لن يكون على عمق أقل من أربعين أو خمسين قدما. ومهما يكن من أمر فقد استقر رأينا على ضرب خيامنا

والمبيت في هذا الموضع، على أن نجدد المحاولة في الغد بعد أن نكون قد أخذنا نصيبنا من الراحة وأردنا الجمال أيضاً. فمواصلة السير مع احتمال العثور على الماء جنون مطبق، وإن يكن الأمل في وجود الماء ضعيفة للغاية.

دامت المحاولة الثانية مدة أطول من الأولى بقليل، ولكن سرعان ما صرفنا النظر عنها، إذ لم نكن قد حصلنا من ورائها على أكثر من بعض الطين الرطب أخذنا نمتص ما فيه من أثر الرطوبة خلال المناديل. على أن احتمال وجود الماء تحت أقدامنا حتى ولوكان على بعد آلاف الأميال كاد يخرجنا عن طور الاتزان والعقل. وبذلك تركز كل أمل في انفراج ما نحن فيه من كرب حول دليلنا الطاهر وصقر، فظلت عيوننا تتطلع في لهفة إلى عودتهما ولكن دون أن نعثر لهما على أثر.

أشرقت علينا شمس النهار التالي ولما يكونا قد عادا إلينا بعد، فرحلنا بهمة عن موضعنا. وما إن قطعنا بضع مئات من الخطوات من حيث خيمنا، حتى انعطف بنا الطريق إلى واد عريض معشب كثير النبات، فنزلنا به وانخنا الجمال لترعي. كانت بالوادي آثار لا حصر لها للإبل والماعز والحمير، ولكن لم يكن به أي أثر المخلوق واحد. وليس ثمة شك في أن الوادي كان مرعى خصيبة تنتجعه بعض القبائل الرحل، غير أنهم اضطروا إلى الرحيل عنه حالما نضبت عيون المياه ومسايلها بين الصخور، فكثير من الطرق التي شاهدنا آثارها كانت تؤدي إلى مواضع عيون الماء، ولكنها جميعاً كانت في حالة نضب وجفاف تام.

انقضت ثلاث ساعات على مسيرنا وإذا بصاحبينا يشرفان علينا وقد نال منهما التعب وأنهك قواهما، وكان منظرهما اليائس التعس يدل بما لا يدع مجالا للشك على أنهما أخفقا في مسعاهما، فقد ركبا مدة أربعين ساعة دون أن يتوقفا عن السير سوى مرة واحدة. وأفضى إلينا الطاهر بأنهما عندما وصلا إلى نهاية امتداد الوادي الذي كنا نضرب فيه، شاهدا بداية مغارة مقفرة مجدية لا أثر فيها الأقدام الإنسان أو أخفاف الإبل أو حوافر الحمير. فسألته عن الآثار الأربعة الحديثة نوعا، والتي كنا نتعقبها حتى التبست علينا معالمها عند رأس الوادي، لكثرة ما وجدنا به من آثار السائمة، فكان

رده غير مشجع، إذ كان يعتقد أنها ربما كانت آثار بعض اللصوص من فران.

كان صقر في حالة سيئة من الضعف والإجهاد، فما إن نزل عن ظهر الجمل حتى تمدد فوق الأرض فلم يسعنا إلا أن نحمله فوق ظهر أحد الجمال المخصصة للأمتعة، وعدنا على أعقابنا إلى حيث خيمنا في الليلة السابقة. كان هذا اليوم بالنسبة لنا يوما أسود مشئوماً، جاء في عقب بضعة أيام قطعنا فيها المفاوز على غير هدي. ولكن كان لزاما على أن أتظاهر بشيء من التفاؤل بقرب الفرج، فتحولنا بأفكارنا إلى اتجاه آخر لعلنا نجد لنا فيه مخرجا من المأزق اليائس الذي أحاق بنا.

عمدنا إلى الحفر مرة ثالثة محاولة منا في استنباط شيء من الماء ينفع غلتنا، ولكن الفشل لازمنا في هذه المرة أيضاً كما لازمنا في المرتين السابقتين، ولا غرو، فلو أن عصبة من الرجال الأشداء قاموا بالحفر أياما طوالاً لكان من المحتمل جداً ألا يصلو إلى الماء بتاتا حتى لو وجد الماء.

وفي العصر رجل الطاهر مرة أخرى على ظهر أقوى الجمال المخصصة الحمل أمتعتنا، مصطحبا معه مُحَمَّد للتنقيب في الهضاب والآكام المجاورة عله يهتدي إلى بئر أو عين ماء، واعدا بالعودة في الليل.

ومهما يكن من أمر فقد كنت اعتزمت إرسال الطاهر في صبيحة اليوم التالي بخطاب إلى قومندان القوة الرابطة في "دجانيت" أطلب إليه فيه أن يعمل على نجدتي. وقد كان على الطاهر أن يسلك طريقة من الطريقين اللتين كنت أعتقد أن واحدة أو الأخرى منهما لابد وأن تؤدي إلى الواحة، ثم يواصل السير حتى يعثر على أحد من الناس مهما يكن مبلغ الوقت الذي قد يستغرق في ذلك، فمن المحتمل أن تكون إحدى الدوريات قد أرسلت للبحث عنى فيلتقي بها مصادفة. ولكن عقدة المسألة كانت أي الطريقين يسلك؟ واستقر رأيي في النهاية على إرجاء البت في هذا الموضوع لحين عودته لاستطلع رأيه في ذلك هو أيضاً، فهناك طريقان على ما يبدو لي. أولهما العودة إلى مفارق آثار الدواب المتقاطعة، التي سبق لنا المرور بها في اليوم الرابع عشر،

ومن ثم نتجه شرقا إلى نهاية الطريق. وثانيهما أن نسير شمالا في اتجاه الناحية الشمالية الشرقية متتبعين آثارا لا تكاد تظهر معالمها، يبدو لي أنها بالغة بنا سلسلة جبال كانت تلوح لي من بعيد. وسواء سلك هذه الطريق أو تلك فالمسألة كانت مجرد استسلام للصدف. بيد أنه كان لابد من عمل شيء للخروج من هذا المأزق الذي نحن فيه، وكان أملي في مقدرة من بقي من رجال القافلة على اقتفاء خطوات الطاهر كبيرا.

كنت قد درست الخريطة حتى تورمت عيناي يمن الإجهاد. محاولا التعرف على بعض المعالم المدونة بها لعلني أجد بينها ما يمت بسبب إلى المعالم المحيطة بنا، ولكن كل ما استطعت أن أتبينه هو أن سلسلة الجبال المترامية أمامنا، قد يحتمل أن تكون السلسلة الموضحة على الخريطة باسم "تادنت" والتي بها عين ماء لا تنضب بأقصى طرفها الشمالي. وكان قد سبق لي أن سألت الدليل عنها ولكنه أجاب بأنه لم يسمع بهذا الاسم أبداً.

تقدم بنا الليل ولم يكن الطاهر ومُحَّد قد عادا بعد، فقلت لبراجى: أيقظني فور عودتهما لو حدث أني أكون قد أويت إلى خيمتي قبل ذلك.

على أني لم أجدهما قد عادا بعد، عندما استيقظت في الصباح، فاستغربت للأمر، وساورني القلق، إذ كنت أرغب في إرسال الطاهر على وجه السرعة في طلب النجدة، إذ كان ما تبقى لدينا من الماء لا يكاد يتجاوز نصف كوب لكل حصة، وقد يكفينا هذا القدر مدة خمسة أيام لو أننا خفضنا الحصص إلى أقل مما هي عليه الآن.

اكتشفت بعد ذلك أن الجمالين قد شرعوا في فصد عروق رقاب الجمال وامتصاص شيء من دمائها، فنهرتهم وشددت عليهم بوجوب الإقلاع عن هذا العمل لأنه مضعف للجال. ولأني لم أكن أرغب في اللجوء إليه إلا في حالة نفاذ ما معنا من الماء تماما، ويبدو أن هذه العملية مسألة عادية بين قبائل المرابطين عندما ينفذ ما معهم من الماء أثناء رحلاتهم الطويلة في جوف الصحراء.

عجيب ..! ما يستطيع الإنسان صرف النفس عنه عند اقتضاء الضرورة من

أشياء كان يعتبرها في الأحوال العادية من أمس الضروريات، ومما لا غنى له عنه. فالانصراف عن احتساء الماء في الصباح حتى هبوط الليل، قد أصبح الآن من الأمور الواقعية المعتادة. لذلك لم أفكر في توزيع الماء قبل نصب المخيم. وكان الغليون لي سلوة ورحمة فلم أفتأ أدخنه طيلة مسيرنا ذلك اليوم، كلما فرغت عبوءة أتبعها أخرى، متلهياً بذلك عن شدة ما أشعر به من الظمأ، ولقد جربت طائفة من الوسائل لتوزيع قدحي من الماء وهو كل حصتي اليومية على فترات تضمن لي أقصى ما يستطاع من الانتفاع والاستقلال به. فكنت في أول الأمر أضيف إلى الماء قليلا من كحول النعناع من زجاجة صغيرة جداً من ذلك السائل، كنت حصلت عليها عن طريق المقايضة في إفران نظير علبة المري (إنتاج مصانع كامبل) والواقع أنني قسمت حصتي في ذلك اليوم إلى ثلاث جرعات: جرعة احتسيتها بعد انتهائنا من ضرب المخيم، وجرعة لأحتسيها خلال فترة المساء بعد أن أكون قد تناولت قليلا من الطعام، والجرعة الثالثة كنت احتسيها بعد وجبة الإفطار الهزيلة. وكم من ليلة نازعتني فيها النفس إلى تجرع هذه الحسوة الأخيرة قبل موعدها المحدد، كلما استيقظت في جوف الليل وقد جف حلقي كأنه فرن يحمى فيه على الجير. وإنك لتحتاج في مثل هذا الموقف إلى قوة إرادة جبارة لتمنع نفسك من تجرع تلك الحسوة دفعة واحدة. وقد اكتشفت كذلك عن طريق التجربة أن احتساء هذه الجرعة بالملعقة، أبعد أثرا في تخفيف أوار الظمأ عما لو شربتها دفعة واحدة، ثم هي تكفيني لفترة أطول أمداً.

تحسنت حالة صقر بعض التحسن عقب نوم عيق طويل، ولكنه كان لا يزال يشعر بضعف شديد. ولقد اعترف "لبراجاى" بأن الدليل قد شجعه على احتساء بوله خلال الرحلة عندما نفذ ما كان معهما من الماء. ليس من شك في أن الدليل كان في مقدوره أن يأتي مثل هذا العمل، دون أن يناله من ذلك أذى أو شعور بوخامة العاقبة، فهو من ذلك الطراز الذي لم يكن يؤثر في صحته شيء إطلاقا –على حد ما كان يبدو لي– ولكن الأمر كان يختلف عن ذلك بالنسبة إلى صقر الذي لا شك عندي في أن اعتلال صحته كان في معظمه، نتيجة هذه العملية التي أغراه بالإقدام

عليها الدليل، مع علمه بما سوف يترتب على ذلك من أثر سيء لاعتلال صحته، ولم يسعني أمام ما حل بصقر إلا أن أشدد على الرجال بعدم الركون إلى مثل هذا العمل مهما يكن من تحرج الموقف ومهما يبلغ الإغراء.

كان الموقف لا يشعر بشيء من الارتياح. فمن نكد الطالع وسوء الحظ أن يكون صقر في مثل هذه الحال وأنا عاجز عن عمل أي شيء لإسعافه، وكل ما أستطيعه هو أن أتنازل له عن جزء يسير من حصتي في الماء، ومنحه علبة من اللبن المحفوظ وقليلا من الويسكي. ثم شرعت أوزع على الرجال جرعا صغيرة من الويسكي ليحتسوها قبل احتساء حصصهم اليومية من الماء. والواقع أن الرجال اغتبطوا بهذه الجرع من الويسكي ولما كانت تبعثه في نفوسهم من النشاط وتجديد القوى، إذ كانت حالتهم المعنوية قد بدأت تتدهور نظرا لشعورهم بأن الأمل في النجاة قد تبخر أو كاد، مع استثناء "براجاي" الذي كان ما يزال محتفظا بشيء من رباطة الجأش وثبات العزيمة. والحق أن تصرفه خلال الرحلة كاها كان مثالية، فهو لم يكف –رغم ما به من وصب وإعياء– عن تشجيع زملائه، مستنهض هممهم، متكلفة البشر والمرح حتى في أشد المواقف حرجا. إن لبرجاي في عنقي ديناً عظيماً لحسن ولائه وإخلاصه طيلة الرحلة.

تصرم النهار أو كاد، دون أن يظهر أي أثر للطاهر ومُحَمَّد، فأخذ القلق يساورني بصورة جدية، فإني كنت قد استمتعت سحايه النهار بقسط وافر من الراحة المنعشة أصبحت بعدها شديد الرغبة في استئناف السير من جديد، فمكثنا في المكان الذي نزلنا فيه رغم أنوفنا، مكتفين بالانتظار لحين عودة الطاهر ومُحَمَّد.

قضينا ليلة أخرى ونهارا جديدا دون أن يعود الرسولان، ما الذي أخرهما؟ وما عسى أن يكون قد حدث لهما؟ وما الذي يجدر بنا أن نعمله في هذه الحالة؟ أنواصل الانتظار حتى يعودا؟ أم من الأفضل أن نستأنف المسير دونهما؟

كنت أشعر أمام مأزقنا الذي نحن فيه بأنه لا مندوحة لنا من الانتظار، فالانتظار

هو كل ما نستطيع عمله الآن، فالناحية المادية تفرضه علينا فرضا. وما هي إلا نظرة إلى من معي من الرجال بوجوههم الشاحبة، وعيونهم الغائرة، وأجسامهم المهزولة، حتى أدركت أن الانتظار قد أصبح أمراً لا مفر منه. فلو افترضت إمكان قيامهم بحزم الأمتعة ووضعها فوق ظهور الجمال، وهي عملية شاقة مرهقة، فإني أرتاب كثيرا في قيامهم بها، وهم على ما هم عليه من الضعف. فإن قطع أي مرحلة مجدية أمر غير متوقع.

أقمنا حيث كنا منتظرين على الرغم منا. وكنا نأمل أن يكون الرسولان قد عثرا على أثر جديد يصل بهما إلى حيث يوجد الماء، على أننا كنا ما نزال نشعر في قرارة نفوسنا بأنهما قد لا يعودان إلينا. وقمنا ببعض رحلات استكشافية قصيرة المدى في اتجاه الناحية الشرقية ولكن بغير طائل، وكنا نخلد إلى الراحة لفترات قصيرة بين رحلة وأخرى من تلك الرحلات الاستكشافية، لما كان فيها من إجهاد يزيدنا ضعفا على ضعف. وكان من نعم الله أن وجدت بين مجموعة الكتب القليلة التي اصطحبتها معي مجلداً لمؤلفات شكسبير، ساعدتني القراءة فيه على الانتقال إلى عالم آخر يختلف كل الاختلاف عن حاضري.

انقضت ليلة أخرى دون أن يعود الرسولان وبذلك نكون قد دخلنا في اليوم العاشر لتاريخ اكتشافنا أننا قد ضللنا الطريق، أي منذ ١٩ يناير. وقمنا بعملية جرد دقيقة لجميع محتويات خزينتنا لعلنا نعثر على ما يصلح للشرب، حتى صندوق الإسعاف الطبي لم ينج من الجرد والتفتيش، ولكن جهودنا ذهبت مع الريح فلم أفز بأكثر من طعم كريه في فمي نتيجة تذوق لغالبية محتويات الصندوق، وشعور مضاعف بالظمأ. ولست أشك بعد اليوم في أن بلسم فراير إنما هو للاستعمال من الظاهر فقط.

انتعش صقر قليلا، وإن كانت صحته ماتزال أسوأ من صحة بقية رجال الفرقة وأكثرهم ضعفاً، وقد اقترح على أن أعطيهم شيئاً من صلصة وودستر ليضيفوها إلى طعامهم، تحسيناً لمذاقه دون أن يزيد ذلك من الشعور بالظمأ. وشد ماهالنى عند ما

شرعت أنتزع فدام القنينة، أن أجد نفسي عاجزا عن انتزاعها بقوة أصابعي وحدها... حتى إنني اضطررت إلى استعمال السكين لانتزاعها.

كنت أعلم أن حيويتي قد بلغت مبلغا غير يسير من الضعف ولكنني لم أكن أدرك أنها قد بلغت إلى هذا القدر.

وحينما ارتفع الضحى أرسلت هنجا إلى حيث كانت ترعى الإبل ليحضر إلى منها جملا أركبه لارتياد المنطقة واستطلاع ما حولنا. وقد كان "هنجا" هذا قد أظهر في الأيام الأخيرة شيئاً كثيرا –غير عادي– من القلق على مصير الإبل، وأخذ يهتم بأمر العناية بها بصورة غير عادية أيضاً، حتى إني كلما طلبته، قيل لي إنه قد ذهب لمراقبة الإبل والاطمئنان عليها. بيد أن الشك بدأ يخامرني في أمره، وسرعان ما تحول الشك إلى يقين بمجرد قيامي بفحص الأعناق الإبل. فقد اكتشفت بها ثقوباً عديدة، فكثرة تردده على الإبل لم يكن بدافع الشفقة عليها والرأفة بها. بل على النقيض من ذلك كان تردده عليها لإطفاء ظمئه، وأعتقد أني لاحظت أكثر من مرة بعض آثار قاتمة حول فيه.

ارتحلت على الجمل –أو على الأصح– مع الجمل، إذ منعني الخنزير ظهره، وقصدت هضبة تقوم إلى الجانب الشمالي، في اتجاه شمالي شرقي محاولا تسلق قمتها لأدرس السهول والوديان المترامية حولنا. فقيدت الجمل وتركته عند سفح الهضبة، وشرعت أتسلق جانبها الصخري، وهو شديد الانحدار، بيد أن المجهود كان مضنية إلى حد بعيد، فكففت عن المحاولة وأنا في منتصف الطريق ، استلقيت على ظهري مسرح البصر فيما حولي، ولكن عيني لم تقع على شيء ينبض بالحياة على طول امتداد البصر، سوى جملي وهو يرعى بعض النبات البري، وكان نذرأ يسيرا، وسوى بضعة طيور كانت تحوم حول الصخور، وما إن انقضى نصف ساعة وأنا في ذلك الوضع، حتى شعرت ببرودة الجو فشرعت في الهبوط إلى السفح، ومن ثم أخذت طريق العودة إلى المخيم. على أني لم أعد إليه مباشرة بل كففت عن متابعة السير وأنا منه على مسافة خمسمائة ياردة أو ستمائة، واستلقيت على الأرض لأستمتع بدفيء الشمس

خلف صخرة تقني من الرياح.

قضيت في موضعي هذا ساعة أو بعض الساعة وأنا أشد ما أكون اغتباطاً بابتعادي عن جو المخيم المقبض، محاولا أن أطرد من أفكاري خطر الظرف الدقيق المحيق بنا، وأنا أحلم يقظانا ببلاد عرفتها تزدحم بالناس والأشربة المنعشة التي طالما تذوقتها فيما مضى من الأيام، والتي كنت أزمع تذوقها في المستقبل، وبينما أنا مستلق على ظهري شاخص ببصري إلى القبة الزرقاء التي تظلني، رسمت في مخيلتي طريقا لحانة صغيرة على حافة إحدى الطرق الريفية في إنجلترا، لها باب ينحدر يوجه إلى ردهة تنخفض قليلا عن مستوى الطريق بطبقة على قدر كبير من النظافة، وقد نشرت فوق أرضها نشارة الخشب، ووضع فوق خانها "بارها" صف طويل من القداح، يعلوها زبد تحته أعماق من البيرة الصافية المثلجة. وعاهدت الله –وأنا على تلك الحال– إن كتب على الوصول سالما إلى مسرح المدينة والعمران أن أجوب شارعا من شوارع المدينة، وألا أترك فيه مكانا يباع فيه شيء من الأشربة إلا ودلفت إليه، واحتسيت مما يعرض فيه، سواء أكان ذلك الشراب جعة أو لبنة أو عصير ليمون. على أنني لم أف بالعهد، فالإنسان في حالة اليسر لا يقدر ما هو فيه من نعم حق قدره، وإنما ينظر إليه كما لو كان من الأمور العادية الرتيبة، لا غرابة فيها ولا جديد.

قطع على سيل تأملاتي وأحلامي حفيف شيء خفيف لطيف فوق الرمال، فالتفت فإذا بي أرى الورقة التي كانت تغلف زجاجة الصلصة التي كنت فضضت فدامها في الصباح. فتبادر إلى ذهني –ولعل ذلك ضرب من الوسواس– أن مجيء الورقة، محمولة على جناح الريح، إلى حيث أنا مباشرة إنما ينذر بوقوع حادث ما. فقررت العودة إلى الخيم من فوري، فلربما يكون الغائبان قد عاد بالماء، على أنى ما كدت أقترب من الخيم حتى تبين لي من هيئة الرجال – كانوا أشبه "بالموتى"– أن شيئاً جديدة لم يطرأ على الموقف.

أفاق برجاى وملام بمجرد وصولي، ونهضا لاستقبالي، فسألت برجاى عن صقر، فأجاب بأنه بخير، وبأنه ما يزال مستغرقا في النوم، فأخذت سمتي شطر جسر الجدول

الحالي من الماء، وصعدت إلى قمته ومعي ملاءة سرير بالية ممزقة، فنشرتها بين عصوين، إذ كان قد مر بخاطري وأنا في طريق العودة من التل، أن المخيم محجوت عن الأنظار إلى حد كبير. لأنه يقوم في مكان ينخفض عن جسر جدول الماء بنحو أربع أقدام أو خمس، فليس من السهل على المارين بالقرب منا –نسبياً– من ناحية الجانب الشرقي أن يرونا أو يشعروا بوجودنا.

وما إن فرغت من هذه العملية حتى أويت إلى خيمتي لأرقد قليلا، ولكن ما كدت أتهيأ للنوم حتى جاء في "برجاى"، وقال بلهجته الإنجليزية الركيكة: سيدي. أظن أن صقر قد انتهى. فوثبت قائمة لدى سماعي هذه العبارة، وقلت له ... ماذا تعني؟ فأجاب: أظن ذلك يا سيدي. فأسرعت إلى حيث صقر لأفحصه بنفسي، فوجدته حقيقة قد قضى نحبه، ولم تجد أية وسيلة أو محاولة لإسعافه، ولقد صببت بعض الويسكي غير الممزوج في فمه ولكن بغير طائل. والواقع أن موته على هذه الصورة قد أزعجني وأدهشني، إذ لم يكن قد خطر ببالي أن صحته قد اعتلت إلى مثل هذا الحد الخطير، وخاصة لأنه كان قد جرى صباح أمس حول المخيم، ليبرهن لنا على مبلغ تحسن صحته. والحق أنه كان يبدو في ذلك الصباح بعينه في صحة طيبة نسبية، بالقياس إلى الظروف التي كانت تحيط بنا.

سألت الغلامين الآخرين عما إذا كان قد دار في خلدهما أن حالته كانت تنذر بالخطر. ولكنهما أعربا هما أيضاً عن مثل ما اعتراني من الدهشة، كان صقر نائما وفوقه بطانية لغطائه فلما ظل على هذه الحالة فترة طويلة خلافا للعادة، كشف زملاؤه عنه فوجدوه قد فارق الحياة، وأسر إلى برجاى، بأنه رآه يعاود شرب بوله، فأخذ منه الإناء ونهاه عن ذلك. ولعل هذا مضافا إلى رحلته الشاقة المضنية في البحث عن الماء كان سبب هلاكه. ومهما تكن الأسباب فإن موته كان ضربة قاسية محزنة، لأنه كان من الطراز الذكي النشيط من الأهالي الوطنيين. له قدرة وجلد على العمل، لم تفسد طباعه زيارته الطويلة نسبيا إلى ربوع انجلترا، ولا حدت من نشاطه بالرغم من احتكاكه بالمدنية الغربية.

لم يكن بيننا أحد إلا شعر بالحزن العميق والأسف لفقدانه. وخاصة إذ كنا فئة قليلة العدد وفي مكان قفر موحش.

حفرنا لصقر قبراً فوق الجسر أضجعناه فيه على جانبه الأيمن في مواجهة المشرق وفقاً لتقاليد الإسلام، بينما قام ملام بقراءة شيء من آي الذكر الحكيم مستمطراً الرحمة على روح الفقيد، وهو في غاية الحزن، نظرا لأن صقر كان خله الوفي وصديقه الأمين. ووقف برجاى وهانجا إلى جانبه في أثناء تأبينه لصديقه.

تركت الجميع فيما هم فيه، وشرعت أحصي ما في جراب صقر. وما إن مضت بضع دقائق على ذلك، حتى سمعت "ملام" يصيح "دوبا باتورى ... دوبا باتورى .... دوكى مبدوبي ... أكوى موتانى[1]" فرجت لأحضر منظار الميدان، والواقع أن أشباح بضعة أشخاص كانت تقترب من ناحية الجنوب منحدرة مع قناة سيل الماء، ولكن بعد المسافة حال دون تميزهم بالعين المجردة، بيد أني ما كدت أدقق النظر بضع ثوان خلال منظار الميدان، حتى تملكتني رغبة شديدة في أن أقفز في الهواء من فرط فرحي. فقد كان الطاهر ومُحَمَّد عائدين ومعها رجل ثالث، علمت من وجوده معهما، ومن وجود جمل آخر غير جملهما، ومن انتفاخ جوانب الجملين – أنهما يحملان قرب المياه، فأيقنت أن محنتنا قد زالت وأن الشدة قد انفرجت. ومن عجب الأمور أن يأتينا الماء في لحظة لم تكن أفكارنا فيها متجهة نحو موضوع الماء، إذ كان مصابنا بفقد رجل من رجال القافلة قد شغلنا مؤقتا عن التفكير في أمر الماء، وكثيرا ما يكون الإنسان في انتظار وصول إنسان أو حدوث حادث بعينه فلا الحادث يحدث ولا الإنسان يصل، حتى إذا ما صرف فكره عن هذا أو ذاك وصل من لم يكن يترقب وصوله، وحدث ما لم يكن يتوقع حدوثه. ولقد كان من سخرية القدر أن يصل الماء بعد موت صقر ببضع ساعات فقط، على أني أشك كثيراً في احتمال بقائه على قيد الحياة حتى ولو كان وصول الماء سابقا لساعة وفاته.

---

[1] أي: انظر سيدي! انظر سيدي! أحضر منظارك الكبر. فهؤلاء قوم مقبلون.

دفعني منظر هذه القرب على ظهور الجمال إلى الإسراع للقاء الأشباح المقتربة، وما إن وصلت إليهم، حتى قفز مُحَمَّد إلى الأرض من فوره وناولني قرعة ماء عذب زلال، فشربت شربة، هي أول ارتواء كامل لي منذ عشرة أيام، وكنت أتوقع أن آتي على كل ما فيها، كما لو كنت مضخة ماصة ركبت فوق فوهة القرعة. بيد أني سرعان ما ازدريت نفسي لصغر حسوتي؛ إذ لم أكن بعد هذا كله قد استطعت أن أنقص من الماء في القرعة أكبر من عمق بوصتين عن مستواه الأصلي فيها. ولعل ذلك كان من رحمة الله بي، فقد كنت قبل ذلك بلحظات قصيرة أنصح الرجال بضرورة الترفق بأنفسهم، وعدم الاندفاع في احتساء الماء عند أول عهدهم به بعد هذا الحرمان الطويل، خشية سوء العواقب من الإفراط، والحق أنهم جميعاً تصرفوا بحكمة واعتدال، باستثناء هانجا الذي راح يعب الماء عبا بغير حساب. وكانت النتيجة أن لفظ جوفه في عنف ما أدخله فيه قسرا، مما جعل رفاقه يسخرون منه سرا، وخاصة أنه كان قد تصرف في الأيام الأخيرة تصرفا لا ينم عن شيء من صبر أو جلد. وكانت النتيجة أنه قضى الشطر الأكبر من يومه يتلوى من الألم تحت بطانيته يندب سوء مصيره.

لم نضيع الوقت سدى، فشرعنا نصب الماء في البرميل ، وأوقدت المواقد لغلي الماء وإنضاج وجبة ساخنة يطعمها الرجال، ولقدح من الشاي أشربه بعد طول الحرمان.

أثار قدح الشاي في نفسي شعوراً عميقاً بلذة لم أشعر بمثلها طيلة حياتي، فأغمضت عيني مستسلما وأخذت أدير حول لساني كل قطرة من الشاي في شغف بالغ، وكان ما أشاع الغبطة في نفسي منظر أولئك الرجال التعساء وهم يغيبون داخل أجوافهم بعض الطعام التافه، وقد ارتسمت على وجوههم سمات البشر والرضى والحمد. ويبدو أن الطاهر ومُحَمَّد كانا قد استقر رأيهما بعد مغادرة المخيم على العودة إلى تقاطع الطريق الذي خلفناه وراءنا. ومن ثم سلكا الطريق الشرقية إلى أن عثرا على آثار بعض الإبل متجهة صوب الشمال فاتبعوها. بينما هما يجدان السير وجدا رجلا

من المرابطين الملثمين يرعى إبله في منطقة بها عين ماء. تعرف باسم "طروادى"، فبعد أن أناخا جملهما وشربا واستراحا، ملأ ما كان معهما من القرب والمزادات، ثم أخذا في طريق العودة إلينا سالكين أقصر الطرق بفضل إرشاد ذلك المرابط من القبائل الرحل. فلو أننا كنا اتجهنا إلى الناحية الشرقية عند مرورنا بتقاطع الطريق السالف الذكر، لما قاسينا ما نسيناه من شقاء وحرمان. ولابد أننا مررنا بتلك العين في طريقنا، لا تبعدنا عنها سوى بضعة أميال. وفي هذا وحده دليل كاف على وجوب استخدام مرشد ماهر، له خبرة تامة بمواقع عيون المياه، إذ كثيرا ما تكون هذه العيون محجوبة عن النظر، لوجودها في الغالب الأعم إما بين الصخور، وإما في منخفض من الأرض. وبذلك يصبح من المحتمل جداً أن يمر بها الإنسان وهو على قرب بضع مئات من الأمتار منها دون أن يلمحها أو يحس لها وجودا، لجهله بمواقعها على وجه التحديد. وكثيرا ما توجد عيون لا تبعد الواحدة عن الأخرى بأكثر من بضعة أميال، فإذا نضب الماء في واحدة خلال مواسم الجفاف الطويلة فقد لا ينضب في الأخرى سريعاً. وإذن فلا غنى عن معرفة الموقعين معا معرفة تامة، ولقد قيل لي عندما وصلنا "دجانيت" بأن القومندان نفسه، مع خبرته التامة بطبيعة هذه المنطقة التي قضى بها ستة أعوام، لا يبرح مقره أبداً إلا مصطحباً معه مهرة الأدلاء.

لقد كان الظرف الذي مر بنا دقيقا قاسيا، وما إن قيض الله لنا الخروج من المأزق، حتى شعرت بأنه قد رفع فجأة عن كاهلي حمل ثقيل، عقب تلك الأيام العشرة التي توترت فيها أعصابنا إلى أبعد حدود التوتر، ولم يكن قد بقي لدينا من الماء يومئذ أكثر من كوب ونصف كوب لكل واحد منا، على حين أخذت قوانا تضعف سريعة. وكانت الأيام الثلاثة الأخيرة التي لازمنا فيها خيامنا منتظرين عودة الدليل ومحمد قد تركت في نفوسنا أسوأ الأثر. وأقلقت الرجال كثيرا، حتى إنهم سألوني أكثر من مرة "ماذا أنت فاعل أيها السيد؟" وهم رجال سذج بطبائعهم لا يمتازن عن كبار الأطفال في تصرفاتهم إلا قليلا. وكان أعجب ما في الأمر أنهم راحوا يكيلون إلي الشكر كيلا على إنقاذ حياتهم، بينما كنت أنا سبب بلائهم، لاصطحابهم معي إلى

تلك الأرض المقفرة الموحشة، وحتى لكأنما كنت أنا الذي أتاهم بالماء. وكان يبدو على "برجاى" يومئذ أنه كان أشد إشفاقا علي لحرمان من الماء من إشفاقه على نفسه لما كان فيه من الهم والبلاء، حتى إنه كشف لي في تلك الليلة عن دخيلة نفسه قائلا بلهجته الإنجليزية الركيكة: إنني أفكر أحياناً في أني لا أستحق أن تقع عيني مرة ثانية على وطني نيجيريا، ولكن ما أذكر قولك من أننا سوف نعثر على الماء من يوم لآخر، وبأن كل شيء سينتهي بالخير، حتى يحدثني قلبي بأني سوف أرى وطني نيجيريا مرة اخرى.

تلاشى تدريجيا شعور الحزن الذي كان قد غمر قلوب الرجال لفقد زميلهم، فهؤلاء القوم سريعو النسيان. وكان الأمر كما قال برجاى لملام وهو يعزيه ويواسيه: "إن الاسترسال في الحزن لا يجدي فتيلا" ولقد قال الله جل شأنه: "لكل أجل كتاب" وليس بعد قول الله شيء يقال. وسرعان ما سرى عنه، وراحوا جميعاً يأكلون ويسمرون ويتضاحكون حول نار عظيمة منعشة أوقدوها، بينما غمر ضوء القمر المخيم وكان بدراً تماما.

العالم الصامت

ج. ى. كوستو
بالاشتراك معفردريك دوماس

يعرف كوستو ودوماس في بعض الأوساط بأنهما أول "الأسماك البشرية"[١]، أما كوستو فضابط بمدفعية البحرية الفرنسية، أنعم عليه بنيشان كتيبة الشرف تقديرا لما أسهم به من نشاط في حركة المقاومة الشعبية إبان الحرب العظمى الثانية. وكثيرا ما وصف دوماس بأنه أعظم من في العالم كله خبرة بأساليب الغوص وفنونه، وهو مدني يشغل إحدى الوظائف الخاصة بالفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) في قسم البحوث المائية لما تحت البحر بالبحرية الفرنسية. وقد كتبت "راسيل كارسون"، صاحبة كتاب (البحر المحيط بنا). إننا ندين للكابتن كوستو بالشيء الكثير والعرفان بالجميل، فإليه يرجع الفضل في تحسين الوسائل والأسباب الممهدة لوقوف الإنسان على ما في عالم البحار من أسرار .... وإننا جميعاً سواء منا من نزل إلى أعماق البحار أومن اكتفي بقراءة ما كتبه الكابتن كوستو، لندين له بالشكر الجزيل على ذلك الوصف الرائع الذي ساقه لنا –والذي لم يسبق له مثيل– لما يراه الغائص في البحر من عجائب وما يشعر به من أحاسيس.

***

لم يكن أسوأ ما صادفناه خلال خمسة آلاف مرة غصنا فيها تحت الماء تجربة في بحر من البحار، ولكن في مياه عين تقع بكهف داخل البلاد، وهي عين ماء مشهورة بقرية فوكاوز قرب مدينة أفنيون. وهذه العين الشهيرة نبع هادئ يقع في حفرة تقوم

[١] وهو ما يعرف كذلك بالضفادع البشرية.

تحت هضبة جيرية يبلغ ارتفاعها ستمائة قدم فوق نهر سورج[1]، وتنبع من هذه العين على مدار السنة قطرات من الماء، حتى إذا جاء شهر مارس ثارت العين، وتدافع الماء منها أمر غيا بمقادير هائلة، تحول نهر "سورج" إلى طوفان جارف طوال خمسة أسابيع يهدأ بعدها ويعود سيرته الأولى. وقد تكررت هذه الظاهرة عاما بعد عام دون تغيير ولا انقطاع منذ عرف الناس التاريخ وسجلوا حوادثه.

وكان قد استوطن قرية أبت القريبة من العين بعد التقاعد أحد ضباط الجيش الفرنسي، اسمه القومندان "بروني"، استهوته العين السالفة الذكر، وجيرته ظاهرتها العجيبة، كما استهوت "بترارك"[2] قبل ذلك بستمائة عام. وسرعان ما اقترح القومندان على أولي الأمر استدعاء فرقة البحوث المائية؛ ليغوصوا في العين علهم يتوصلون إلى اكتشاف سر ظاهرتها.

وفي عام ١٩٤٦ رخصت لنا البحرية الفرنسية في القيام بهذه المحاولة، فسافرنا إلى اوز في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس، وهو وقت تكون العين فيه أكثر ما تكون هدوءً، إذ لم يكن هناك ما يبرر محاولة الاكتشاف في الوقت الذي تنور فيه ثائرة العين ويطغى ماؤها، طالما أن في الإمكان القيام بمحالة اكتشاف السر وقت الهدوء.

شرعنا ننزل إلى العين وأجهزة الغوص تضايقنا لنقلها، ولنا من الثقة في تأييد زملائنا ما يشجعنا ويحفزنا إلى المغامرة. وتلفتنا حولنا للمرة الأخيرة، ولمحت شبح الزميل "فارج" مما أشاع الطمأنينة في نفسي، ورأيت الجماهير وهي تتزاحم حول المسرح وفي مقدمتهم قديس شاب، جاء ولا ريب ليكون وشيك القيام بخدماته الدينية فيما لو طرأ علينا ما يقتضيها. وفيما نحن نغيب في الماء خف وزن حملنا،

---

[1] نهر حفير بفرنسا يخرج من عين ماء فوكلوز ويصب في نهر الرون وطوله ستة وثلاثون كيلومترا.

[2] شاعر إيطالي ومؤرخ بارز صرف جهودا مرموقة في البحث عن المخطوطات القديمة وكان في طليعة المجددين، نظم الشطر الأكبر من أشعاره بجوار عين فوكلوز متغزلاً في "لورادى نوف " الجميلة ولد في أريزو عام (١٣٠٤) ومات عام (١٣٧٤)

فتوقفنا لحظة دون حراك تختبر الأثقال وأجهزة الاتصال. وكان تحت قلنسوى المرنة أنبوبة خاصة للفم تمكنني من النطق تحت الماء. ولم يكن لدوماس مثل هذا التيسير، ولكن كان في مقدوره أن يجيبني بالإيماء وحركات الأيدي.

وليت وجهي شطر القاع وغطست إلى أسفل مارقا من الباب المظلم، وسرعان ما اجتزت التركيزة إلى القصبة، لا يساورني أدنى قلق من ناحية "دوماس" وهو يقتفي أثري متعلقا بطرف الحبل المشدود إلى خاصرتي على بعد ثلاثين قدما. فهو من المهارة في السباحة بحيث يستطيع أن يتفوق علي ويسبقني متى يشاء وكيفما يشاء. كان غوصنا من باب التجربة ليس إلا، إذ كنا باكورة سلسلة من الفرق، وكان رأينا قد استقر على عدم ضياع شيء من الوقت في درس التخطيط التفصيلي لطبيعة العين، بل نعمد من فورنا إلى الثقل الحديدي المثبت في طرف حبل النفجأة ونزحزحه حتى مرفق "سيفون نجرى" ومن ثم نسلك سريعا طريقا جديدة تصل بنا إلى الينبوع الخفي لنستكشف سره الغامض. وشعرت وأنا أستعرض ما مر بي بشعور خفي في عقلي الباطن القلق يدفعني إلى إنهاء الغوصة الأولى بأكثر ما نستطيع من سرعة.

التفت خلفي فلمحت "ديدى" يمرق في سهولة ويسر من الفجوة في مواجهة لجة مخضرة بعض الاخضرار. وحجبت عن أنظارنا السماء فلم نعد نرى شيئاً منها، إذ أصبحنا الآن في عالم لم ينفذ إليه شيء من نور قبل اليوم. وعجزت عن استبانة الضوء المنبعث تحتي من نور كشافي في هذه العتمة المخيفة، فلم يكن بالماء من ذرات تعكس الضوء على أن قرصا من النور كان ينعكس ضوؤه على صفحة الماء كلما وقع نور كشافي على صخرة من الصخور الناتئة الفينة بعد الفينة. وغصت رأسيا بسرعة تساعفني الأثقال، غير ملق بالا إلى " دوماس ". وففجأة وجدت ممسكا من خاصرتي وقد أخذت الأحجار تتناثر أمامي. ولما كان دوماس أعقل مني فقد أخذ يخفف من حدة سقوطه بقدميه. وكان لباسه للغوص قد أخذ يمتلئ بالماء، وكان بعض الكتل الضخمة من الصخور الجيرية قد انزلق من أماكنه وراح يتساقط من حولنا وله قعقعة كهزيم الرعد، وسقطت كتلة منه فوق كتفي وأدركت إدراكا غامضا أن علي أن أفكر

في الأمر ولكنني عجزت عن تركيز الفكر بحال من الأحوال.

وعندما وصلت إلى عمق تسعين قدما وجدت النقل الحديدي قائما فوق رف أو ما يشبه الرف، ولم يبد منظره تحت أشعة ضوء الكشاف كما لو كان من مكنونات هذه الطبقة المغمورة. وتذكرت بعد لأي وجهد أني كنت أزمع تحريك الثقل الحديدي فدفعته فوق المنحدر فامتزج دويه بدوي الأحجار المساقطة من ناحية "دوماس". ولم ألحظ خلال هذه الفترة أني فقدت لفة الحبال التي كنت أحملها فوق ذراعي، كما لم ألحظ أني قد سهوت عن أن أجذب طرف الحبل ثلاث مرات إيذانا "لفارج" بأن يزيد لي في حبل الأثقال، فقد نسيت "فارج"، وكل شيء آخر. وفجأة رأيت أن النفق ينتهي بانحدار حاد. فبسطت ذراعي اليمني متحسسا ما حولي بصورة مستمرة وفي حذر شديد، مسلطا نور الكشاف في حلقات دائرية على الجدران النظيفة اللامعة، بينما كنت أواصل المضي في سباحتي بمعدل عقدتين في الساعة. ولقد خيل إلى كما لو كنت أسير في نفق بباريس، على أني لم أصادف أحدا في "المترو"، فلم أر سمك الصخور، بل لم يكن هناك شيء من السمك بتاتا.

في مثل هذا الوقت من العام، تكون آذاننا قد تعودت احتمال الضغط وتدربت على ذلك عقب غوصنا طيلة فصل الصيف. ولكن لماذا تؤلمني أذناي كل هذا الألم؟ لابد أن يكون قد حدث شيء ما. لم يعد كشافي يسطع فوق جدران النفق، ولكن فوق قعر مسطح تكسوه الحصباء. كان ما تحت قدمي من طين لا من صخر. لقد كنت أقف فوق أرض كهف فسيح مفرق. وهنا وجدت الثقل الحديدي، ولكن لا أثر للقارب المصنوع من الزنك، والذي كان قد ألقي به في العين، ولا للسيفون، ولا لشيء من الصخور التي كانت قد تهاوت متأرجحة متناثرة من قبل. لقد جردت من كل حافز.

وجهت اهتمامي بعد ذلك إلى غرضنا الأساسي، وهو درس جغرافية هذا الكهف الفسيح الأرجاء والأطراف، والذي ليس له سقف يرى ولا جدران ولكن يمتد منحدرا إلى أسفل في زاوية قطرها خمس وأربعون درجة أو قرابتها، وبديهي أنه لم

يكن في استطاعتي أن أطفو قبل أن أبحث عن السقف لتحديد الفجوة التي تؤدي إلى الكهف الداخلي، قياسا على النظرية التي تبناها.

تذكرت أنني كنت مشدودة إلى شيء ما، ولم ألبث أن استبنت على ضوء نور الكشاف حبلا ملتويا ينتهي طرفه إلى شبح غريب يطفو منبطحا فوق الحصى. لم يكن هذا الشبح الطافي سوى "دوماس" في بدلة غوصه ومعه آلات ومعدات الثقيلة العائقة، وبيده كشافه، كأنه دودة مضيئة مضحكة الشكل. لم يكن شيء يتحرك من أعضائه سوى ذراعيه. كان يحاول وهو أقرب إلى النائم منه إلى المتيقظ، أن يربط فأسه الصغيرة إلى حبل الثقل الحديدي، وكانت بذلة "الغوص" السوداء التي يرتديها قد أخذت المياه تتسرب إليها وتملؤها. كان يناضل جاهدا في فتور ووهن لملأها بالهواء المضغوط، فسبحت إليه مسرعا، ونظرت في مسجل الأعماق الذي يحمله، فوجدته يشير إلى أننا على عمق مائة وخمسين قدما. غير أن المياه كانت قد غيرت هذا العداد. فمامن شك أننا كنا وصلنا إلى عمق أبعد غورا ما سجله. لقد كنا على عمق لا يقل مداه عن مائتي قدم من سطح الأرض، فوق قاع نفق منحدر في التواء والتفاف.

غشيتنا نوبة من نشوة الأعماق، ولكنها تختلف عن النشوة المعتادة. فشعرنا بفتور وقلق بدلا من أن نشعر بمثل نشوة الخمور. وكان دوماس أسوأ مني حالا، ومن ثم أخذت أفكر على الوجه الآتي:

ما كان يجب أن أشعر بمثل ما أشعر به وأنا في هذا العمق ... لا يمكن أن أعود مالم أتأكد من معرفة هذا المكان وطبيعته. لماذا لا أحس بالتيار؟ إن الحبل المشدود إلى طرف النقل الحديدي هو كل ما لدينا من دليل نهتدي به في طريق العودة .. ماذا لو فقدناه؟ وأين الحبل الذي كنت أحمله فوق ذراعي؟ بيد أن استطعت في هذه اللحظة أن أتذكر أني فقدته في مكان ما عند مستوى أكثر ارتفاعا.

أمسكت دوماس من يده وأطبقتها حول حبل الاسترشاد وصرخت قائلا: "ابق

هنا إلى أن أبحث عن مسقط العين" توهم دوماس أنني قلت له إنه ليس لدي هواء للتنفس وأنني بحاجة إلى رئة الأمان المائية. سلطت نور الكشاف على ما حولي على أهتدي إلى الكشف عن سقف الكهف ولكن عبثا حاولت.

كان دوماس في شبه سبات يعاني فتوراً ووهناً كالذي يحدثه المخدر القوى، إلا أنه كان يتوهم أنني أنا المهدد بالخطر لا هو. فراح يعمل جاهدا على إعداد رئة الطوارئ لإسعافي، وبينما هو يحاول جذب الرئة من حزامه إذ انزلق فوق الحصى المغمور فأفلت من يده طرف الحبل المرشد إلى الصعود. اختفى الحبل في الظلام، وقد كنت في هذه اللحظة أسبح فوقه باحثا في إصرار عن حائط أو سقف، حينما شعرت بثقله يجذبني إليه وكأنه هلب عائم يكتسحه التيار فعاقني عن مواصلة البحث.

كان فوقنا في جهة ما نفق يمتد نحوا من سبعين قصبة إلى جانب طائفة من الصخور المتساقطة أو المتداعية للسقوط. واستطعت أن أتصور بعقلي المجهد المكدود مصيرنا الحتمي. فما إن ينفذ ما معنا من الهواء حتى نكون قد أخذنا نزحف نحو السقف ونموت اختناقا، بعد أن نكون قد قاسينا من ضروب الألم والعذاب ما لا سبيل إلى وصفه. بيد أني استطعت أن أطرد هذه الصورة من مخيلتي، وانحدرت سابحا صوب النور المنبعث من كشاف "دوماس".

كان دوماس قد فقد الشطر الأكبر من وعيه، فما إن لمسته حتى أمسك معصمي بقوة جبارة وجذبني اليه ليعانق عناق الوداع قبل مفارقة الحياة نهائيا. عناقاً كان لابد أن يقضي علي قضاء مبرماً، إلا أنني تلويت حتى استطعت أن أتملص من قبضته مبتعدا عنه، ثم شرعت أفحصه على ضوء كشافي فرأيت عينيه من وراء قناعه جاحظتين تدوران بين أجفانه.

كان السكون يخيم على الكهف فيما بين فترات شهيق المتعسر، فاستجمعت كل ما بقي لي من قواي العقلية للتأمل والتفكير في موقفنا هذا. ولحسن الحظ لم يكن هنالك تيار، وإلا لجرف دوماس بعيدة عن الثقل، إذ لو كان هناك أي تيار لكان

هلاكنا أمرا محققة. وإذا لابد من أن يكون الثقل في مكان غير بعيد من مكاني، فأخذت أبحث عن هذه الكتلة الصدئة من الحديد وقد أصبحت عندي أغلى من الذهب الإبريز، وفجأة وجدت الكتلة الجامدة المطمئنة، وقد انحرف حبلها في هذا الظلام الدامس صوب الأمل، الأمل في الحياة.

كان ديدي –في أثناء ذهوله واسترخاء عضلاته– قد فقد سيطرته على فكيه، فانفلت مبسم الجهاز الخاص من بين أسنانه، ومن ثم ابتلع قدرة من الماء تسرب جزء منه إلى رئتيه قبل أن يتمكن من استعادة المبسم إلى فمه. والآن وحبل الإرشاد يدعونا، أدركت من فوري أنني لن أستطيع أن أسبح صاعدا وأنا أحمل دوماس الفاقد الحركة والذي لم يكن ليقل وزنه بعد أن تسرب الماء إلى بدلة غطسه، عن خمسة وعشرين رطلا لا سيما أنني كنت في حالة إعياء من التأثير الغامض الذي أحدثه الكهف في كياني، فنحن لم نجد أنفسنا الإجهاد كله، ومع ذلك فقد كان دوماس مشلول الحركة، بينما كنت أنا في ذهول أشبه ما يكون بحيرة الغبي أو المعتوه.

لابد لي من تسلق الحبل جاذباً دوماس معي، فأمسكت بحبل الثقل وشرعت في التسلق يداً فوق يد بينما كان دوماس يترنح بين الصخور العمودية في الطبقة السفلية.

بيد أن جذباتي الثلاث الأولى للحبل –وأنا أتسلقه– قد أولها "فارج" بالعلامة المتفق عليها وهي أن يمد لي في الحبل، وقد كان على حق فيما ذهب إليه من التأويل، وسرعان ما مد لي أطوالا من الحبل بعد أطوال في عزم وإصرار، فهالني الأمر واستولى على اليأس بسبب هذه الظاهرة وليدة سوء الفهم، فضاعفت من نشاطي باذلا من الجهد ما لا يستطيعه بشر لتسلق الجبل الممدود في استرخاء مقنط. ولكن " فارج، واصل إمدادي في سخاء بأطوال من الحبل كلما شعر بجذبي له، ومرت في دقيقة كأنها دهر محن وبلاء شديد، قبل أن يبدو لي وجه الحيلة، وهو أن أواصل جذب الحبل الذي ما يزال , فارج، يدليه لي.. حتى إذا قارب نهايته في يده منعه عني. فما من شك في أنه لن يترك الحبل يفلت من يده إذا انتهى إلى طرفه. ومن ثم أخذت أجذب

الحبل في غبطة فاترة عرجاء.

مر من بين يدي على هذا المنوال أربعمائة قدم من الحبل، تتراكم ملتوية ملتفة إلى أن وقعت يداي على عقدة فيه، فأدركت أن "فارج" ما برح يزيد لنا فيه حتى يتسنى لنا في النهاية ولوج ساحة "فوكاوز، فوصل الحبل بآخر في مهارة ودقة تشجيعا على الاسترسال في التعمق.

نبذت الحبل كأنه عدو لدود، وأيقنت بأنه لا مفر من تسلق النفق المنحدر كما يتسلق الإنسان جبال الألب،. فأخذت أصعد فيه شبرا شبرا، متعلقا بكل موقع من الصخر استطعت إطباق أصابعي عليه، وأتوقف استجماعا لقواي كلما انقطع انسجام أنفاسي اللاهثة من الإجهاد والإعياء، أو كنت على وشك الإغماء. ثم لم أنفك أتحامل على نفسي مواصلا التصعيد في النفق، وشعرت أني قد أحرزت بعض التقدم، فمددت ذراعي وأنا على أطراف قدمي لأقبض بيدي على نتوء صالح استعين به، ولكنه استعصى عل أصابعي فانجذبت إلى أسفل بفضل ثقل دوماس.

حولت الصدمة تفكيري إلى الحبل من جديد، وتذكرت بعد لأي في اللحظة الأخيرة أن الإشارة المتفق عليها فيما بيننا لإخراجنا وإخراج كل شيء معنا من الأعماق، هي ست جذبات، فسارعت إلى جذبه، وأنا على يقين من أتى مستطيع أن أعد ست جذبات دون أن أخطئ.

وبديهي أن الحبل كان قد التفت أجزاء من أقدامه الأربعمائة حول بعض العوائق الناجمة عن نتوء في الصخور هنا وهناك، ماذا بك يا "فارج"؟ أما تفهم الموقف؟ خارت قوتي أو كادت وكان دوماس ما يزال متعلقا في. لم لا يفهم دوماس مدى الضرر الذي يسببه لي؟ دوماس. أنت مائت لا محالة، ولعلك الآن في عداد الأموات بالفعل. ديدى. إنني أكره أن أفعل بك هذا، ولكنك قدمت، وأنت تعوق بقائي على قيد الحياة. إليك عنى يا ديدي. ومددت يدي إلى المدية المعلقة بحزامي، وتأهبت لقطع الحبل المتصل بيني وبين دوماس.

وحتى في ساعة انهياري ويأسي، كان هناك شيء خفي ألصق الخنجر بجرابه قبل أن أقطع الحبل الموصول بيني وبينك يا ديدى، سأحاول الاتصال "بفارج" مرة أخرى. أمسكت بالحبل المتدلي ورحت أجذبه مكرراً إشارة الخطر مرة بعد أخرى. أي ديدى. إنني باذل كل ما في استطاعة أحد من الناس أن يبذله من جهد. إنني مائت أنا أيضاً.

وقف فارج على الشاطئ تراوده الحيرة وهو يحاول تركيز تفكيره، ففرقة الغطس الأولى لم تمض عليها في العين بعد الفترة المقررة حسب الخطة المرسومة، ولكن هذه الإشارات الغريبة قد أزمته وأقلقته، لا سيما أن يده القوية الحساسة القابضة على الحبل لم تحس بإشارات واضحة جلية منذ الحادث السابق على هذا ببضع دقائق حينما طلبنا منه فجأة مزيدا من الحبل، لقد استجاب لنا حينئذ من فوره، وأعطانا ما طلبناه مضيفاً سبباً جديداً في الحبل، قائلاً لنفسه: لابد أن يكونا قد عثرا على شيء ضخم في هذه الأعماق، وكان هو نفسه شديد الرغبة في الكشف عن هذا السر الغامض عندما يأتي دوره للغطس في العين. على أن شعور القلق لم يفارقه بسبب ما لاحظه من عدم تسجيل الحبل لأي حركة حية خلال بضع الدقائق الأخيرة، فزوى ما بين عينيه، وقطب جبينه، وأخذ يتحسس الحبل بأصابعه، كمن يجس نبضه، وراح ينتظر نتيجة الأمر. سرت في الحبل إلى أعلى طيلة الأقدام الأربعمائة عبر الصخور التي كان يحتك بها ذبذبة ضعيفة واهية دغدغت أصابع فارج، ترتب عليها أن هب واقفا وهو يزمجر، مخاطب نفسه حينا وحينا جمهور المتتبعين لسير العملية على الشاطئ. ما الذي أخسره؟ ولأي شيء أتعرض اللوم والتثريب؟ وشرع من فوره يجذب الثقل الحديدي في عزم وإصرار.

أحسست بالحزام يشتد حول خاصرتي، فرفعت يدي عن قبضة الخنجر وأمسكت بالحبل، كانت أنبوبة الهواء المرفقة بجهاز دوماس ترتطم بالصخور ونحن نجذب إلى أعلى بصورة سريعة، ولمحت بعد ارتفاعنا نحو مائة قدم نورا ضئيلا أخضر مثلث الشكل، فأيقنت بالفرج وانكشاف الغمة. وفي أقل من دقيقة كان فارج قد جذبنا من الغور إلى البركة، وقفز في الماء لنجدة دوماس، إذ كان بلا حراك. وأسرع

إلى تيبه وبينار خائضين في الماء ... استجمعت ما بقي لدي من قوة للسيطرة على مشاعري، حتى لا أفقد توازني. واستطعت أن أخرج من البركة أما دوماس فقد انبطح على بطنه وأخذ يتقيأ، وسارع أصدقاؤنا إلى خلع ملابسنا المصنوعة من المطاط، ثم أخذت مكاني أمام موقد الغاز المتأجج الماسة للدفء، بينما انهمك فارج ومعه الطبيب في إنعاش دوماس. وما إن انقضت خمس دقائق حتى كان على قدميه بجانب المدفأة، فناولته زجاجة من البراندي نهل منه نهلته ثم قال "إنني سأغطس من جديد" وتساءلت: أين سيمون؟

أجاب العمدة على سؤالي بقوله: حينما انقطعت فقاقيع الهواء عن الظهور فوق سطح الماء هرولت زوجك هابطة من التل وهي تصرخ بأنها لا تستطيع البقاء أمام هذا المنظر. مسكينة سيمون! إنها جرت إلى إحدى المقاهي القروية في ... "فوكانو"، وأمرت لها بمشروب قوي من الكحول لتهدئة أعصابها. وسرعان ما أذاع أحد مروجي الشائعات بين الناس أن أحد الغواصين قد غرق، فصاحت به سيهون: أيهما؟ ما لون قناعه؟

فأجاب المروج: " أحمر.

تنفست سيمون الصعداء إذ كان قناعي أزرق اللون، ولكن سرعان ما تذكرت "ديدى" صاحب القناع الأحمر فتبخرت فرحتها، واختفت بشاشتها، ثم أخذت طريقها صوب العين كرة أخرى ساهمة شاردة للب، وإذا "بديدى" واقف أمامها فكأنها تشاهد حدوث إحدى المعجزات.

زال شحوب دوماس، ودبت الحياة قوية نابضة في جسمه، بفضل قدرته البالغة على استعادة حيويته وصفاء ذهنه، فأراد أن يقف على سر ما اعترانا من التخدير ونحن في الكهف المغرق تحت الماء. وفي العصر استعد فريق آخر للنزول إلى الكهف، مكون من تيبه وجى موراندبير بدون أن يحملا معهما الأجهزة الثقيلة التي حملناها في غطستنا. وكان كل ما ارتداه الغطاسان ملابس داخلية طويلة، وزودا بأثقال بسيطة ما

أشاع فيهما المرح والنشاط. وكانت الخطة التي رسماها تتلخص في الغوص مباشرة إلى الكهف المغرق للاستطلاع والكشف عن الممر المؤدي إلى سر "فوكلوز"، وبعد أن يعثرا على الممر يعودان فوراً إلى الشاطئ لرسم خريطة لجغرافية المكان ليهتدي بها الفريق الثالث عندما يقوم بالغطسة الاستكشافية النهائية.

وأنا مستطيع أن أروي لك تجارب الكابتن تييه ومورانديير، في هذا الينبوع، نقلا عما سجلاه في يومياتهما، وهي تكاد تضارع ما قاسيناه هولاً وبلاء.

فلا جدال في أن ولوج الينبوع الذي قدر لنا لحسن الحظ أن ننجو بحياتنا منه، مغامرة جريئة تتطلب الشيء الكثير من الشجاعة والإقدام.

وكان "مورانديير" في أثناء فترة التعرف مع صاحبه على طبيعة الغدير تحت سطح الماء، قد استشعر شيئاً كثيرة من برودته، على أنه اقتحم هو وزميله مدخل النفق بصدريهما يلفهما معا حبل واحد، وكانت الخطة الموضوعة لها، بوصفهما الفريق الثاني في ترتيب الغطس، تقضي عليهما بالسباحة جنبا إلى جنب بحذاء السقف.

وكان عليهما أيضاً كلما صادفا نتوءاً بارزاً من السقف متجهاً إلى أسفل، أن يتجنباه بالمروق من تحته، مع اقتفاء دوران السقف عن كثب. وكان كل نتوء يصادفانه يشعر بأنه سينكمش ويتقلص بعد مسافة قليلة، فيتساوى مع سطح السقف، ولكنها كانت ظاهرة خادعة لم تتحقق.

ظل صاحبانا يتعمقان في غوصهما غير مستعينين بمقياس الأبعاد تحت الماء لتلفه، على أن تبديه العجوز كان له إحساس فسيولوجي حاد يمكنه من تقدير عبق المسافات ويغنيه عن العداد المسجل، فما إن بلغا من العمق مائة وعشرين قدما حسب تقديره حتى كف عن متابعة الغوص، ليختبرا تأثير العمق على أحاسيسهما الباطنية. وكان أن شعر تييه بمقدمة ما يحدثه الذهول في الأعماق من خفقان. بيد أنه كان يعلم أيضاً أن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تعتري الغواص على عمق بسيط لا يتجاوز عشرين قصبة (١٢٠ قدما) إلا أن الأعراض كانت ماثلة بأجلى معانيها.

أشار إلى "موراندير" بما يفيد وجوب العودة، فأخذ هذا الأخير -ومعه الحبل- وضعاً يسهل على زميله مناورة الاستدارة. وفيما هو يفعل ذلك سمع تنفس "تييه" شاقاً عسيراً، فواجهه لكي يراه زميله وهو يجذب حبل الثقل الحديدي ست مرات. وبما أنه لم يكن في مقدورهما التخاطب تحت الماء،

فقد اضطرا إلى الاعتماد على الإشارات الضوئية بكشافيهما للتفاهم. ومن ثم وضع "موراندبير" نفسه تحت جسم " تيه" ليساعد الكابتن على الطفو إلى سطح الماء. بيد أن "تييه" ترجم نشاط زميله هذا بأن موقفه قد تحرج، وبأنه في خطر. فقد كان كلاهما على وشك الدخول في غمرات الذهول والنشوة التي تعتري الغواص في الأعماق، والتي كادت تقضي على الفريق الأول.

تسلق "تييه" حبل الإرشاد بعناية، بينما انساب الحبل الخلفي في الماء على غير هدى، إلا أن عقدة منه التفت حول كتفيه، فشعر بأنه لابد من قطعه قبل أن يشل ذراعيه ويعوقه فاستل خنجره وبتره. وخشى "موراندبير" — وهو يسبح تحت زميله بسهولة ويسر أن يكون "تييه" قد أشرف على الإغماء. ولكن سرعان ما طفر فريق حملة الاستكشاف الثانية إلى حيث الضوء الأخضر الذي يبدو في وسط البركة. وفي الحال تقدم "موراندبير" وأمسك بقدمي "تييه" ودفعه دفعة قوية خلال الفجوة الضيقة. وقد ترتب على هذا المجهود الذي بذله موراندبير أن اختلت دورة التنفسية.

رأينا "تييه" في ملابسه الداخلية البيضاء وخلفه "موراندبير" يلجان الفجوة التي تحت الماء. وما هي إلا لحظة قصيرة حتى كان تييه قد طفى إلى سطح الماء متحسسا موطئة لقدميه، ثم خرج إلينا من البركة ماشية منتصبا وفي عينيه نظرة ذهول شاردة، وفي يده اليمنى خنجره، وقد أمسك به مقلوبة فاخترق النصل لحم أصابعه حتى العظم، والدم يسيل على ملابسه الداخلية الصوفية المبتلة. ولكنه لم يكن يشعر بجراحه البالغة في ذلك الحين. استقر عزمنا على أن نختم عمل هذا اليوم بغوصة سطحية لرسم خريطة تخطيطية المدخل العين. بيد أننا استوثقنا سلفا من اتخاذ كل ما يجب اتخاذه من التدابير لمنع وديدي من محاولة التسرب إلى الكهف المغرق، لما كان

يجده في نفسه من الثورة على هذه العين التي كادت تكون مقبرتنا، فعقد فارج طرف حبل طوله مائة وخمسون قدما فقط حول خاصرة دوماس، ونزع عنه خنجره حتى يضمن عدم بتره لحبل التعمق إلى أبعد من هذه المسافة. تمت عملية الغوص النهائية للاستطلاع، فيما يتعلق بالمدخل إلى العين في الأعماق دون وقوع حادث غير عادي.

كان يومنا مثيراً حقاً، وفي المساء قرر الفريقان الأول والثاني القيام مقارنة ذاتية بين النشوة المخدرة المترتبة على شرب الكونياك، والنشوة المخدرة التي امتحنوا بها في الأعماق. لم يستطع أحد منا أن يخلد إلى الاستجمام؛ إذ شغلنا التفكير في أمر ما اعترانا من التخدير المذهل في العين. فقد كنا على علم تام وخبرة واسعة بأحوال النشوة المثيرة للهمم، التي يشعر بها الغواص عندما يصل إلى عمق مائي قدم تحت سطح الماء في البحر، ولكن ما هو سبب تجرد الإنسان من قواه العقلية بصورة مختلفة كل الاختلاف في هذه المياه الصافية الجيرية التي لا روح فيها ولا حياة؟

ركبت وبصحبتي زوجي "سيمون" والزميل "ديدى" عائدين إلى طولون[١] في تلك الليلة ونحن نفكر تفكيرا عميقا، على الرغم مما كنا نشعر به من الإعياء والدوار، فلم تقطع فترات الصمت الطويلة التي أخلدنا إليها سوى بعض ما كان يعن لنا من الاقتراحات بين حين وآخر. قال "ديدى" ليس شعور التخدير الذي يعتري الغواص، هو وحده سبب الحوادث المؤلمة، فهناك إلى جانب ذلك عوامل أخرى، منها ما ينسب إلى المخاوف الاجتماعية والذاتية، ومنها تأثير نوع الهواء الذي يتنفسه الغواص. ووثبت إلى الفكرة الهواء الذي يتنفسه الغواص فقلت:

"هلم نحلل ما بقي في رئاتنا من الهواء".

وفي صبيحة اليوم الثاني اختبرنا أنابيب التنفس في المعمل، فتبينا من نتيجة التحليل وجود ١/٢٠٠٠ من غاز " أول أكسيد الكربون"، ومن خصائص هذا الغاز

---

[١]إحدى موانئ فرنسا ومن أكثر ما أهمية.

أن تأثيره يزيد ستة أضعاف على عمق مائة وستين قدما. ومعنى هذا أن الكمية التي استنشقناها منه، تكفي للقضاء على الإنسان في فترة لا يتجاوز مداها عشرين دقيقة، وبإجراء التجربة بواسطة جهازنا الجديد المزود بكباس من نوع الديزل، رأينا الكباس يمتص في أنبوبة العادم غاز يتقد. لقد كنا تتنفس جرعات من أول غاز أكسيد الكربون القتال.

الهنود

جورج. أ. كستر

كان الجنرال جورج أرمسترنج كستر (١٨٣٩ – ١٨٧٦) كما يعرف جميع طلبة المدارس الأمريكية، أو غالبيتهم، ضابطا بسلاح الفرسان، بهي الطلعة، غض الشباب، مقداما، خرج من الحرب الأهلية لامع الشهرة ذائع الصيت، عصر الحياة، ونال منها صفوها، أو هكذا كان يبدو للناس. وقد عكف في أوقات فراغه، إبان سنوات طويلة، على كتابة مؤلفه الذي أخرجه للناس عام ١٨٧٤ تحت عنوان "حياتي في السهول"، وهو بعينه المؤلف الذي اقتبست منه القصة الموجزة الآتية: في عام ١٨٧٦ صدرت الأوامر إلى كستر والفرقة السابعة بمهاجمة قبائل السيوكس في مقاطعتي منتانا وداكوتا. وكان وصول كستر وفرقته إلى ملتقى نهري القرن الكبير، والقرن الكبير الأصفر بمقاطعة ومنتانا، في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو. وفي اليوم التالي تقدم بفرسانه في ثلاثة طوابير ليحوط العدو الذي كان يفترض أنه فئة قليلة من الهنود. ولكنه ما لبث أن هاجمه الهنود بمجموعهم الكاملة ، وحلت الكارثة (بسبب معلومات سلاح المخابرات الخاطئة). هجم "كستر"، وطابور القلب على الهنود فأبيد عن آخره وكان عدده ٢٦٥ فارسا. وقد عرفت هذه الموقعة فيما بعد باسم (موقف كستر الأخير).

***

لم يحدث شيء يعوق مسيرنا من المعسكر إلى "شرم بيفر" حيث كان الأمير الاي "وست" والضابط "روبنز" قد خيما معا بقواتهما أثناء الليل. وفي اليوم التالي نهض هذا الأخير مع طلوع الفجر لمواصلة المسير بكتيبته صوب "حصن ولاس" إذ كانت قافلة العربات، موضوعة تحت حراسته. وفي نفس الوقت أرسل الأمير الاي "وست"

سريات من الكشافة لتجوب المنطقة جيئة وذهوبا بحثا عن الهنود.

لم تكن الكتيبتان حتى ذلك الوقت قد ترامى إلى علمهما شيء عما انتواه الهنود خلال الساعات القليلة السابقة، من اتخاذ موقف عدائي حيالها. وكانت التعليمات الصادرة إلى الأمير الاى "وست" تقضى عليه بدراسة الموقف، وتفترض احتمال موقف سلبي من جانب الهنود إذا ما ساقته الصدف إلى مقابلتهم في الطريق. لم يحدث للقافلة ولا لحرسها ما يعوق مسيرها إلى حصن ولاس. وكان الحادث الوحيد الذي يستحق الذكر، ملاحظة أبداها كومستوك، دلت الحوادث فيما بعد على مدى خبرته الدقيقة بطباع الهندي وعاداته.

وكانت كتيبة الحرس تسير فوق سهل بديع مستو، فلا نبكة ولا نجوة تعكر استواء سطحه البعيد الأكناف والأطراف الأميال عديدة من جميع جهاته، حتى ليبدو للعين غير الخبيرة بطبيعة السهول أنه ليس بأطرافه هوة يستطيع عدو مختال أن يحتجب عن الأنظار فيها أو وراءها، فقد كان هذا السهل يبدو ظاهرا مفتوحا على طول امتداد البصر لأميال وأميال من أي جهة نظرت إليه. بيد أن الواقع كان يختلف عن ذلك بعض الاختلاف. فالأودية كبيرة كانت أو صغيرة، يستطيع الفاحص المدقق أن يستوضح منها معالم قد لا تحيط بها النظرة العابرة لأول وهلة. وكانت أطراف هذا السهل تمتد إلى الطريق التي كانت القافلة تسلكها. ولو أنك تتبعت هذه الأودية وتعقبت مسالكها لوجدتها تزداد عمقا كلما توغلت فيها إلى مدى غير محدود، حتى تنتهي في واد من أودية جدول أو مسيل ماء.

وهذه الأودية هي بعينها المخابئ الطبيعية للهنود المقاتلين يتربصون بأعدائهم فيها متحينين الفرصة للانقضاض عليهم وهم عن وجودهم غافلون. وتعتبر هذه الوديان العارية من الأشجار، لهنود السهول بمثابة الكائن التي تعود هنود الولايات الشرقية اتخاذها في السهول الشجراء ووسط الغابات والأدغال.

ألم كومستوك بعينه الفاحصة النفاذة بطبيعة السهل من نظرة واحدة، ثم قال

للأمير الاي "كوك" والضابط "روبنز" وهو يسايرهما على صهوات الخيل في مقدمة الطابور "إن الهنود إذا ما بيتوا النية على مهاجمتنا فسيكون ذلك في نفس هذا المكان ونحن في طريق العودة، فاذكرا ما قلت"، وسوف نرى كيف أن كومستوك كان على صواب فيما تنبأ به.

لم نضع الوقت سدي عندما بلغنا الحصن، فشرعنا من فورنا نشحن العربات بالمؤن والذخائر، ونجمع البريد المعد للقيادة، ثم أعددنا كل شيء للعودة إلى المعسكر في الغداة. ولم يكن قد ترامى إلى علمنا أي شيء عن حركات الهنود. ومن حسن الحظ أن الخطاب الذي كنت قد أرسلته إلى زوجي من حصن "ما كفيرسون" أرجوها فيه موافاتي "بفورت ولاس" لم يصلها، وإلا لقامت برحلة من المحتمل أن تعرض حياتها لخطر عظم إن لم تختتمها مأساة مفجعة.

وفي صبيحة اليوم التالي أخذ الأمير الاي "كوك" والضابط "روبنز" طريق العودة، فقطعنا نصف المسافة التي كانت تفصل بينهما وبين معسكر الأمير الاي "وست" دون حدوث شيء يعكر عليهما هدوء الرحلة المملة إلى أن وصل العسكر إلى المكان الذي سبق لكومستوك أن تنبأ باحتمال تربص الهنود بهم فيه، عندما اجتازوه أول مرة في مسيره إلى "فورت ولاس على أن أحدا لم تقع عيناه على شيء يثير الشك أو ينذر بخطر.

كان "كوستوك" متيقظا كعادته، فأجال بصره في الأفق بسرعة الهنود في جميع الاتجاهات، وفجأة لمح، أو توهم أنه لمح أشباحا غريبة لها هيئة جماجم الآدميين تحدق ببصرها من فوق رابية بعيدة تقع عن يمينه. وفي الحال صوب منظاره المكبر في اتجاه الرابية، ولم يلبث أن صاح بأن الأشباح لا تكاد ترى إنما هي في الواقع وحقيقة الأمر جموع من الهنود لا أكثر ولا أقل. وعندئذ صوب كل من الضابطين منظاره إلى الجهة المشار إليها، وسرعان ما تأكد لديهما صواب ما قرره كومستوك. ومرت فترة من الوقت قبل أن يدرك الهنود أن أمرهم قد كشف. ولما أيقنوا أنه لم يعد في الاستطاعة إخفاء أمر وجوده برزوا من مكانهم على صهوات جيادهم مصعدين في الرابية حتى

ذروتها في جرأة وإقدام كاشفين عن أنفسهم لأعيننا بكل وضوح. لم يظهر منهم بادي ذي بدء أكثر من عشرين أو ثلاثين فارسا، ولكن عددهم أخذ يتزايد تدريجيا حتى اكتملوا مائة فارس أو قريبا من ذلك.

ليس من العسير أن يتخيل الإنسان مدى ما أثاره ظهور مثل هذا العدد الكبير من فرسان الهنود في نفوس الحرس وفي رءوسهم من اضطراب وبلبلة فكر. أما بلبلة الفكر فكانت من ناحية تقدير حقيقة نوايا الهنود، أتكون عدائية أم سلمية؟ بيد أنه سرعان ما تبلور الموقف، فتبددت شكوك الحرس فيما يتعلق بموضوع نوايا الهنود الذين ظل المدد يفد عليهم سريعاً حتى تزايد عددهم جداً. وكان المدد يأتيهم من وراء الرابية التي كشفنا وجودهم خلفها في مبدأ الأمر. وفي النهاية غيرهم – على ما يبدو– شعور الثقة بالنفس لكثرتهم وتفوقهم في العدد، فتقدم هؤلاء الأبطال على صهوات الخيل – إذ كانوا جميعاً فرساناً يمتطون الجياد – في غير اكتراث ظاهر منحدرين من الرابية صوب قافلة العربات وحرسها. واستطاع كومستوك والضابطان بفضل نظارات الميدان أن يستبينوا حقيقة نوايا الهنود الزاحفين نحوهم. وبذلك تبدد آخر ظل من الشك الذي كان يساورهم.

وكان يرى بوضوح أن الهنود قد لبسوا لباس الحرب ومعداته كاملة، فرؤوسهم فوقها قلانس القتال ذات الألوان اللامعة، ووجوههم وأوزعتهم وأجسامهم مطلية بمختلف الألوان التي زادت هيأتهم – المنفرة بطبيعتها– قبحاً على قبح. وكلما زادوا اقتراباً منا اتخذت صفوفهم نظاماً معيناً، فكان يرى بينهم من يحمل الرماح الطويلة اللامعة وبأطرافها المطارد ذات الألوان البهية، بينما علقت فوق الأذرع اليسرى دروعهم المستديرة التي لا يكاد رصاص البنادق يخترقها، وقد زينت بالطلاء والريش كل منها حب ذوق صاحبها الخاص. وكانوا جميعاً أو غالبيتهم مسلحين بالبنادق الصيرة وبمسدس أو مسدسين، كما أن كثيراً منهم كانوا مزودين إلى جانب كل هذا بالقسي والسهام.

وما إن فرغت جموع الهنود من الهبوط من فوق منحدر الرابية صفاً صفاً، حتى

استطاع كومستوك وزميلاه الضابطان تكوين فكرة تقريبية عن مبلغ قوة الهنود. وقد راعهم رؤية ستمائة أو سبعمائة فارس ينحدرون نحوه ثم هم من غير أدنى شك سوف يشرعون في مهاجمتهم بعد دقائق معدودة، ولم يكن الضباط الثلاثة، أمام مثل هذا الجمع الغفير بالقياس إلى عددهم القليل ليشرئبوا إلى نتيجة موفقة، وخاصة لأن طبيعة الموقع كانت أصلح ما تكون مواءمة لذلك النوع من القتال الذي اعتاده الهنود. ولكن على الرغم من هذا كله اتخذ الحرس جميعهم، ضباطاً وجنوداً، مواقفهم للدفاع، وقد استقر عزمهم على ألا يبيعوا أرواحهم إلا بأبهظ الأثمان.

وبما أن المعركة المنتظرة كان لابد فيما يتعلق بسلاح الفرسان أن تكون دفاعية فقط، فقد شرع الملازم روبنزمن فوره في اتخاذ العدة لاستقبال زواره غير المرغوب فيهم.

رتب الأمير الاي كوك قافلة العربات في طابورين متوازيين تاركا بينهما فراغ كافية لجياد سلاح الفرسان. وبعد ذلك أمر الملازم روبنز رجاله بالنزل عن صهوات الخيل استعدادا للقتال، ثم جمعت الخيل (بدون فرسانها) في الفراغ بين طابوري العربات المتوازيين تحت إشراف أحد الفرسان، وبذلك كفل لها قسط من الوقاية ضد هجوم الهنود الذي كان لدى الضباط من الأسباب ما يحملهم على الاعتقاد بأن العدو سوف يحاول الاستيلاء عليها. وبهذه الطريقة أصبح الفرسان المترجلين على شكل دائرة منتظمة تحيط بقطار العربات وبالخيل. واستقل الأمير الاي كوك بإمرة أحد الجناحين، وأشرف الملازم روبنز على الآخر، بينما راح كومستوك الذي ظل هو والضابطان زميلاه على متون جيادهم يعدون من موقع إلى آخر حسب مقتضيات الظروف، وحيثما تطلب الموقف خدماته القيمة. ولما أحكمت خطة التوزيع استؤنف المسير على هذا المنوال، والفرقة تتوقع هجوم الهنود المتوحشين في أي لحظة. استمر الهنود –وقد شهدوا باهتمام ما أعد لاستقبالهم– يقتربون منا، ولكن كان يبدو أنهم راغبون في تأجيل الهجوم إلى أن يصبح الموقع في السهل أكثر ملاءمة لعمليتهم. وفي النهاية حانت الساعة المنشودة، على ما يبدو، وكان الهنود قد اقتربوا منا إلى حد

أصبح من الميسور معه إطلاق الرصاص عليهم، ولكن رصاصة واحدة لم تطلق، إذ كانت الأوامر قد صدرت إلى سلاح الفرسان من الضباط بضرورة ادخار رصاص بنادقهم حتى يكون العدو أكثر اقترابا. وفجأة دوى صراخ الهنود الحربي المتوحش وهبطت جموعهم الزاخرة عن آخرها على قطار العربات وفرقة حرسه القليلة العدد.

تقاطرت جموع المتوحشين وهم يملأون الجو بصرخاتهم المدوية. وكان أول همهم بلا ريب إرهاب الخيل وجياد العربات لتجفل، ثم يعمدون بعد أن يسود الهرج وما يترتب على ذلك من اضطراب وهياج وذهول إلى الفتك بحرسها وسائقيها. ولكن التعليمات كانت قد صدرت إلى رئيس القطار الموكل إليه أمر الإشراف المباشر على العربات بمداومة التحرك بطابوريه إلى الأمام مع ضم الصفوف. على أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الفقرة الأخيرة من الأمر العسكري، فالأفراس الخائفة الوجلة من مرأى اقتراب الفرسان المهاجمين ومن صراخهم المتوحش كانت بطبيعة قلقها تلتف حول فحولها.

هجم الهنود أول ما هجموا على الجناح الذي يشرف عليه الأمير الاى كوك، هجموا في جرأة وإقدام على حفنة من سلاح الفرسان التفوا استعدادا للمعركة على هيئة دائرة حول القطار. لم تطرف عين لجندي ولا اختلجت له خالجة أمام انقضاض العدو وهو يرغي ويزبد واستمهلوه حتى دخل باقترابه من القطار في نطاق مدى رصاص البنادق، وعندئذ ركع جنود سلاح الفرسان على ركبهم وأحكموا النشان، ثم أمطروا صفوف المتوحشين وابلا من رصاص بنادقهم طراز "سبنسر" ويبدو أن هذا حد فجأة من نشاطهم وحركاتهم وأرغمهم على الانحراف إلى الجهة اليمنى، وشوهد كثير من المقاتلين يترنحون في سروجهم ويتساقطون بينما سقطت أفراس آخرين قتلى أو جريحة، بفضل رصاص فرساننا وما كان له من أثر محسوس.

لم يكد أولئك الذين سقطوا عن جيادهم من المتوحشين، تمس أجسادهم الأرض حتى سارع عشرون أو أكثر من رفاقهم إلى نجدتهم وحملهم إلى حيث يكونون بمنأى عن احتمال وصول رجالنا إليهم، وهذا العمل من عادات الهنود في القتال، فهم

يخاطرون بحياة نفر من أعظم أبطالهم ليمنعوا جثة أي مقاتل منهم من الوقوع في قبضة الرجل الأبيض، والسبب في ذلك يرجع إلى الاعتقاد السائد بين جميع قبائلهم بوجه عام، من أن المقاتل إذا فقد جلدة جمجمته فإنه يحرم من كل أمل في الوصول إلى أرض الصيد السعيدة في الآخرة.

بينما كان الهنود ماضين في التقهقر رغم أنوفهم تحت وطأة رصاص بنادق فرساننا وإصابتهم للهدف، غمر الفرح هؤلاء الفرسان لباكورة انتصارهم وشعروا بالطمأنينة تثلج صدورهم، فأطلقوا هتافات النشوة عالية مدوية، وصاح كومستوك، ولم يكن متثاقلا ولا متكاسلا ساعة القتال، صاح في الهنود بلغتهم معيراً إياهم بهجومهم الفاشل.

انسحب الهنود إلى موقع خارج مدى بنادقنا، وراحوا يتشاورون في أمرهم –على حد ما كان يبدو لنا– وكان كومستوك يراقب حركاتهم عن كثب فلم يلبث أن قال: "ليس لنا لسوء الحظ ما يحملنا على الظن بأن الهنود قد عدلوا عن خطتهم. فما كان لستمائة شيطان أحمر أن يهاجموا خمسين رجلا يحولون بينهم وبين الحصول على شحنات البن والسكر التي تملأ هذه العربات. ثم هم لن يرضوا عن أنفسهم قبل أن يحصلوا على بعض جماجمنا فداء لزملائهم الذين صرعناهم وأسقطناهم عن متون أفراسهم منذ قليل.

من المحتمل أن يكون الهنود قد اقتنعوا بعجزهم عن الانقضاض على قطار عرباتنا ودفع أفراسنا إلى الجموح. فمحاولتهم قريبة العهد لابد أن تكون قد أقنعتهم بوجوب ابتكار خطة أخرى لهجوم جديد. والواقع أن تفوقهم علينا في العدد هو وحده العامل الذي شجعهم على المخاطرة بمهاجمتنا والإغارة علينا.

مر الضباط على صف "المعاركين" – إذ أن رجال الفرقة لم يكونوا في الواقع أكثر من أن ينطبق عليها هذا الوصف – يحذرونهم من الإسراف في الذخيرة، فالنهار لم ينصرم بعد إذ كان الوقت عصراً، وكان يخشى من احتمال استمرار المعركة حتى

سدول الليل، وكان أعظم خطر يتهددهم هو نفاد ما معهم من الذخيرة، والظاهر أن الهنود قد فكروا في هذا الأمر هم أيضاً. فتغيير هم خطة الهجوم تشعر بأنهم قد قدروا مثل هذا التقدير.

لم يضع الهنود طويل وقت في تشاورهم، فسرعان ما احتشدت جموعهم من جديد باستثناء من أصيب منهم في المعركة، وأخذوا يعدون عدتهم لتجديد الهجوم، وشرعوا يتقدمون كما فعلوا آنفا، ولكنهم في هذه المرة كانوا يتوخون منتهى الحذر، والمشاهد أنهم كانوا يرغبون في تجنب استقبال مماثل للذي استقبلوا به من قبل. وحينما اقترب الهنود من جنودنا بالقدر الكافي، شرعوا في تطبيق خطتهم الجديدة للهجوم، وهي تنحصر في عدم الهجوم حشدة واحدة كما فعلوا أولا، ولكن يقاتلون أفرادا، لكل مقاتل حق الهجوم في الوقت الذي يرتئيه، ويختار الطريقة التي تلائمه. وهذا النظام هو المتبع عادة بين هنود السهول في معاركهم ومصاولتهم، ويعرف بالتحويط"، اندفع الزعماء أولا، يتبعهم المقاتلون في فترات منتظمة إلى أن يتم حشدهم عن آخره، فكنت ترى المقاتلين الستمائة أو السبعمائة وقد تقاطروا على متون جيادهم في صف واحد الواحد تلو الآخر، بأقصى ما تستطيع الخيل من سرعة.

بهذا النظام، وبصرخاتهم المتوحشة، وعبارات الفخر والاستفزاز، اندفع صف المتوحشين الطويل مستهدفا الاستدارة بقطار عرباتنا وحرسه، حتى بدت دائرتنا وكأنها دائرة صغيرة داخل دائرة كبرى.

ضيق الهنود دائرتهم تدريجيا دون أن يقللوا من سرعة أفراسهم، إلى أن اقتربوا من جنودنا بالقدر الذي يسمح لهم بإطلاق الرصاص علينا، كانت طلقاتهم في أول الأمر متناثرة بعيدة عن الهدف، ولكن التزامنا السكون، وقلة عددنا –وإن كان ذلك لم ينقص من رباطة جأشنا وصدق عزائمنا– أغراهم بالاستمرار في الدنو من مواقعنا، ومضاعفة القتال شدة وعنفا. ولم يكن بد الرجال سلاح الفرسان الآن من أن ينهضوا للدفاع عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة وبأس، فأخذوا يطلقون نيران بنادقهم على

العدو، وكانت النتيجة مرضية للغاية، غير أن تحرك الهنود وهم على جيادهم بمثل هذه السرعة المذهلة حال دون أن يكونوا هدفا صالحا لرصاص البنادق. أضف إلى ذلك ما يتمتع به الهنود من التفوق والمهارة في ركوب الخيل البالغة حد الإعجاز، فكانوا يقذفون بأنفسهم وراء جوانب جيادهم المدربة أحسن تدريب، حتى لم يكن يبدو من أجسامهم شيء يصلح هدفا لرصاص الفرسان سوى الرأس وقدم واحدة. وكانوا وهم في هذا الوضع قادرين على تصويب بنادقهم، إما من فوق أعناق الخيل، وإما من تحتها متخذين أجسامها دروعا تقيهم رصاص جنودنا.

لم يستطع الهنود في أي وقت من أوقات المعركة إرغام قطار العربات وحرسه على الكف عن متابعة المسير، بل استمر في طريقه بصورة متواصلة دون انقطاع. وهذا الدفاع الناجح ضد هجمات الهنود، يرجع الفضل فيه إلى حد بعيد إلى وجود العربات، فهي بفضل الوضع الذي نظمت به، والذي تقدم شرحه، كانت حاجزاً منيعاً ضد هجمات المتوحشين، وكان في الاستطاعة أيضاً أن تستعمل بمثابة آخر ملجأ للدفاع ضد العدو. فيوقفها عن الحركة يستطيع الفرسان أن يترجلوا ويصطفوا خلفها متخذين منها دروعا يستعصي اختراقها على العدو رغم تفوقه في العدد، وليس أشق على نفس الهندي في المعارك من مهاجمته لخصم –مهما يكن مبلغ ضعفه– يحتجب وراء ما يقي صدره من أي نوع من الحواجز، فكل ما يقوم في طريق فرسه من الحواجز يعتبره المقاتل عائقا خطيراً له.

استمر هجوم الجنود ثلاث ساعات متواصلة دون انقطاع، وزاد من عنفهم ما فقدوه من رجال وجياد، إذ قتل من هذه الأخيرة عدد غير قليل. وكانت ذخائر فرساننا قد تضاءلت كمياتها. وكان بعض المقاتلين من الفرسان قد استبدلوا جنود السرية الرابعة الموكول إليهم أمر الجياد المحصورة بين طابوري العربات، وبذلك أصبحوا ضمن المشتركين في القتال الفعلي، غير أن الشعور بالقلق خشية نفاذ الذخيرة إذا استمر الهنود في القتال كان موضع تفكير ومصدر اهتمام كبير.

كانت آخر أمنيات أولئك الأبطال –الذين صمدوا بمثل هذه الشجاعة، أمام

خصوم يفوقونهم عدد مرات مضاعفة– أن يعجل الليل خطاه أو أن يصلهم المدد المرتقب. أما والليل ما يزال بعيدا فلا سبيل إلى تحقيق هذه الأمنية أوما يشجع على الأمل في تحقيقها، وأما المدد فلا سبيل إلى وصوله إلا عن طريق الصدفة وحدها.

هكذا كان منطق الأمور، أو على الأقل منطق أولئك الذي كان يهمهم أكثر من سواهم وصول النجدة والمدد، ولكن بالرغم من كل هذا فإن المدد في هذه اللحظة كان جاهدة في الوصول إليهم. كان هنالك زملاء على صهوات الجياد يحثونها وخزة لنجدتهم، والهنود وإن بدا أنهم قد ركزوا جل اهتمامهم حول كوكبة الفرسان القليلة العدد، داخل نطاق الدائرة، إلا أنهم لم يفتهم اتخاذ الحيطة ضد كل تدخل من الخارج. ولعلهم في هذا الظرف بعينه كانوا أكثر تيقظاً من المعتاد. فرصدوا بعض زملائهم من ذوي النظر الدقيق الفاحص فوق سلسلة الرواد الموازية تقريباً للطريق الذي يتقاتل فوقه الفريقان. فمن فوق هذه الروابي يستطيع الناظر، لا أن يتتبع مجرى القتال بجلاء حسب، بل وأن يرى أيضاً السهل المترامي تحته من الجهتين مسافة أميال عديدة، لذلك كان من السهل على الراصدين أن يتبينوا مقدم عدوهم من مسافات بعيدة. ومن حسن حظ المتوحشين أنهم لم يهملوا اتخاذ الحيطة لمثل هذا الأمر، وإلا لدارت المعركة التي كانوا يخوضون غمارها بين فريقين متكافئين في العدد تقريباً.

ولو أن إنسانا ألقى نظرة عابرة غير مركزة لما استبان شيئاً من شأنه أن يثير الشك في نفسه، ولكن المقاتلين الذين كانوا يرصدون السهل لم يطل بهم المقام، حتى اكتشفوا ما أثار في نفوسهم قدرة غير يسير من القلق، حدا بهم إلى النزول عن جيادهم، وإخفائها في بعض الأودية تمهيدا للقيام بعملية استطلاع مبعث قلقهم.

لم يكن ما رأوه حتى الآن سوى خط قائم غير واضح المعالم فوق سطح السهل يكاد يكون ملتصقة بالأفق. كان الخط من ضآلة الوضوح بحيث لا يستطيع أحد أن يلحظه، إلا أن يكون من الهنود أومن سلاح الحدود المدربين، فالمسافة لم تكن لتقل عن عشرة أميال كاملة في اتجاه مستقيم من موضعهم، ولو أن المشاهد كان من الرجال العاديين لتوهمه خللا في طبيعة الأرض أو انقطاعا، أو ربما ظنه ظل سحابة،

ولكان موضعه بحكم ما يبدومن ثبوته واستقراره كفيلا بتبديد ما قد يخامره من شك في كنه طبيعته واحتمال خطورته. ولكن هل كان الخط ثابت غير متحرك ظاهريا ؟ نعم. بيد أن الهنود لم يكونوا من أصحاب هذا الرأي. فبالملاحظة الدقيقة يمكن رؤية الخط الطويل يتحرك وكأنما يزحف خفية نحو عدو غافل عن تقدمه، وبدأ الخط يتبلور وئيداً في صورة ذات معالم محدودة حتى تمخض –ما كان يظن خطا ثابتا – لعين الرجل الأحمر الفاحصة، عن طابور من سلاح الفرسان يتحرك في سرعة نحو الموقع الذي كان الهنود يحتلونه.

وما إن اقتنع أحد رصد الهنود بحقيقة ما رأى، حتى راح ينهب الأرض بفرسه وكأنه الريح الحبوب، ليفضي إلى زعمائه القائمين بقيادة المعركة في السهل بنبأ ما شاهده.

صحيح كان الفرسان المقتربون ما يزال بينهم وبين ميدان القتال عدة أميال. فلم يكن من المتوقع وصولهم قبل انقضاء ساعتين من الزمن. ولكن الأمر الذي كان على الهنود أن يبحثوا موضوعه، هل من حصافة الرأي الاستمرار في مهاجمة العربات؟ كانت جيادهم قد نال منها التعب بعد إجهادها بمثل هذا العنف ثلاث ساعات متتالية، وربما كانت جياد القادمين أقل تعباً وإجهاداً، فتكون من هذه الناحية أكثر استعدادا لمتابعة سريعة تمكنهم من اللحاق بأفراسهم المكدودة. أضف إلى ذلك أنه لم يكن للزعماء أي رغبة في مجازفة جديدة من هذا النوع. ثم إنه لم يكن أمامهم أي أمل في التغلب على خصومهم الحاليين. فاستقر رأيهم فورا على الانسحاب السريع والظروف ما تزال مواتية.

من الميسور أن نتصور دهشة الفرسان من رؤية الهنود – بعد أن أطلقوا وابلا من رصاص بنادقهم ومن سهامهم على القطار– ينسحبون بسرعة البرق الخاطف إلى سلسلة الهضبات ويواصلون التقهقر بعد ذلك إلى أن اختفوا عن الأنظار تماماً.

اغتبط الفرسان وأثلج صدورهم هذا الانتصار الذي لم يدخل لهم في حسبان،

ولا خطر لهم على بال، فقد جهد الهنود في حمل قتلاهم وجرحاهم معهم، وقد عرف أن خمسة من أشجع مقاتليهم قد أرسلوا إلى مروج الصيد السعيدة (الآخرة)، ولكن عدد الجرحى كان يربو على هذا العدد بكثير.

بعد أن انسحب الهنود تاركين الفرسان مسيطرين على الميدان اتجه اهتمام هؤلاء إلى العناية بجرحاهم وإسعافهم بجميع الوسائل. وكان عددهم قليلاً جداً بالنسبة إلى خسائر خصومهم، أما الذين قدر لهم النجأة من كل مكروه فقد راح يهنئ بعضهم بعضا، ويتذاكرون ما حدث لهم أثناء المعركة.

انقضت ساعة من الزمن في مثل هذه الأمور حينما لاح لهم من بعد ما أثار بين صفوفهم، وهم ما يزالون في الميدان، شعور القلق من جديد. فقد كان الرأي السائد بينهم لأول وهلة أن الهنود قادمون عليهم مرة أخرى لاستئناف المصاولة، وسرعان ما رفعت النظارات المكبرة إلى العيون وصوبت نحو القادمين. ولكنها كشفت لهم في هذه المرة، لا عن جموع من الهنود، ولكن عن قبعات سلاح الفرسان المألوفة، منظر لم يسبق أن وقعت عيونهم أبداً على شيء ترتاح إليه نفوسهم أكثر مما ارتاحت إليه الآن، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى كان الأمير الاي كوك ومعه كومستوك وحفنة من الفرسان قد أخذوا مقاعدهم من صهوات أفراسهم واندفعوا بها لملاقاة زملائهم الوافدين

لم تكن الكتيبة المقترن بها سوىكتيبة الأمير الاى "وست" أقبلت تجد السير لنجدة قطار العربات وحاميته الباسلة.

تبادل الفريقان بضع كلمات في شرح حقيقة الموقف، وعلم أبطال المعركة مع الهنود كيف أرسل لهم هذا المدد لنجدتهم، ولا حاجه إلى القول بأن مقدم الكتيبة كشف لهم عن حقيقة السبب الذي حدا بالهنود إلى إنهاء المعركة فجأة، والانسحاب من الميدان للاعتصام بمكان أمين.

معركة مع قطيس

وليم. م. ديفز

لعل كل من زار متحف الطاقس[1] في نانتكت قد طاب له أن يقف أمام هياكل الطياقس وهو يحلم بمصارعة هذه الحيوانات المائية الضخمة الجبارة وقد أنسى مؤقتا الطسوت والأناجر، وكل ما يتصل بحر الجنوب من ذكريات. ولعل من الجدير بالذكر أن ملفل في كتابه (موبي دك) قد رشح القيطس لتكون صورته على أحد وجهي العملة المتداولة في أمريكا. ومن أهم مزايا قصة "صراع مع قيطس" أن كل تفاصيلها واقعية بالرغم من أسلوبها الهادئ، فهي تصور في إيجاز معركة دموية لم يكن ثمة مفر من الدخول فيها.

***

انقضت ثلاثة أسابيع أو نحوها منذ اصطياد حوتنا آخر مرة. وأعقبتها فترة ركود هي أشد وأقسى ما يمتحن بها صائدو الحيتان. لحياة الصياد فوق ظهر السفينة في مثل هذا الهدوء يبعث في النفس ما لايطاق من الفتور والسأم والملل. فالطقس الجميل الذي لا يتبدل صفاؤه، والرياح اللينة الريدانة، والعمل الرتيب في نشر القلع وطيها، وحراسة الصوارى وتنظيف ظهر السفينة وطباقها، وتناول وجبات الفطور والغداء والعشاء، وتقصير الأشرعة ونوبات المراقبة ثم المأوى إلى الفراش، كل هذه أمور لا تصلح للتسجيل في اليوميات، أو لقصة تروى في الصحف، فهي أمور يضيق الرجال بها صدراً وتثير حنقهم وتدفعهم إلى التشاجر فيما بينهم. أجل إنها تجعل كلا منا يمقت الآخر، فكم من مشاحنات تثار، وكم من مواعيد تضرب للعراك والنزال عند أول

[1] القيطس هو الحوت الكبير ،ويسمى كذلك "البال"، أما لفظة حوت فتعم فصائل الأسماك.

ميناء ترسوفيه السفينة، فالكمان عاجزة عن إثارة وجداننا وهز مشاعرنا، والأغاني عن إلهاب عواطفنا وشرح صدورنا، والقصص الهزلي عن استثارة اهتمامنا والترويح عن نفوسنا. وقد وعد الربان، وفقاً العادة المتبعة، ورغبة منه في شحذ هممنا، وتبديد ما ران علينا من السأم، بأن يهب قميص أحمر من الفانلا، على سبيل المكافأة، لمن يكون قد لفت النظر قبل غيره من الزملاء الأول حوت يصاد، مضافا إليها سروال مما يلبسه الصيادون، ولايقف كرم الربان عند هذا الحد، بل يعد الفائز بأرطال من التبغ إلى جانب ما وعد به من اللباس. بيد أن الأيام تمضي رتيبة الواحد تلو الآخر دون أن تصرف عنا السأم والملل، وعلقت فوق الصاري الأكبر قطعة ذهبية براقة[1] من فئة الجنيه، كمكافأة إضافية للصياد اليقظ، بعيدا عن متناول الأيدي ولكنها ظاهرة واضحة لكل ذي عينين. وبذلك زادت الحركة حول الصارى ودبت الحياة في المنطقة المجاورة له، فما من سبيل لظهور حوت أودرفيل أو ما إليهما على ظهر الماء، إلا وقعت عليه العيون المترصدة واكتشف أمره، وأعطيت إشارة الإنذار أملا في أن يوفق البحارة إلى صيده، فينال القطعة الذهبية أول راء اكتشف ظهوره.

ولكن عبثا حاولنا وكأنما الحيتان قد غشيتها سنة من النوم في قاع البحر كأهل الكهف. ونحن نعلم جميعاً بأن ذلك في مقدورها – وإن تنافي ذلك مع ما يقال عنها في الكتب– من أنها من ذوات الثدي تجري في عروقها الدماء الحارة. وليس هذا أسوأ ما قال عنها العلماء. على أن الحيتان حيوانات غير مثقفة لا تتقيد بما جاء في الكتب، ولا تتصرف وفق نظام رتيب، وقد تمكث تحت الماء ساعة أو أسبوعا حسبما يروق لها. وأيا كان الأمر فقد كنا نتحرق للعراك والتشاجر كنمرود كنتكى الجبار "ويلدفير" وفيما نحن على تلك الحال، إذا بالربان يأمر بقتل خنزير للتقرب به إلى القديسين تهدئة لخواطرهم ومرضاة لهم. ولقد تقبل القديسون القربان واستجابوا للربان، إذ ما كاد يرتفع قباع الخنوص المسكين بالاستغاثة حتى أغرقته صيحة زميل

[1]عملة ذهنية مستعملة في إسبانيا وأمريكا الجنوبية قيمتها تساوي محوا من واحد وعشرين شلنا إنجينزيا.

"ها هي تنفخ، وهي من النوع الكبير الرأس ياسيدي"[١] فدوت أصوات الضباط: "في أي اتجاه تسير؟، وجاء رد هنتون بنغم أرق أغانيه أربع نقاط من المقدمة في اتجاه الريح، فنشرنا القلوع وجعلناها في وضع يكون زاوية قائمة مع الصارى، وأسرعنا وقد غيرنا الفرح وراء الطريدة. وما إن أصبحنا على مسافة ميلين من الحوت الذي بدا لنا وكأنه صيد طيب موفور، حتى شرعنا في تدلية القوارب. وما كان أعجب منظر الرجال وهم يقفزون إلى القوارب في نشاط جم ومرح ملحوظ، وتهافتهم على الونش المزدوج لإنزال القوارب إلى الماء، والطريقة التي ركبوا بها المجاديف الطويلة الثقيلة في مواضعها من القوارب في هدوء وسكون، والسهولة التي جدفوا بها في نظام رتيب. وكان عدد القوارب أربعة، أخدت طريقها مع اتجاه الرياح متشعبة في مخورها حتى أصبحت المسافة بين كل قارب وآخر – وهي على بعد ميلين من السفينة الأم – نحوا من ثلث ميل، وبذلك تم لها السيطرة على ميدان يبلغ الميلين عرضاً.

سارت القوارب على هذا النظام تهزع وتتبدج فوق العباب خفيفة مختالة كالحوصل) [٢] (ولست أعرف شيئاً أرق خفة ولا أشد خيلة من الحوصل) ولكن تعال معي نلقي نظرة قصيرة على قارب صيد الحيتان ومشتملاته.. هوثمرة خبرة قرن من الزمن، ونتاج ذكاء متوفر وفكر ثاقب القوم مخترعين حفزه لابتداعه أخطار الطراد وعظم خطر الطريدة. وأما من ناحية حمولته بالنسبة إلى خفة وزنه وصلاحيته للبحر، ومن ناحية السرعة وسهولة الحركة عند أول إشارة تصدر، ومن ناحية توفر المواضع التي تسمح للرجال بالقيام بعملهم على أحسن وجه وأكمله، ومن ناحية طول المجاديف، كل بحسب ما يقتضيه موضعه من القارب، ومن ناحية البساطة في بنائه لتيسير أمر إصلاحه عمليا كلما اقتضت الظروف على ظهر السفينة. كان قارب صيد الحيتان تحفة لا نظير لها بين قوارب البحار، تضافرت على تصميمه وصنعه مهارة مليون رجل، طالما خاطروا بأرواحهم وأطرافهم في اقتحام أهوال البحار لصيد

---

[١] يستخرج من رأسه مادة تسمى "سبر ماسيتي" تدخل في صناعة الشموع والمراهم.

[٢] البجعة أو جمل البحر.

الحيتان.وهذا القارب الفريد والنموذج الفذ طوله ثمان وعشرون قدما، انسيابي الشكل الدرفيل مستدير القاع طافيه. يرتفع جانباه عند وسطها ثنتين وعشرين بوصة عن القاعدة، ويزداد ارتفاعها تدريجيا نحوالمقدمة والمؤخرة بتقوس حتى يبلغا سبعا وثلاثين بوصة عند منتهى طرفيه، وهذا الارتفاع في الطرفين مع شكله الانسيابي يضفي عليه قدرة كقدرة البط للارتفاع فوق أعلى الأمواج القادمة عليه، فيركبها دون أن يمتلئ جوفه بالماء كما يحدث للقوارب العادية.

والجانبان والقاعدة مصنوعة من أحسن الأخشاب وأشدها متانة، وهي أثقل ما فيه، وتضفي على هيكله صلابة وقوة احتمال عظيمين.

وهذه الأخشاب المصقولة يبلغ سمكها من نصف بوصة إلى ثلاثة أربا ع البوصة، بينما يبلغ سمك الألواح نصف بوصة، وهي مصنوعة من خشب شجر السدر الأبيض[1].

وأما مقاعد التجديف فن البلوط وسمكها بوصة، وتعتمد على أعمدة تسمى (الركب) خشبها أمتن من الأخشاب الأخرى، وبالمقعد الأمامي ثقب سعته ثلاث بوصات للصاري، وتحت المقعد ركب "مزدوجة"، وتخترق جدران "الكابينة" قطعة بارزة من الخشب أوعقدة فيه لسحب الحبال. وفي أعلى حيزوم القارب حيث تلتقي ألواح الجانبين تجويف عميق بأسفله مبطن بكتلة من الرصاص وأحياناً من البرنز، يمر من فوقه الحبل حينما يرسل في البحر، ويغطي مساحة أربع أقدام بطول القارب صندوق مضغوط بداخله الحبل الإضافي، مشدود طرفه إلى الرماح الخاصة بصيد الحيتان، وهو ملفوف بعناية دقيقة لحين الحاجة إليه. وخلف الصندوق مباشرة لوح سميك من خشب الصنوبر ركبت فيه المساند القصيرة أوالركب. وفي جاني القارب ثقوب على أبعاد خاصة للأوتاد الخشبية، وبطنت بنوع من الخيش السميك حتى لا يكون للمجاديف صوت يسمع أثناء المطاردة، وهي مشحمة بصورة دائمة زيادة في

---

[1] من اجناس الأشجار الصنوبرية (الأبهل الهندي).

العناية والحذر، حتى ليمكننا أن ندهم الطريدة على غرة منها كما دهم الفرسان (لير) [1] المسكين وهو محصور في مكمنه. وجميع ألواح القارب ممهدة مصقولة ومطلية بالأدهان. هكذا كان قاربنا، وإن رجلين اثنين ليرفعانه في سهولة ويسر لخفة وزنه. وفي مقدوره قطع عشرة أميال في الساعة تجديف وراء الطريدة.

وأما محتويات القارب من معدات وآلات فتتكون من طست به مرسة ملفوفة (أي حبل منالكتان) طولها ألف وثمانمائة قدم لفت بمنتهى العناية والحذر، لضمان عدم حدوث تعقيدات فيها حين انطلاقها وانسيابها في الماء، ومن صار وشراع أفقي، ومن مجدافٍ للرمح، وآخر خلفه طول كل منهما أربع عشرة قدما، ومن مجدافَي الطست والمقدمة وطول كل منهما ست عشرة قدما، ومن مجدافِ الوسط وطوله ثماني عشرة قدما.

وقد رتبت المجاديف بحيث يوازن القصيران منها مع الأطول المجدافين البالغ طول كل منهما ست عشرة قدما. وهذا الترتيب يكفل للقارب الاحتفاظ بتوازنه عند احتدام المعركة، حيث تكون أربعة مجاديف فقط مستعملة في تسييره، أما مجدافُ الرمح فيكون مرفوعا عموديا في ذلك الوقت. وبمؤخرة القارب مجدافٌ طوله اثنتان وعشرون قدما مرسل في الماء من داخل حلقة في حبل يقوم مقام الدفة في توجيه سير القارب. وأما جهاز القارب فيتكون من رمحين "حيين، أي للاستعمال فور الحاجة، وهما مشدودان إلى جانب القارب فوق مقاعد التجديف مباشرة، ومن قناتين أوثلاث قنوات مشدودة إلى القارب بالحبال في مواضع مماثلة، ولكل نصل من نصال هذه الرماح والقنوات جربان محكم الصنع من الخشب اللين لوقايته.

والرمح إما أن يكون قطعة من الحديد مثلثة الشكل ذات نصال حادة جداً، وإما أن يكون قناة طويلة مسنونة من ناحية واحدة فقط مركبة فوق صعدة متينة. "بمقصلة"، وهي تكون قبل الاستعمال على خط مستقيم مع الصعدة، ولكنها بعد أن

[1] إشارة إلى الملك "لير" في مأساة كنج لشكسبير.

تخترق جسم الحوت وتسحب إلى الخلف يسقط الجزء الحاد المتحرك مكونة زاوية قائمة مع الصعدة، فيصبح بمثابة دبوس ضخم طوله ست بوصات يعترض مدخل الجرح الضيق الذي يحدثه عند نفاذه في جسم الحوت.

وصيادو الحيتان بمنطقة المتجمد الشمالي يفضلون هذا النوع الأخير، ويعرف باسم "خنزير البحر"[١]، إذ أن المخ المستطيل قد يخرج من جسم الحوت عند سحب الحبل نظرا لرخاوة الطبقة الدهنية تحت جلده. ويوجد بأعلى القناة التي يبلغ طولها ثلاثين بوصة تجويف ركب فيه قضيب خشبي متين طوله ست أقدام. ثم يلف جزء قصير من أحد طرفي حبل الصيد مرتين حول القضيب تحت التجويف بعد أن تترك فتحة "تسمى العين" في طرف الحبل المفتول. وهذا الجزء من الحبل مشدود إلى أقصى احتماله. أما الجزء الباقي فمتراخ لإرساله بسهولة بعد نفاذ النصل في جسم الفريسة، حتى إذا طالت المعركة استطاع الصيادون ترك القصبة تنفصل عن الصعدة. وبمجرد إنزال القارب في الماء يوصل الحبل الموضوع في الطست إلى الفتحة الموجودة بطرف الحبل القصير المتصل بالقضيب. أما الصعدة أوالقناة فليست سوى آلة بيضاوية الرأس "أي النصل" ذات حد قاطع فوق ساقه يبلغ طولها من خمس إلى ست أقدام، ولها مقبض مماثل في الطول، بآخره حبل لإمكان سحبه واسترداده. وبالصندوق الموضوع بمقدمة القارب فأس صغيرة ومدية حادة لقطع الحبل حين الحاجة إلى ذلك، وبه برميل ماء وآلة لإخماد النيران في حالة نشوب حريق، إلى جانب عدد من الشموع وقنديل وبوصلة وبعض الشاش الطبي لتضميد الجراح، وأعلام مشدودة إلى قصبات اللفت الأنظار عند الحاجة، وفأس كالأنجر (الهلب) وقضيب في طرفه حديدة معقوفة لدفع القارب أوجره. هذا كل ما يحويه قارب صيد الحيتان بالإضافة إلى ستة أزواج من السيقان تحمل ستة رجال من مهرة البحارة الممتازين، وهكذا كان قاربنا وهو يمخر فوق العباب على بعد ميلين من السفينة، وكل رجل من البحارة يترقب من تحت مجدافه المتين ظهور الحوت فوق سطح الماء، بينما وقف الربان والقائم بتسيير القارب

[١]إشارة إلى إحدى فصائل الدرفيل.

على أعلى مركز متة جيلان النظر، ويفحصان الأفق بعين الخبير المجرب.. بحث وراء أول عمود من الماء يرسله البال عند طفوره إلى سطح الماء وهوينفخ فيبدأ "الطراد".

وفي مثل هذه اللحظة، لحظة التريث والانتظار، عندما نكون على وشك الدخول في صراع، كفة الأخطار فيه راجحة، وفرص الإصابات والأحداث مهيأة، وافرة الكيل، أجد الذين ما تزال تعوزهم الدراية والحنكة، يعودون على أنفسهم يحاسبونها لتخلفهم في المضمار، ويعضون بنان الندم على تقصيرهم، بينما يقطع من دفعهم الطيش إلى الجرأة عهدا على أنفسهم بأن يكونوا أحسن تصرفا وأكثر حكمة في مقتبل الأيام.

إن المرأة الفرنسية تجد الخير مستطاعا عندما ترتدى حلة حسنة فاخرة، وأنا أجد الشر بغيضا عندما أكون على مقربة من البال. ولكن ما أسرع ما يفيق الملاح من التأمل عندما يلمح الربان يقفز من موقفه فوق حافة القارب في خفة واهتمام، ويدير القارب بمجدافه الموجه وهويقول: "إلى مجاديفكم. ثبتوا البال على بعد نصف ميل لا غير!"، وهذا معناه أنه ليس بيننا وبين البال سوى أربع دقائق من الزمن إذا لم يول الأدبار.

ولو أنه أتيح لعضو من أعضاء أندية التجديف أن يشاهد حركة أولئك الرجال، لسره ما يرى من براعة الإتقان ودقة التوقيت، ولراعته طريقة سحب المجاديف فوق وجه الماء في خفة الريش، ولأثلج صدره منظرها وهي تنغمس دون صوت في زبد البحر الطامي وتخرج، وما يسمع لها جرس، فهي تعمل في سكون بفضل تشحيم المواضع المركبة فيها. فهنا خمسة من أفذاذ الرياضيين المدربين يندفعون وسط الأمواج المتلاطمة في ثبات وإقدام. ولا غرو، فالتدريب الطويل الدقيق، في وجه الأخطار والأهوال، يوحد الرجال ويربط بعضهم ببعض، فهؤلاء الرجال الخمسة كانوا يعملون وكأنهم رجل واحد تحت إرشاد الرجل القائم بتوجيه القارب، والذي كان يعمل على المجداف الخلفي بكل ما أوتي من قوة. لقد كانت كل ذرة من الطاقة والنشاط في روحي وجسمي مركزةحول ذلك المجداف الخلفي. ولم أكن أنفرد بذلك عن باقي

الزملاء الأربعة. وكانت تحين مني في الفينة بعد الفينة التفاتة عابرة إلى ما حولي!! إلى مجداًفي الوثاب، وإلى الأمواج الصغيرة الطافرة، ثم إلى وجه الربان الصارم، وقد ارتسمت عليه آيات العزم الصادق، فأتبين مدى اقترابنا من الطريدة، لا أخطئ في أكثر أو أقل من ست أقدام. كانت عيناه في هذه اللحظة شاخصة إلى البال وهو يعلو ويهبط، وكان باهت اللون قد اختفى من أساريره لونه الطبيعي، وقد زم شفتيه وهو يتمايل إلى الأمام تارة وإلى الوراء تارة مع حركة مجداًفه. لقد كان هو أيضاً متوتر الأعصاب إلى أبعد حد، ولم يكن يكف عن إلقاء الأوامر وحثنا على المضي في التجديف بكل همة، وبكل ذرة من قوة في عضلاتنا، وهو يوزع علينا الوعود زيادة في الإغراء.

سرنا نحو البال بخطى حثيثة قتالية، وكان الربان فصيحا بليغا فيما كان يستنهض به همتنا وعزائمنا من عبارات عنيفة صاخبة، على غير شعور منه ما يقول. ومهما يكن من أمر فقد كان لطريقته هذه الغاضبة الثائرة أثر بعيد في حملنا على مضاعفة نشاطنا. وفجأة اتحد تنفس الطريدة ونفخها برذاذ الماء المتطاير من حيزوم القارب، وفي الحال هبط صوت الربان العجوز المتنمر إلى همس وحشي ناري، وهو يعد بتوزيع ما لديه من الطباق علينا وأن يشرك كلا منا بنصيب في عزبته الصغيرة التي يمتلكها في موطنه، مضافا إلى ذلك كله نصيبه من الغنيمة.

إن العضلات البشرية لتعجز عن تحمل أكثر مما تحملت عضلاتنا، فقد بدا لنا القارب في ثقل الرصاص نظرا للزبد الفائر وفقاقيع الماء التي تجمعت حول مقدمته، وراح الربان يصوب بصره من تحت المجداًف ، وقد انحنى فوقه حتى حاذى رأسه رأس القارب، وسرعان ما اخترق آذاننا زفير القيطس تحت حيزوم القارب، وكان مجداًفي في هذه اللحظة منغمسا في الماء وسط الدوامة التي أحدثتها في الماء آخر ضربة للوحش الجبار في محاولته الفرار، ولمحت تحت قبضة المجداًف ما بدا من زعانفه على صورة نصف دائرة، أو نصف القمر ليلة تمامه ، ونحن نقذف رماحنا في أركانها، وما لبثت أن زكمت أنوفنا رائحة القيطس التي لا تختلف كثيرا عن رائحة كومة من الأعشاب

البحرية، وصاح الربان "اسحب! يا بن اسحب! اسحب! عظيم!عظيم جداً. اسحب بكل ما أوتيت من قوة ! حمدا لك يارب السماوات واطعن! اطعن كرة أخرى!". شرع القارب بعد ذلك في العودة إلى السفينة الأم وقد ارتفع ذيل الحوت. وبذلك دويت صفحة هذه الطريدة، وما هي إلا ضربة أو ضربتان من المجداف حتى أخذنا نتنفس الصعداء آمنين مطمئنين ونحن نلهث من التعب.

ولكن لا يظن القارئ أن جميع ما نصيده في البحر يقع لنا بمثل هذه السهولة، وأنه لا يكلف أكثر من إنفاذ رمح أورمحين في جسم الفريسة. لذلك سأنتقل من قصة الحوت الذي لم يكلفنا كبير عناء إلى قصة حوت آخر.

كان موقعنا من البحر يومئذ عند ملتقى خط عرض ٤٠.٥°وقد انصرف الرجال إلى إعداد الحيز اللازم لتخزين مائة وخمسة عشر برميلا من زيت الحوت، كانت نتاج قيطسين صدناهما في اليومين الحادي عشر والرابع عشر من شهرنا الذي نحن فيه. وبينما كان الرجال يقومون بهذه المهمة على ظهر السفينة حيث تعثرت الأواني والمعدات لمحنا سربا[١] من القياطس يتحرك على صورة غير منتظمة لم نتمكن حيالها من تخير الموقع الملائم لوقف السفينة وإنزال القوارب إلا بعد جهود ومناورات دامت ساعات عديدة من الزمن. وما إن فرغنا من إنزال القوارب حتى كان نائب الربان قد وقع اختياره على خل من الحيتان ضخم، برهن الصراع الذي دار بيننا وبينه على أنه كان من نوع خبيث الطبع، قوى الشكيمة، عنيد، سريع إلى الشر، جرى بقوة تحت الماء المسافة قصيرة مبتعدة عن القوارب كثيرة في خط طويل، ثم استدار في مسيره طافرا إلى سطح البحر، وأقبل نحونا بأقصى سرعة وقد ارتفع رأسه فوق الماء ضاربا أحد القوارب في جنبه بفكه فاخترقه وقلبه، فبادرنا بقاربنا لإنقاذ من به.

وثق أيها القارئ أن المشهد كان عند وصولنا إلى مكان الحادث مثيرة لأعصابنا إلى أقصى حد. على أن رجال القارب المقلوب كانوا قد أخذوا يسبحون في الماء،

---

[١]يعبر عن سرب الحيتان باللغة الإنجليزية بكلمة " **School** " أي مدرسة

واستطعنا أن نتبين الرؤوس الستة جميعاً حمدنا الله على ذلك، وكان الحوت الغاضب المهتاج ماضيا في ضرب الماء بزعانفه وذيله بصورة جنونية على مقربة من القارب المحطم، وعاد إلى مهاجمته كرة أخرى قبل أن يصل إلى الزملاء، وقد شرع يطعنه بفكه مقتطعة منه ثلث طوله، وبينما نحن نمر بمكان الحادث، شاهدنا اثنين من الزملاء التعساء متعلقين بأسفل القارب فناشدنا الله أن ننقذهما.

ولكن عين الربان اليقظة ألمت بالموقف سريعا ورأى أن للسابحين من رجال القارب مايعينهم على الاستمساك، وخاصة أن وسط القارب المتحطم وهو أوسع جزء منه كان قد شرع يطفو إلى سطح الماء في سرعة، لذلك أمرهم بالصبر ريثما يحاول إبعاد الحوت عنهم. مساكين هؤلاء التعساء لقد حق لهم ساعتئذ أن يشعروا بالمرارة والشقاء، إذ أن الوحش الهائج كان قد أخذ في هذه اللحظة يسبح نحوهم، وفكه الكئيب المزعج على صورة زاوية قائمة بالنسبة إلى جسمه الضخم وقد شع من حوله بريق العاج. وسنحت لنا الفرصة فطعناه برمح طويل قبل أن يصل إلى القارب المتفكك، وكان الوحش الكاسر قد فوجئ، فراح يضرب الماء بزعانفه وذيله وهو يبتعد بسرعة بالغة في مواجهة الريح. ولا جدال في أننا كنا أمام خصم عنيد جسور. وقد تعذر علينا أمام سرعته هذه التي لم تفتر، وأمام ضرباته المتوالية في جميع الجهات، جذب الحبل واتخاذ وضع جانبي بجواره، وأصبح لا محيص لنا من استعمال الفأس، وجذبنا الحبل إلى أن تمكنا من الميل برأس القارب إلى ما وراء زعانفه البطاشة الفتاكة بمسافة قليلة، وكان الربان قد أعد رمحا ذا نصل طويل حاد ركز كعبه فوق رمح أقصر، مترقباً الفرصة لطعن الحوت على أمل قطع أعصاب ذيله الذي كان قريبا من سطح الماء. فلو أنه قدر لهذه العملية الجراحية أن تتم لفقد الحوت عضو التوازن في جسمه، ولأضطر إلى الكف عن الحركة، ولكن عملية البتر هذه كان من العسير إجراؤها على حوت مناضل دائم الحركة والاضطراب في الماء. فقد كان يجري في الماء بسرعة لا تفتر ولا تنقص، وكثيرا ما كان يتقلب في سبحه حتى يهيئ لزعانفه الفرصة لضربات جانبية جبارة، يقصد منها بكل وداعة تحطيم خصومه الصغار.

كان ملاح المجداًف الأمامي ما يزال يجذب الحبل، وقد مضت عليه ساعة من الزمن وهو يباشر هذه العملية. ولكن عبثا حاول أن يتقدم بالقارب على زعانف الحوت. وكان من الممكن جذب الحبل القصير لمدة قصيرة من الزمن، ولكن لم يكن مفر من تمزيقه وتمزق الأيدي الممسكة به في الوقت نفسه حتى لتعرى من اللحم.

وهذا بالتأكيد ما أثار غضب القبطان الهائج. كان القبطان دب، رجلا حسن العقيدة راسخ الإيمان، وأحسبه –إذا ما جلس بين كرومه أو تحت ظلال أشجار التين بحديقته، وليس معه من يثير حفيظته أو يخيفه– رجلا هادئ الطبع موفور الصبر. ولكنني أحسبه اليوم ونحن نواجه ما نواجهه من البلاء الشديد، يود لو أن الشرائع السماوية لم تعتبر السب إثم ووزر من الأوزار. لقد أفرط بعض الإفراط في جانب صاحب المجداًف الأمامي، وأحسبه قد عرض بجبن أحدنا بما يقرب من التصريح لا التلميح، فكان هذا أكثر مما يحتمله ما يجري في عروقي من دم الغاليين[1] الحار، فتقدمت على الفور بالقارب بمساعدة اثنين من الملاحين، ثم عقدت حديدة الرميح في ثبات وبرود حول مقعد المجداًف. ومعنى هذا أن القيطس إذا لم يتم قتله شجرت في القارب فورا معركة طاحنة صاخبة.

اغتبط القبطان بهذه الحركة التي تتجاوب كل التجاوب مع ما ينشد من خطة العمل، وفي الحال سدد رمحه إلى الوحش متبعا الطعنة النجلاء بأخرى، ولكنها لم تصب من الوحش مقتلا كأنما لروحه طلسم ولحياته سحر، فلم ينسحب من جسده دم يذكر، والقليل الذي سال من جراحه لا يستنزف دم قيطس في أسبوع. وما هي إلا لحظة حتى انغمس حيزوم قاربنا في الأمواج، وأخذ رشاش الدم المتفجر يلطخ جانبه ونحن نتقدم في جرأة وبسالة إلى الأمام، وضاق فرس الرهان بنا ذرعا، ومل وخزنا له بالرماح، فمال معترضا طريقنا فارتطمنا برأسه.

"قللوا السرعة، هكذا دوي صوت القبطان "قللوا السرعة جميعاً، وأرخوا

---

[1] نسبته إلى موطنه: (**Walts**)

له الحبال، واستدار القبطان متجها نحو المجدافَ الأمامي وهو يخشى أن يلطم الوحش القارب بفكه، حينما رأى الحبل المعقود حول مقعد المجدافَ، وصرخ وهو يقفز إلى حيث علقت الفأس ليقطع الحبل أطلقوا هذا الحبل بحق السماء. وما كاد يرخي الحبل من جانب القارب حتى كان الوحش قد وصل تحت القاعدة ورفع مقدمته عن سطح الماء وهو يستدير ببطء إلى الأمام.

احتل القبطان وبن العجوز مؤخرة القارب، وفي هذه اللحظة الخطيرة نفسها سول إلي الجنون أن أمتع الطرف بما ارتسم على وجهي صائدي الحوت العجوزين من ترقب الضربة التي لابد أن يسددها لنا الوحش بذيله أوزعانفه. ولكن لحسن الحظ تأخرت اللطمة لحظة كان فيها نجاتنا. فقد أبعدنا ما أحدثته من اهتزازات وتموجات في الماء عن منطقة الخطر ببضع أقدام.

كانت القوارب الأخرى بعيدة عن مرمى البصر، وكانت السفينة راسية بوضوح، ولبثنا ساعتين والقيطس يجري هنا وهناك، ويقاتل بنشاط مضاعف، والقبطان يسدد إليه الرماح الطوال، ولكن عبثا حاول أن يصيب منه مقتلا. فقد كانت الرماح تنسحب من جسده دون أن تنشب في لحمه، وأخيرا ابتعد عنا فائزاً منصوراً، بعد أن نال منا التعب وأجهدنا الطراد إلى حد الهلاك. فلم نصل إلى السفينة إلا بعد هبوط الليل بساعات طوال. وكانت القوارب الأخرى قد انتشلت رجال نائب القبطان من الماء، ولم يكن أحد منهم قد أصيب بمكروه.

وفي اليوم التالي طيب القبطان خاطر صاحب المجدافَ الأمامي بإفضائه إلى بأن الضابط في القارب في أثناء العمل لا يعنى نصف ما يعنف من رجاله فالتعنيف من عاداته. ولكنه أضاف إلى قوله هذا بصورة جدية: إياك أن تربط الحبل مرة أخرى مهما تكن الظروف بين الحوت والقارب بصورة تحول دون إرخائه عند اقتضاء الأمر، فلو أن هذا الوحش غطس لجر القارب معه في الماء إلى ما لا يقل عمقه عن ربع ميل في أقل من دقيقة ونصف الدقيقة، ولراح مع القارب نصف ملاحيه. فأجاب صاحب المجدافَ الأمامي بأنه أهون عليه أن يغرق في الماء من أن يعيش تحت شبهة الجبن،

ولكن القبطان العجوز تغاضى عن وقاحتي واستدار على عقبيه.

وهأنذا قد أوضحت بأن المطرد يستخدم لشد القيطس، وأن الحبل وسيلة للاتصال به، وأن الرمح هو الآلة التي يقتل بها.. وأحياناً يستعمل الفأس أو" البلطة، للحيلولة دون فراره.

الحريق لكبير في شيكاجو

سامول. س. جريلي

في الثامن من أكتوبر عام ١٨٧١ شبت نار شديدة دمرت في شيكاجومنطقة تربومساحتها على ثلاثة أميال مربعة، وقوضت دعائم سبعة عشر ألف دار أوتزيد، وتركت مائة ألف نسمة بلا مأوى. وبلغت الخسائر مائتين وخمسين في الأرواح ومائتي مليون من الدولارات في العقار. ويؤخذ مما تناقلته الروايات أن سبب الحريق بقرة لسيدة تدعى أوليرى رفست مصباحا أوقنديلا في الجرن. ويظهر أن الرواية من المادة ما يدعها، فهناك حقيقة سيدة كانت تدعى "أوليري"، وكان لها بقرة ولها جرن، وزعم غير قليل من الناس أنهم رأوا النيران بأعينهم وألسنتها تندلع من الجرن. وليكن مبلغ الرواية ما يكون من الصحة أوعدمها، فإن الذي لا جدأل فيه هوأن الظروف كلها كانت مهيأة ومواتية لوقوع كارثة ما. فقد كان فصل الصيف على جانب كبير من الجفاف، وكانت غالبية المباني في المدينة من الخشب، ويبلغ هبوب الرياح الشديدة من السرعة ما يكفي لانتشار اللهب إلى مسافة ميلين وربع الميل في ست ساعات ونصف الساعة.

ونحن نسرد في الصفحات التالية نقلا عن أصدق المصادر، قصة هذه الحريق التي تتخذ مكانها إلى جانب حريق لندن عام ١٦٦٦ بين صفوف المدن التي امتحنت بلهب النيران.

***

"كنت حينما شب الحريق الكبير أقيم في بيت جديد لم تمض بعد عشرة أسابيع أونحوذلك على سكناى فيه. وكان يقع هذا البيت في الشمال الغربي من تقاطع

شارعي آرى وسانت كاير بمنطقة شيكاجوالشمالية، وكانت جميع المنطقة ممتدة من النهر شمالا لمسافة نصف ميل حتى شارع شيكاجو، وشرقي شارع سانت كلير ومن شارع سانت كلير شرقا المسافة ألف قدم حتى شاطئ بحيرة متشجان الرملي المنخفض، كانت جميع هذه المنطقة تعرف بالرمال وهي ملق بور تقوم فوق معظمه عشش وأكواخ متناثرة يسكنها أعتاق من الناس منهم العمال والشغالة وسائقوالخيل والنيران وأوزاع من الخلق، لا يعرف لهم مصدر رزق معلوم، وكان شارع سانت كاير هوالحد الفاصل بين مدينتين، وعند هذا الحد كان مسكني.

كانت أسرتي المقيمة معي في هذا المنزل يومئذ تتألف من زوجي واثنين من أولادي فردريك وموريس البالغين من العمر خمسة عشر عاما وثمانية أعوام على الترتيب، وطفلين عمر أحدهما عامان ونصف، وعمر الثاني أربعة شهور. وكان هناك حريق واسع النطاق، أوهكذا خيل إلينا، اندلعت ألسنته أول ما اندلعت ليلة السبت في ميدانين من ميادين القسم الغربي من المدينة يمتد أحدهما من شارع واشنطون إلى شارع مونرو، بينما يمتد الثاني من شارع القنال إلى شارع كلنتون.

وفي عصر يوم الأحد حملنا في عربتنا بعض أصدقائنا لنوصلهم إلى محطة السكة الحديدية ليستقلوا القطار إلى بوسطن، ولم يكن بد من أن نقف لحظة في أثناء الطريق لنلقي نظرة عابرة على ذلك المنظر الذي نجم عن حريق الأمس من دمار شدهنا لفداحة أثره. وفي المساء حينما عدنا إلى دارنا سمعنا أجراس خطر الحريق عديدة من المرات، وشاهدنا وهج النيران المتأججة بالناحية الجنوبية الغربية، ولكن لم تأبه بهذا كثيرا ظنا منا أن ريحا شديدة قد أدركت بعض ما يقبل الاحتراق تحت أنقاض حريق البارحة، ولما كنا متعبين بعض الشيء فقد آوينا مبكرين إلى فراشنا.

يغلب على ظني أن الساعة كانت قد بلغت الحادية عشرة ليلا من نفس اليوم (الأحد) حينما استيقظت على عادتي ونهضت من فراشي لاختبار حالة الطقس ومضى الليل، ولكن ما كان أشد دهشتي عندما رأيت أن الليل يضيء كالنهار أويكاد. فكانت السماء إلى الناحية الجنوبية الغربية تتوهج ببريق أحمر كأنها غاضبة

شائنة، وكانت كتل من المواد المحترقة تتصاعد سابحة في الفضاء إلى ناحية الشمال، وكان الشرر والجمر يتساقط كوابل من المطر على جوانب الطرقات وفوق الأسطح من حولنا.

كان بيتي يقع في طرف مجموعة من ستة بيوت جديدة ذات ثلاث طبقات مبنية بالآجر، تحيط بها من الجانب المقابل للشارعين والجانب الخلفي منازل خشبية وأجران وحظائر، وعلمت من نظرة واحدة أن واحدة من آلاف الحجم المتطايرة قد تجد طريقها إلى نافذة من النوافذ الموجودة بأعلى الاسطبلات فيشتعل الحي كله في مثل طرفة عين، وقد أحسست بدافع من الشعور لا المنطق بأن القسم الشمالي كله مصيره للدمار، وبأن علينا أن نبادر إلى الفرار منهول ما هوآت من شر مستطير، قبل أن تسد منافذ النفجأة. وزاد من قلق أن النوافذ البدروم بمنزلي قضبانا حديدية، لم أجد بدا من تزويدها بها بدافع من الاحترام والتقدير لمواهب جيرتي وجرأتهم على السلب والنهب. فلوأن المباني المواجهة لمنزلي اشتعلت فيها النيران لاستحال علينا الخروج من الباب الأمامي لشدة حرارة النار، ولوأننا لجأنا إلى الفرار من الباب الخلفي فقد يكون الاسطبل مشتعلا بالنيران ويتعذر علينا هذا المنفذ للفرار أيضاً، وتكون النتيجة أن نشوى أحياء.

فتحت نافذة حجرتي ونظرت فإذا الهدوء مخيم كالمعتاد إلا من زمجرة النار وأزيزها المشئوم، وهي ماتزال بعيدة منا إلا من حسيس الجمر فوق أسطح المباني وعلى جوانب الطرق. لم تكن بالنوافذ أنوار، ولم أسمع أصواتا ولا أجراسا. بيد أنني أيقظت زوجي وأخبرتها بأن المدينة بأجمعها تتأجج بالنيران، وأنه يجب أن يرتدي الأطفال ملابسهم استعدادا لفرار سريع.

نهضت زوجي دون أن تبدومنها بادرة من دهشة أواضطراب وأطلت من النافذة لحظة ألمت فيها بالمشهد المرعب، ثم ذهبت لتوقظ الولدين وتنادي الخدم وتلبس الطفلين وهما يترنحان من الوسن، بينما أسرعت أنا من جانبي إلى السطح بدلاء الماء لإخماد الجمر المتساقط بكثرة هنا وهناك وهويتوهج. لم ألمح أثرا من جانب الجيران

لفزع أولشعور بما يحيق بالمنطقة من الخطر، فصرخت بأعلى صوتي وبكل ما أوتيت من قوة " النار! النار، وسرعان ما بدأت النوافذ تفتح، والأنوار تضاء وانفجر بعض الناس، ولعله كان أثقل تعاسة أوأكثر سكرا من سواه، متسائلا في حدة تعبر عن شدة غضبه وسخطه: ما بال هذا الرجل الواقف فوق السطح يصيح كمن به لوثة في عتمة الليل هكذا.

كنت في الوقت نفسه قد أرسلت ابني فردريك لدق نواقيس الخطر في الشوارع وأجراس أبواب الأصدقاء والأقارب المقيمين بالقرب منا، وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى كان الحي ينبض بالحركة. فهنا قوم يشدون دوابهم إلى العربات أويخرجون بعض الأثاث من منازلهم، وهناك قوم كانوا أسرع في إعداد عدتهم فشرعوا يبادرون إلى الفرار قبل سواهم، بعضهم سعيا على الأقدام في جموع عائلية، حاملين في أيديهم أوفوق ظهورهم أقدس ما يعتزون به من مقتنياتهم أوما يعتبرونه أكثر نفعا لهم، بينما ركب البعض الآخر –وكانوا أسعد حظا– عربات تجرها الجياد.

أصبح المشهد الأن رائعا يعجز الوصف عنه، ومرعبا ومفزعا في الوقت نفسه، في خلال نصف الساعة التي قضيتها فوق سطح منزلي امتدت النار إلى الأمام بسرعة مخيفة، وأخذت تشتعل في أماكن متناثرة قبل أن تتحد ويشملها الحريق العام. واشتدت الريح حتى كادت تكون إعصارا، وازداد عدد الشظايا المتطايرة من السقوف المحترقة والجدران المتساقطة، كما ازدادت زمجرة النيران المتأججة بصورة مخيفة. وففجأة دوى في الفضاء صوت كأنه هزيم الرعد أوقصف المدافع، وانطلق كالسهم نحوالسماء عبود دخان يتطاير منه الشرر، ولا إخال أنه كان أبعد من مسافة ميل من منزلي، فقد شعرت بالأرض تتزلزل تحت قدمي. كان الذي أحدث هذا الدوي وهذا الزلزال سقوط سطح سراي المحكمة الجديدة وجانب من جدرانها، وتقوضت دعائم دار المدينة "المحافظة أوالمجلس البلدي" (أكبر مباني المدينة إذا نحن استثنينا مخازن الحبوب بها).

كان الدخان خانقا ولكن النجوم كانت ما تزال تطل من قبة السماء الزرقاء

الصافية في هدوء، بينما راح القمر –كان بدرا– يرسل على الأرض أشعة الفضية. فكان التناقض مريعا بينها وبين وهج النيران القانية كالدماء، حتى لتبدوالطبيعة وقد جردت من الشفقة، غير آبهة بما يجري فوق الأرض من خراب ودمار في مدينة تنكمش وتطوى، كأنها جلد يطوي أوصفحة من كتاب تقلب، تملكني الفزع والهول من عنف هذا التناقض بين الهدوء الرائع المتناهي فيما يظلنا من عل، وبين المشهد الدامي المرعب الذي تجرى أحداثه أمامي على الأرض.

لعل الساعة كانت قد بلغت الواحدة أوالثانية بعد منتصف الليل، عندما رأيت اللهب يتصاعد وثبا في الحيز القائم بيني وبين قلاع السفن المصطفة على طول ضفة النهر، فعلمت وقتئذ بأن النار قد اجتازت الحاجز الوحيد المانع لنا، وأنها آخذة في تدمير الجانب الشمالي ... ولم يكن ثمة بعد ذلك سوى رقعة من الأرض لا يزيد طولها على ثلث ميل، تزدحم بالمباني الخشبية،) ثم يأتي دورنا.

سمعت شخصا يناديني باسمي من الشارع فنظرت من فوق الشرفة فإذا بي أرى "مات هجر، وهورجل مخلص وفي قضى في خدمتي فيما سلف من الأيام عدة سنوات بين المنزل والمكتب، وقد أتى بعد أن نقل زوجه وبعض أثاثه المتواضع من سكنه القريب من النهر، ليعرض على مساعدته قائلا "ماذا أستطيع أن أعمله لمساعدتك يامستر "جريلي"؟ فصحت مجيبا: شكرا لك!! ليس ثمة شيء ذوعناء يا "مات"، ولكن على رسلك، فيمكنك أن تخرج الجوادين من الحظيرة وتطلقهما في الشارع، فنكون قد هيأنا لهما فرصة للنفجأة. فلقد اشتعلت النيران في الحظيرة مرة، وربما اشتعلت فيه مرة أخرى فيشويان. أجاب "مات": بكل تأكيد.ثم قال متسائلا في هدوء: أما تحتاج إليها بعد قليل لحمل الأسرة بعيدا عن هنا.

في الواقع لأفكر في هذا، فقد أعماني الدخان وأذهلني هذا الجحيم المتأجج عن كل شيء، فكل ما كان يدور بخلدي هوأن علينا أن نفر من هنا ولكن كيف وإلى أين؟

لا جدالً في أن الحل الذي اقترحه مات هوأحسن الحلول، وبناء على ذلك احتجزت الفرسين للانتفاع بهما عند اقتضاء الحاجة، على أن الحظيرة كانت على وشك الاحتراق مرتين من جراء سقوط بعض المواد الملتهبة فيها، ولكن ابنتي سارع إلى إخمادها بمساعدة بعض الجيران الذين كانوا هم أيضاً يتعرضون للخطر فيما لونشب الحريق.

صعدت إلى زوجي مرة خلال الوقت الذي قضيته على السطح بفنجان من القهوة ولتلقي النظر كرة أخرى على هذا "الهول في ظلام الليل ". لم نتبادل من الحديث إلا أقله، على أني ضممتها إلى صدري لحظة بينما كانت ترتعد من شدة الرياح العاصفة. ولم تلبث أن تولت في صبت هابطة إلى المسكن تمهيدا للرحيل أوعلى الأصح للفرار الذي لم يكن منه بد.

وما إن وافت الساعة الثانية صباحا أوبعد ذلك بقليل، حتى كان اللهب قد أخذ ينطلق قفزة في الفضاء داخل فناء مصنع ليل للبيرة، حيث تودع صناديق التعبئة الخشبية، وشرائط الصفيح لحزمها، ويقع هذا المصنع بشارع شيكاجوعلى شاطئ البحيرة، وكان اللهب في هذه اللحظة وقد مر فوقنا في وثبة، وامتد لسانه مسافة ربع ميل إلى ناحية الشمال، وكان مبنى صرف المياه بالمدينة يقوم إلى شمالي مصنع الجعة لا يفصل بينهما سوى حيز يقرب من عرض شارع متواضع. فإذا تعطلت المضخات الجبارة، وقف تدفق الذخيرة السائلة (الماء) لمكافحة النيران، فلا يكون بعد ذلك سوى الدمار المحقق وإبادة المخلوقات، لذلك أيقنت بأن ساعة الفرار قد حانت فهبطت إلى داخل المنزل.

في الفترة التي قضيتها فوق سطح المنزل أخمد ما يتساقط عليه من مواد محترقة، لم أكف عن التفكير في مصير مكتبي وهومقر على الذي منه أرتزق، فهذا المكتب – ويساكنني فيه الشريكان كليفلاند وفر نش المهندسان– يقع في مبنى شبرد بالركن الجنوبي الشرقي من تقاطع شارعي "مونرووديربورن" وغنى عن القول أن بمكتبي هذا جميع كتبي ودفاتري وسجلاتي وأدوات التي أنفقت في جمعها وفي تأسيس المكتب

ثمانية عشر عاما، فهي رأس مالي وبضاعتي في سوق الأعمال ومسح الأراضي، فلا غروإذا كانت قيمتها عندي عظيمة وحيوية معا، والآن وقد دمرت النيران " دار المحكمة، وأنت على مكتب التسجيل[1] حيث تحفظ المستندات ووثائق الملكية ولعلها حرقت عن آخرها، فإن دفاتر مساح الأراضي ومذكر انه يكون لها في هذه الحال قيمة وأهمية عظيمتان لدى الجمهور، في توضيح حدود الملكيات، وقطع الأراضي كبيرة كانت أوصغيرة، بل هي تصبح المرجع الوحيد لضبط حقوق الناس وإعادة الأمور إلى نصابها بعد أن أطاحت النار بجميع الوثائق والمعالم.

لم أجرؤ على الذهاب إلى الجانب الجنوبي من المدينة الإنقاذ أوراقي ومستنداتي خشية أن تحول النيران بيني وبين العودة إلى أسرتي بالمنزل، على أني علمت فيما بعد أن ثلاثة من الشبان الملحقين بالمكتب قد اختلفوا إليه في أول الليل، ونقلوا شطر من دفاتري ودفاتر الشريكين كليفلاند وفرنش إلى مكتب صديق لنا بشارع واباش، قدر شبان الثلاثة أنه خارج نطاق الحريق.

وما إن كروا عائدين إلى المكتب بعد نقل ما نقلوه من محتوياته، حتى وجدوا المباني المواجهة له، وكانت في مواجهة الريح، قد تقوضت دعائمها دون أن يمس المبنى الذي يقع فيه مكتبنا بسوء، واعتقد أصحابنا الثلاثة أن الخطر قد زال عنه نهائيا ففرحوا بذلك وامتلأت نفوسهم حبورة لذلك التوفيق غير المتوقع. وفيما هم كذلك وإذا بلسان من اللهب يستدير مندلعة إلى المبنى، كما لوكان قد عقد النية في تصميم وعزم على ألايدع شيئاً إلا أتى عليه إحراقا وتدميراً. وسرعان ما تأججت النيران داخله، فبادر ثلاثتهم إلى الهبوط من الطابق الثالث طالبين وجه النفجأة وفي الوقت متسع. فوصلوا إلى الشارع في لحظات خاطفة، ومن عجب أن جميع الشواهد متفقة على أن قطع الأجر المتينة كانت تذوب ذوباناً وتتهاوى في سرعة مذهلة بمجرد ملامسة النار لها. وفي رأيي أن هذه الظاهرة عادية في جميع الحرائق الكبرى لا شذوذ

[1] مثل الشهر العقاري بمصر.

فيها. ذكرها بوضوح تام كل من صمويل بيز، وجون إفلين، في مذكراتهما المستقلة عن حريق لندن الكبير لعام ١٦٦٦. ونراها كذلك منصوصاً عليها في وصف الحريقين الكبيرين بسان فرنسسكولعام ١٨٥١، وبوسطن العام ١٨٧٣.

وجد شبانا الثلاثة طريق التقهقر مسدودا أمامهم، فولوا وجههم شطر مبنى البريد والجمارك ركضا، حتى وصلوا جانبه المواجه للريح من الزاوية المقابلة مباشرة للمبنى المحترق – ويقوم مكانه في عصرنا هذا أول بنك أهلي قضى أصحابنا الثلاثة زهاء ساعة من الزمن يرقصون على الجمر حتى اجتيازهم لهب النيران، فسنحت لهم الفرصة للنفجأة سالكين طريقا دائرية ملتوية وراكضين ما استطاعت أرجلهم حملهم.

وأتت النيران على جميع الكتب والدفاتر والآلات والأدوات في مستودعهم لم تبق على شيء منها.

حدث كل هذا بينما كانت زوجتي في المنزل قد ألبست الطفلين الصغيرين بعض الملابس الدافئة بمساعدة خادمتنا "آني إلم" وهي صديقة ووفية في الوقت نفسه – واختارت لهما من ملابسهما الأخرى مالا يزيد عن ملء كيسي مخدتين اثنتين، ثم جهزت وجبة غذاء خفيفة قوامها القهوة وبعض ما كان حاضرا بالمنزل في هذا الظرف، فطعمنا جميعاً ونحن وقوف حول المائدة تم كل هذا في هدوء تام ونظام رتيب. ولما فرغنا من هذا كله قالت آني الطيبة الزوجي "إذا لم يكن بك حاجة إلى عمل آخر أنجزه يامسز جريلي فأذني إلى في الذهاب إلى منزل شقيقتي لأساعدها على شئون أطفالها".

صافحناها جميعاً مودعين، وسرعان ما هرولت إلى الميدان الثاني الذي يدعوها الواجب إليه، واجب الإنسانية، وقد أفضت إلى آفيفيما بعد بأنها وذويها وجدوا جميع المنافذ المؤدية إلى الجانب الغربي من المدينة قد تحولت إلى جحيم. فاعتصموا مع مئات من اللاجئين بشاطئ البحيرة فوق الرمال، حيث قضوا ليلة حارة داخنة، وعندما لاحت تباشير الفجر رأت على ضوئه منزلنا والمنازل التي لا زالت سليمة لم

ينلها أذى. ولكن ما إن صوبت النظر نحوها كرة أخرى خلال الدخان المعمى، حتى كانت النار قد ارتدت إلى الوراء، وما هي إلا نصف ساعة من زمن حتى كانت جميعها أثرا بعد عين.

كانت الساعة قد أشرفت على الثانية بعد منتصف الليل أوبعد ذلك بدقائق، حينما كان الجوادان بالباب أحدهما مشدود بالعربة ذات المقعدين والثاني إلى العربة ذات الأربعة مقاعد. أركبت زوجي في الأولى مع موريس والطفلين ومربيتهما وهي امرأة في مقتبل الشباب أظهرت من الهلع والزمع ما يجعل الكلام عنها غير ذي موضوع، وكان النظام الذي اعتزمت تنفيذه هوأن أسوق العربة الأولى بنفسي تاركا ابني فردريك ليتبعني بالعربة الثانية ومعه ملابس الطفلين وعربتهما الصغيرة.

وفيما نحن نهم بالسير على هذا الترتيب، وإذا بصديق ريتشارد بنس المهندس مصلحة الأشغال العمومية ظهر ففجأة، فكان مقدمه مبعث غبطة وارتياح لي. كان هذا الصديق يقيم بالجانب الغربي بمعزل عن مسرح الحريق، وقد جاء ليعرض مساعدته وخدماته.

تطوع صديقي بسوق العربة الأولى إلى منزل المستر وليم. هـ.كلارك بشارع ديربورن بالقرب من ميدان بيرثون. بينما أعدت إلى المنزل ومعي فردريك لنلقي نظرة أخيرة على محتوياته، ونرى إذا كنا نستطيع حمل شيء آخر معنا.

مرقنا من البهوحيث وقع نظرنا على الكتب والصحف التي كنا نقرؤها في المساء السابق، وكانت لا تزال على المائدة كما تركناها، ثم ألقينا نظرة على حجرة الطعام وعلى المائدة المفروشة لوجبة فطور لم يقدر لنا أن نطعمه. ومن ثم هبطنا إلى البدروم حيث استرعى انتباهي منظر الخزانة الحديدية. فتذكرت ففجأة ما تحويه من أوانينا الفضية وعن لي أنه قد يكون في مقدورنا استخلاصها.

كانت الإضاءة الغازية قد تعطلت تماماً، ولكني على ضوء عودين من الثقاب استطعت فتح الخزانة وجذب محتوياتها، ووضعها في مفرش مائدة الطعام الذي انتزعته

من مكانه ثم حملته إلى العربية. وفي هذه اللحظة وصل صهري وهويلهث حاملا فوق ظهره حزمة ضخمة ألقاها على عتبة الدار. وهي تحوي أواني فضية وصينية يقدر ثمنها بألف دولار، تركت بمنزله حينها أسرع أفراد أسرته إلى الهرب ببعض متاعهم في عربتهم. وضعت حزمة صهري فوق حزمتي في العربة وبادرنا إلى الفرار لا نلوي على شيء، إلا أنني تذكرت والألم يحز في نفسي أننا قد تركنا وراءنا عصفور الكناريا داخل قفصه المعلق بإحدى نوافذ الطابق الأعلى وهوغافل عن مصيره المحتوم.

كان شارع "إري" الذي تقع فيه واجهة منزلي كتلة من اللهب عن يسارنا فاتجهت شمالا مارقا في شارع "سان كاير"، ولكن الشارع الذي يليه، وهوشارع "هيرون" كان مسدودة، إلا أن شارع "سيبريور" كان يبدوأقل أحتد أما بالنيران فلت غربا إليه. وفي شارع "ستيت" وجدنا الكنيسة الكاثوليكية العظمى حاملة الاسم المقدس تحترق، بينما كان برجها الشامخ يتساقط أنقاضاً، وحينما اتجهنا شمالا إلى شارع "ديربورن" التفت خلفي فوجدته يتمايل كأنما هوعلى وشك أن يهوى إلى الأرض.

أظن أننا كنا آخر من لاذ بالفرار من أهل حينا، لأن المرحوم المستر ادوارد. ا. تكام، من أصحاب البنوك في حي مجاور لنا أخبرني فيما بعد بأنه جاء إلى منزلي ليطلب إلى مساعدته على إنقاذ حقيبته الضخمة المشحونة مستندات حكومية وودائع تبلغ قيمتها حوالي مليون دولار. فقال أحد الواقفين قرب المنزل بأني رحلت مع أسرتي في عربتينا منذ لحظة وكان أحد أصحاب الدواب ممن يقطنون قرب منزلي قد أخذ يشددوا به إلى عربة نقل ضخمة ملأ شطرة منها بأثاث بيته، فعرض عليه المستر تنكام ألف دولار لقاء استئجار عربته ودوابه لتلك الليلة. ولكن الرجل رفض قائلا " إن هذه العربة لأسرتي ولكن عندي عربة بأربعة مقاعد وجواد يجرها وسائق كذلك، لك أن تستعملها ما طاب لك الانتفاع بها. تم الاتفاق بين البنكير وصاحب الدواب لحملت الحقيبة بكنزها الثمين إلى العربة وسائقها الأسود.

وجد البنكير جميع سبل الفرار مسدودة في وجهه بتأجج النيران غربا وشمالا،

فقصد بأسرته وكنزه الثمين إلى شاطئ البحيرة القريب، ومن ثم إلى المرسى الشمالي على النهر، وفي عصر اليوم التالي انتقلوا إلى مأمن آخر على ظهر رفاص اتفق مروره بتلك الجهة بعد حصار اثنتي عشرة ساعة. وأما فيما يتعلق بي وبابنى فردريك فقد انضممنا إلى الجموع الزاخرة وسيل العربات من كل نوع وحجم، وإلى الساعين على أقدامهم يتلمسون أبواب النفجأة مولين وجوههم في جنون ولهفة صوب الجانب الشمالي إلى أي مكان معلوم أومجهول، يعتصمون فيه من هذا الجحيم المستمر، وسرعان ما وصلت أنا وابني منزل المستر كلارك، حيث وجدنا باقي أفراد أسرتنا ومعهم خليط من الناس جاءوا ينشدون معصما من النار. بعضهم بينهم وبين مضيفنا أواصر الصداقة أوالمعرفة، وبعضهم وهم الشطر الأكبر لا يمتون إليه بسبب.

مد قنطرة فوق الهلسبونت (الدرنيل)

هيرودوت

تحدى الإنسان الطبيعة ببناء القناطر والمعابر منذ قرون – قناطر ومعابر تكلف بناؤها أرواحا عديدة، خلد الزمن بعضها فلا يزال لها حتى يومنا هذا نصيب من الشهرة وذيوع الصيت "كمعبر لندن"، ومعبر بروكاين، ومعبر القرن الذهب، إلا أن هذه الأخيرة كاها معابر ثابتة. أما القنطرة التي وصفها هيرودوت المؤرخ الإغريقي والرحالة القديم، فقنطرة حربية أنشئت لهدف معين لم تلبث أن أزيلت من مكانها بعد فترة قصيرة من الزمن.

***

أعد "خشيار شاى" العدة للزحف على "أبيدوس" حيث القنطرة الممتدة من آسيا إلى أوروبا عبر الهلسبونت. كان قد تم إنشاؤها أخيراً. وكان في منتصف الطريق بين مدينتي "سستوس" و"ماديتوس" في القرن الذهبي بالهلسبونت لسان بري صخري يمتد في البحر بعض الامتداد من ناحية أبيدوس، وهوعين المكان الذي أخذ الإغريق فيه بعد فترة قليلة من ذلك العهد تحت قيادة أكزانيوس ابن أرفرون أرتيكتيس الفارسي حاكم سستوس وصلبوه حياً مستمراً إلى لوح سميك من الخشب. وكان أرتيكتيس هذا هوالذي حمل النساء إلى معبد "بروتيسلاوس" في "إلاوس" مرتكباً أبشع الجرائم ومنتهكا أقدس الحرمات.

فمن أبيدوس إلى هذا اللسان قام الرجال الذين وكل إليهم العمل بإنشاء قنطرة مزدوجة أنشأ الفينيقيون فرعا منها بالحبال المصنوعة من الكتان الأبيض، بينما أنشأ المصريون الفرع الآخر بالحبال المصنوعة من ألياف البردي.

كانت المسافة بين أبيدوس والساحل المقابل سبعة "فيرلونجات"[1] ولكن ما إن فرغ العمال من مد القنطرة فوق الخليج بنجاح حتى هبت عاصفة هوجاء أطاحت بالقنطرة وحطمتها تحطيماً.

وحينما نمى الخبر إلى خشيار شاى تملكه الغضب وأصدر أوامره في الحال بأن يجلد الدردنيل ثلاثمائة جلدة وأن يلتقي فيه زوج من القيود. أجل! ولقد سمعت فوق ذلك أنه أمر بأن تحمى قضبان من الحديد ويكوى بها الدردنيل.

غير أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أنه أمر الجلادين أن يسبوا المياه ويلعنوها وهم يجلدونها بالسياط بهذه الكلمات البربرية، الوحشية، الشريرة: وأنت أيتها المياه المرة! إن سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أسأت إليه بغير سبب وبدون أن ينالك منه أذى. إن الملك خشيار شاى سوف يجتازك رضيت أم لم ترضى. إنك لا تستحقين أن يشرفك أحد بتقديم القرابين لأنك في الواقع "نهر" غدار كريه المذاق. وبينما كان البحر يجلد صدوعا بأمره، كانت رءوس متعهدي البناء تقطع بأمره كذلك.

عهد بعد ذلك إلى أولئك الذين كانوا بتلك العملية البغيضة، إلى عدد من البنائين في إنشاء القنطرة من جديد، فأتموا بناءها على الصورة التي سأشرحها.

ضموا سفنا لها ثلاث طبقات من المجاديف بعضها إلى بعض، ومعها سفن ذات خمسين مجدافًا. ثلاثمائة وستون منها التركيز جانب من القنطرة فوقها من ناحية بحر "يوكسين" (البحر الأسود) وثلاثمائة وأربع عشرة سفينة للجانب المقابل، وقد وضعوها جميعاً بحيث تكون زاوية قائمة مع البحر في اتجاه تيار الدردنيل، وبذلك يخف الضغط على الحبال الممتدة من الساحل، ولما فرغوا من ضم السفن بعضها إلى بعض أحكموا إرساءها بمراسي ضخمة كبيرة الحجم، حتى تستطيع السفن المواجهة البحر الأسود مقاومة الرياح القادمة من داخل الخليج، وحتى تستطيع سفن الجانب الغربي من

---

[1] وهو ثمن ميل (٢٢٠ ياردة).

القنطرة في مواجهة بحر "إيجا" أن تصمد أمام هبوب الرياح القادمة من الجنوب، والجنوب الشرقي، وتركت بين صفوف السفن الحسينية (أي ذات الحسين مجداًفا) خوات فيما لا يقل عن ثلاثة أمكنة مختلفة، ليسهل على السفن الخفيفة الدخول إلى البحر الأسود أوالخروج منه كلما شاءت. وعندما تم كل هذا شدت الحبال إلى الشاطئ وثبتت بونشات خشبية. وفي هذه المرة لم يستعمل كل نوع من الحبال على حدة كما في المرة السالفة، ولكن خصص لكل قنطرة من القنطرتين ستة حبال، اثنان منها من الكتان الأبيض وأربعة من البردي، على أن الحبال الكتانية كانت أكثر النوعين ثقلا، إذ بلغ وزن الذراع منها ما لا يقل عن سبعة وستين رطلا.

ولما كمل مد القنطرة عبر الخليج، اتخذت من جذوع الأشجار ألواح سميكة بعرض القنطرة، وضعت جنبا إلى جنب فوق الجبال المشدودة، ثم أحكم رباطها من فوق، وعند ما تم ذلك جيء بنشارة الخشب فوضعت فوق الجذوع، تم هيل فوقها الطين ودك حتى صار كتلة سميكة متينة، وفي النهاية أقيم شبه سورين على جانبي هذا المهيع[1] لهما من الارتفاع مايحول دون رؤية الخيول ودواب الحمل والجر للماء كي لا تجفل.

والآن بعد أن تم إعداد كل شيء: القنطرة والأشغال عند سفح جبل "آتوس"[2] والحواجز لمنع الأمواج المتكسرة بين الشاطئ والصخور من سد المداخل، أبلغ خشيارشاي الخبر فسرع بعد لأي في الزحف بجيشه العرمرم الجرار صوب "أبيدوس" عند أول حلول الربيع، وكانوا قد را بطوا طيلة الشتاء "بسرديس"، وما إن بدأت الجيوش مسيرها حتى تركت الشمس ففجأة عرشها في السماء واحتجبت، وإن لم تكن هناك سحب، بل كانت السماء صافية هادئة، وهكذا انقلب النهار إلى ليل دامس، فهال خشيار شاى ما رأى من ظهور هذه المعجزة وتملكه الفزع، وأرسل من فوره في حضور المنجمين، وسألهم تفسير هذه الظاهرة فأجابوا: "إن الله ينذر الإغريق بالويل

---

[1] الطريق البين.

[2] وهو المعروف الآن باسم (سانتو).

وتقويض دعائم مدنهم، لأن الشمس تتنبأ للإغريق، وأما نحن فينبئنا القمر، فارتاح خشيار شاي إلى ما سمع من المنجمين وسرى عنه واستأنف زحفه مسرورة مثلج الصدر.

كانت الجيوش قد شرعت في زحفها حينما مثل " بثيوس" الليدي[1] بين يدي خشيار شاى، وقد ملأت الظاهرة السماوية قلبه رعباً وقال له متشجعاً لما كان يعلمه من تقدير خشيارشاى لمواهبه "أيها الملك إنني جئت أطلب منك أمرآ هو بالنسبة إليك هين يسير ولكنه بالنسبة لي ذوأهمية عظيمة. وكان خشيار شاي لا يرى بأسا من منح بشيوس ما قد يطلبه منه، وهوبعد هذا كله شيء هين عليه فوعده بإجابة سؤاله وتحقيق أمنيته، وأمره أن يفصح عما يريد. فقال بثيوس في جرأة وإقدام أيها الملك إن بثيوس خادمك المطيع له من الأولاد خمسة، شاءت الصدف أن يكونوا جميعاً بين صفوف هذا الجيش الزاحف على الإغريق، وإني لأضرع إليك أن ترحم شيخوختي وتهب لي واحدة من أولادي، وليكن أكبرهم سنة ليقوم بأمري ويرعى مصالحي ويصون ثروتي وخذ معك الأربعة الآخرين، وحينما تفرغ من طلبك وتحقيق ما يصبوإليه قلبك عد إلينا سالما غانما".

ولكن خشيار شاى ثارت ثائرته، واستبد به الغضب، وأجابه بقوله أيها الشقي: أتجرؤ على الكلام عن ابنك بينما أنا نفسي أسير إلى الإغريق ومعي أولادي وإخوتي وأقاربي وأصحابي؟ أنت يا من هوعبدي وملك يميني، والذي يفرض عليه الواجب أن يتبعني بجميع أهل بيته دون استثناء زوجه! اعلم أن روح الإنسان تقيم في آذانه فإذا طرق سمعه الشيء الحسن امتلأ جسمه على الفور غبطة وسروراً، وإذا طرق سمعه نقيض ذلك يغلى صدره، ويفور وجداً وغضباً. وأنت حينما كنت تقوم بجلائل الأعمال وتخلص النصح لم يكن في مقدورك أن تفخر بأنك قد برزت الملك حسن تقدير وسخاء مكاففجأة، ولكنك الآن وقد تغيرت وقبح تصرفك فلن يكون إحساني

---

[1] نسبة إلى ليديا، إحدى مناطق آسيا.

عليك على قدر استحقاقك ولكن أنقص قليلا، فما كان من أمرك وأمر أربعة من أولادك فسيظل في رعايتي، ولكن فيما يتعلق بابنك الذي تتمسك به أكثر من الآخرين فإن حرمانه من الحياة سيكون عقابك".

وما إن فرغ الملك من كلامه حتى أصدر أمره إلى من يقومون بهذه الأعمال، ليبحثوا عن أكبر أبناء بثوس ويشقوه نصفين يعلق كل شطر على جانب من جانبي الطريق العظيمة حتى يتسنى للجيش المرور بهما في زحفه وعبوره.

نفذت أوامر الملك وتقاطر الجيش بين شتى الجيفة. سار في الطليعة حمالوالأمتعة فدواب الحمل، خلائق شتى من مختلف الأمم في جموع زاخرة لا فاصل بينها، ولا فترات بين حشد وحشد. ومنهم كان يتألف نصف الجيش، وبعد هذه الكتائب الرجراجة ترك فراغ ليفصل بينهم وبين الملك. سار أمام الملاك في المقدمة ألف فارس من فوة أمة الفرس، ثم ألف راجل على غرارهم من خلاصة الفرس وهم يحملون الرماح وأطرافها إلى الأرض، ثم جاء بعد ذلك عشرة جياد من الجياد القمة مهمة ومزينة أحسن زينة وتسمى هذه الجياد بالنيسانية نسبة إلى سهل نيسان وهوسهل فسيح مترامي الأطراف في "ميديا" تأتي منه أفراس عظيمة الحجم.

وبعد الجياد العشرة المقدسة جاءت عربة المشتري المقدسة تجرها ثمانية جياد ناصعة البياض، وسائقها يمشي على الأرض خلفها وبيديه أعنتها، لأن ركوب العربة محرم على كل مخلوق. وبعد ذلك جاء خشيار شاى نفسه في عربة تجرها جياد نيسانية وقد وقف سائقها إلى جانبه وهو"باتيرامفيس ابن أوتانيس" من أبناء الفرس. هكذا ركب خشيارشاى من ساردس ولكنه كان معتادا أن ينزل من عربته في الفينة بعد الفينة، كلما راق له ذلك؛ ليحمل فوق سرير أومحفة. وخلف الملاك جاءت كتيبة من أنبل فرسان الفرس وأشجعها ومعهم الرماح يحملونها على الطريقة المعروفة، ثم ألف فارس من المعدودين، ثم عشرة آلاف من نخبة المشاة. من بينهم ألف جندي من حملة الرماح، وقد ركبت في كعوبها رمانات من الذهب، وهم يحفون بالتسعة آلاف الآخرين وقد ركبوا في كعوب رماحهم رمانات من الفضة. وكذلك كانت الحال مع المشاة

الألف الذين تقدموا عربة الملك ممن كانوا يحملون رماحهم وأطرافها إلى الأرض، فإن كعوب رماحهم كانت على صورة رمان من الذهب، بينما كانت كعوب رماح الفرسان الألف الذين جاءوا بعد عربة خشيارشاى مباشرة على صورة تفاح من الذهب. وجاء بعد كتيبة المشاة الزاحفة خلف عربة خشيارشاى والتي بلغ قوامها عشرة آلاف راجل كتيبة من الفرسان عددها عشرة آلاف أيضاً، وبعد ذلك ترك فراغ المسافة أربعمائة متر جاء بعدها ما بقي من الجيش، وهوخليط من جماعات الناس من كل جنس. كان مسير الجيش بعد مغادرة ليديا في اتجاه نهر "كايكاس" مباشرة وأرض ميزيا، وكانت الطريق بعد كايكاس تمر بجبل دكانا، الواقع إلى غربها ثم تخترق سهل اتزنيان حتى مدينة كارينا. وبعد ذلك زحف العسكر مجتازا سهل " طيبة، مارة بأودرامتيوم ثم خلف جبل "أيدا" إلى ناحيته اليسرى، ودخل في أراضي طروادة. منى الفرس خلال هذا السير بعض الخسائر لأنهم حينما قضوا ليلتهم في العراء عند سفح جبل أبداً هبت عليهم عاصفة هوجاء وأرعدت السماء وأبرقت وانفجرت فوقهم صاعقة قتلت منهم عددا غير قليل.

تسلق قمة افرست

سير إدموند هيلاري

في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو لعام **١٩٥٣** تسلق "أدموند هيلاري"، وهو رحال نيوزيلندي برفقة " تنزنج نوركى" الحمال المرشد المحنك جبل إفرست حتى شعفته. وهي أول مرة يبلغ فيها أحد قمة ذلك الجبل الأهم، أكثر جبال المعمورة ارتفاعا على الإطلاق، وقد ذاع صيت هيلارى ورئيس لجنة التسلق الكولونل "جون هنت" في مشارق الأرض ومغاربها يوم تسلق هذا الباذخ الشامخ، ورفعتهما الملكة "اليصابات الثانية" إلى مرتبة الفروسية عشية يوم تتويجها مكافأة لهما على ما أحرزاه لإنجلترا من شرف السبق في هذا المضمار. وتمت آخر مرحلة لتسلق القمة من قاعدة أمامية ارتفاعها إحدى وعشرون ألف قدم. وبها خضع أشيخ الجبال لإرادة الإنسان وطموحه المتواصل للسمو والغلبة، لا لشيء جوهري، ولكن لمجرد أنه أراد ذلك.

***

وصلت حملة التسلق المؤلفة مني ومن "تيزنج" مركز المخيم السابع على ارتفاع أربع وعشرين ألف قدم المضروب عند ريده المعروف باسم "لهوست" بعد رحلة تصعيد استغرقت ثلاث ساعات وربع الساعة من قاعدة المخيم الرابع الأمامية القائمة تحتنا بألفين وثمانمائة قدم، وهنا وجدنا فريق الحملة المساعدة "جورج لو"، و"ألفريد جريجوري" في انتظارنا مع الحمالين الثلاثة "آنج ينما وانج تمبار وبامبر" الذين كنا نرجو أن يكونوا على استعداد لحمل مخيم لنا إلى نقطة أكثر ارتفاعا من ناحية حافته الجنوبية الشرقية، وكان معنا إلى جانب هؤلاء خمسة حمالين لحمل مهماتنا الثقيلة إلى نهاية الممر الجنوبي وبعد ذلك يهبطون إلى مخيم أقل ارتفاعا.

وبعد أن قضينا ليلة نعمنا فيها بنوم هادئ–إذ كنا أربعتنا قد استعملنا غاز الأكسجين أثناء النوم– أخذنا طريقنا في الصباح التالي شطر الممر الجنوبي. وما وافت الساعة على منتصف العاشرة حتى كنا قد بلغنا ذروة "لهوست الثلجية" أوكدنا، حانت منا التفاتة إلى الحافة الجنوبية الشرقية فلمحنا أشباحا صغيرة جداً تتحرك فوقه. كانت الأشباح " أفن" و"بورديلون" في أول صراعهما مع الجبل، والكولونل "هنت" رئيس الحملة و"دانمجيال" الحمال وهو يحمل طعاما وغاز أكسجين لاستعمالنا في المستقبل، وكنا نتابع بأنظارنا من مكاننا تحركهم الذي يكاد يكون متواصلا، أثناء اجتيازنا الخبت الممتد تحت "لهوست" (إلى الشعب الجنوبي).

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر راعنا رؤية "افتر" و"بورديلون" يختفيان فوق الذروة الجنوبية قبل أن تتلاشى صورتهما تماما وراء السحب العابرة. كان "هنت" و"دانمجيال" قد شرعا في هذه الأثناء يهبطان وئيدا إلى مخيم الشعب الجنوبي. ولاحظنا أنهما يعانيان شيئاً من الكرب والشدة، فصعدنا للقائهما ومساعدتهما. كانا في حالة إعياء شديد، ولا عجب! "فهنت" لم يفتأ طيلة الرحلة يبذل مجهودا رائعا جبارا، وحمل المؤن والمعدات صاعدا بها مائة وخمسين قدما أو نحوها إلى ما فوق مخيم حافة الجبل العتيقة المعروفة بالسويسرية التي ترتفع إلى مستوى ٢٧.٣٥٠ قدما. وكانا قد هبطا كلاهما دون أن يصحبا معهما شيئاً من غاز الأكسجين رغبة منهما في توفير ما يستطيعان توفيره منه للمرحلة النهائية في الصراع مع هذا الجبل الشامخ.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر لاح لنا شبحا "افز" و"بورديلون" من خلال الضباب على الحافة الجنوبية الشرقية، وهما يتحركان في بطء شديد. منحدرين مع ريد الجبل في الممر المؤدي إلى الشعب الجنوبي. وبديهي أنهما كانا في حالة بالغة من التعب بعد المجهود الجبار الذي بذلاه، فصعدنا للقائهما حاملين إليهما بعض الشراب الساخن ثم رافقناهما إلى المخيم. وقد أكدا بأنهما قد نجحا في الوصول إلى الذروة الجنوبية على ارتفاع ٢٨٧٢٠ قدما – وبذلك يكونان قد صعدا في الجبل إلى ارتفاع يربو بكثير على كل ما وصل إليه الإنسان من قبل. وذكرا أيضاً بأن ريد الجبل حتى

نهاية الشعفة يبدو غاية في الوعورة.

يندر أن يكون الشعب الجنوبي مقاما يبهج النفوس أو يشرح الصدور، ولكنه في هذه الليلة بالذات، السادسة والعشرين من شهر مايو، كان شديد الوطأة على جميع أفراد الجملة. فكانت الريح فيه عاتية شديدة البرد، قلما ذاق منا أحد فيها للنوم طعما. ولما أصبحنا كانت الريح لا تزال تهب شديدة هوجاء حتى أيقنا بأنه من العبث بل من المحال الإقدام على تسلق الجناح الجنوبي الشرقي. فكل حركة حتى بين خيامنا القريب بعضها من بعض، على الرغم من أدثارنا بأكثر ملابسنا دفأ، كانت عملا شاقا مضنيا. وحينما بزغ النهار خفت حدة الريح قليلا ولكنها كانت لا تزال شديدة جداً. وكان "هنت" و"افنز" و"بورديلون" في حالة ضعف شديد نتيجة ما بذلوه في اليوم السابق من جهد. بيد أنهم كانوا على استعداد للهبوط إلى المخيم السابع. أما "آنج تمبار" فقد اعتلت صحته، وكان من الواضح أنه عاجز عن حمل أي شيء مما يحتاج إليه في استئناف الصعود فقررنا نزوله أيضاً إلى المخيم وقد قمت مع وللو، بمراقبة الرجال الأربعة المنهوكي القوي ومساعدتهم على تسلق المنحدرات، ثم راقبناهم وهم يهبطون في بطء ومشقة –نظرة لما هم فيه من الإعياء الشديد– إلى المخيم السابع.

هبت الريح هوجاء غاضبة طيلة اليوم وكنا قد أخذنا نحزم المؤن في شيء من التخاذل، وما سوف نحتاج إليه من أدوات في اليوم التالي لإقامة المخيم فوق ريد الجبل. وساءت ليلتنا كرة أخرى بسبب هذه الريح الثائرة ولكنها ما فتئت أن خفت حدتها كثيرا قبيل الصبح مما جعل الشروع في مواصلة الصعود مستطاعا. على أننا سرعان ما منينا بكارثة جديدة. فقد اعتلت صحة "بامبر" أثناء الليل اعتلالا عنيفا ولم يجد في نفسه القدرة على الصعود. وبذلك لم يبق لنا من فرقة الحمالين الثلاثة الأصليين سوى حمال واحد، "انجانيما" لحمل أدواتنا ومؤننا. فلم يكن أمامنا والحالة هذه إلا إحدى حالتين، إما أن نحمل مخيمنا بأنفسنا وإما أن نعدل عن المحاولة، والعدول أمر لا يمكن أن يمر لنا بال. لذلك حزمنا أدواتنا مستبعدين كل ما يكن حمله حيويا.

ولم يكن بد من إنقاص مؤنا من الأوكسجين. وفي الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ صباحا رحل "لو" و"جريجورى" و"آنج نيما" يحمل كل واحد منهم حزمة يربو وزنها على أربعين رطلا، وكانوا يتنفسون غاز الأوكسجين بمعدل أربعة لترات في الدقيقة.

حزمت أنا و"تنزنج" ملابسنا الخاصة وأكياس النوم والمراتب الهوائية وبعض الطعام، ووضعنا الجميع فوق إطارات الأوكسجين وبدأنا رحلتنا في الساعة العاشرة صباحا، حاملا كل منا فوق ظهره مالا يقل وزنه عن خمسين رطلا، ثم صعدنا في رفق وتؤدة فوق المنحدرات حتى سفح الممر الأعظم، ومن ثم أخذنا نصعد أدراج سلم حقيقي نحته "لو" في الجليد الصلب الشديد الانحدار، فوصلنا الريد ظهرا حيث انضممنا إلى بقية الرفاق، وكانوا قد جلسوا ليستريحوا غير بعيد عن موضع الخيمة السويسرية المقامة في الربيع السابق، والتي قد عفت عليها الرياح والثلوج أوكادت. كان الموضع رائعا وكانت المناظر من حولنا حينما سرحنا البصر آية في الجمال والروعة، مما أغرانا بتصويرها والتقاط المناظر بغير حساب. وبعد ذلك رفعنا أحمالنا إلى ظهورنا من جديد واستأنفنا المسير مصعدين في ريد الجبل مسافة مائة وخمسين قدما أخرى، حتى وصلنا المكان الذي اختزن فيه "هنت" بعض المؤن من يومين خلوا.

أصبحنا الآن على ارتفاع ٢٧٣٥٠ قدما، ولكننا اعتبرنا هذا الارتفاع دون المستوى الذي يسمح لنا بضرب مخيم يكون نقطة البداية لحملة صادقة تصل بنا إلى القمة، ولما كنا جميعاً على جانب من النشاط في ذلك اليوم فقد استقر عزمنا على أن نزيد من أعبائنا قليلا تحمل المؤن الإضافية التي وجدناها. فحمل "جريجورى" بعض الأوكسجين الإضافي و"لو" مزيدا من الطعام والوقود بينما احتملت أنا الخيمة، وبذلك أصبح كل واحد منا يحمل ما بين خمسين وستين رطلا، باستثناء "آنج نيما" الذي لم يزد حمله على أربعين رطلا أو فوق ذلك بقليل، ومن ثم واصلنا السير بخطى أقل بسرعة مصعدين فوق حافة الجبل التي كانت شديدة الانحدار بيد أن الطبقة الصخرية في طريق الصعود جعلت موطئ أقدامنا أكثر ثباتا. على أن ذلك لم يعفنا من ضرورة تمهيد مواقع لأقدامنا في بعض المواضع. والواقع أن تقدمنا كان سهلاً ميسوراً

على العموم وإن تكن بعض الثلوج غير الثابتة فوق الصخور الضخمة كانت تقتضينا شيئاً من العناية وغير قليل من الحذر. وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر حتى كنا قد بدأنا نشعر بالتعب تحت وطأة أحمالنا الثقيلة وشرعنا ننظر حولنا لنتخير موضعا صالحا نضرب فيه خيامنا. غير أن الريد لم يكن في حافته حتى القمة أي تجويف أو خبت. فواصلنا السير باحثين عن شيء من هذا أو عن رف في جانبه ولكن بغير طائل. وما إن بدأ اليأس يتسرب إلى نفوسنا حتى تذكر "تنزنج" موضعا اتخذ لهذا الغرض في العام السابق، واقترح أن نعبر فوق بعض المنحدرات العميقة إلى يسارنا، فعلنا حتى وصلنا إلى رقعة مستوية نسبيا تحت سقف صخرة ضخمة.

كانت الساعة قد بلغت منتصف الثالثة بعد الظهر فاستقر رأينا على ضرب خيامنا في هذا المكان للمبيت، وقد قدرنا ارتفاعه بنحو من ٢٧٩٠٠ قدم، فألقى الحمالون الثلاثة "لو" و"جريجورى" و"آنج نيما" أثقالهم عن كواهلهم وهم يتنفسون الصعداء. لقد أجهدهم التسلق ونال منهم التعب، ولكنهم كان يغمرهم الشعور بالرضى لما قطعناه في ذلك اليوم من مسافة، وحمناه من ارتفاع في الجبل، والحق أنه كان لهم الشطر الأكبر من الفصل فيما وفقنا إليه من التسلق في اليوم التالي. ولم يضع الحمالون الثلاثة الوقت سدى فأسرعوا بالعودة إلى الممر الجنوبي. وخلعت أنا "وتنزيج" جهازي الأكسجين ادخاراً لما بقي لنا من هذا الغاز وشرعنا نمهد لنا بفؤوسنا مصطبة صغيرة نرقد فوقها، فعرينا منحدرا صخريا مما يكسوه من الجليد فكان أشبه بزاوية مثلث تبلغ ثلاثين درجة. وكانت الصخور متماسكة من كثرة ما فوقها من الثلوج وشدة البرودة، ولكننا استطعنا بعد جهد جهيد دام ساعتين من الزمن أن نقلقل ما يكفي من الحجارة لتسوية رقعتين عرض كل منها ثلاث أقدام وطولها ست أقدام، وكانت إحداهما تنخفض عن مستوى الأخرى بنحو قدم واحدة. وكان هذا كل ما استطعنا عمله بل أحسن ما استطعنا أن نعمل ومن ثم نصبنا خيمتنا فوق هذا الحيز المزدوج وشددنا حبالها وثبتناها محتالين لذلك ما وسعتنا الحيلة. وبينما راح تنزنج يغلي شيئاً من الحساء عملت أنا من جانبي إلى قياس مؤنتنا من الأكسجين، فوجدتها

أنقص بكثير مما كنت أرجو. فكل ما بقي لدينا في محاولتنا قهر هذا الجبل القهب زجاجة وثلثا زجاجة لكل منا. وكان من البديهي أنه لو قيض لنا من الجلد وقوة الاحتمال ما نستطيع من المثابرة على التصعيد في الجبل، لاستحال علينا استهلاك أربعة لترات من الأكسجين في الدقيقة كما قدرت أول الأمر. وأما إذا انقصت المقدار إلى ثلاثة لترات في الدقيقة فقد يكفينا ما بقى لدينا – مع شيء من حسن الحظ – لذلك قمت بضبط الجهاز لثلاثة لترات بدلا من أربعة في الدقيقة ومن حسن التوفيق أن "أفانز" كان قد ترك زجاجتين على ارتفاع بضعة مئات من الأقدام فوق مخيمنا وكل منهما مملوءة إلى ثلثيها بالأكسجين. وكان جل اعتمادنا على هاتين الزجاجتين لإسعافنا في طريق العودة إلى الممر الجنوبي.

وفي المساء هدأت الريح تماما أو كادت إلا من هبات استثنائية شديدة عاصفة كل عشر دقائق. شربنا في هذه الليلة كميات كبيرة من السوائل وطعمنا مما كان معنا من علقة ومسكية (سردين فوق قطع من البسكوت) ومشمش محفوظ وبلح وبسكويت ومربى وعسل. وكان تنفسنا طبيعيا بالرغم من ارتفاعنا العظيم عن الأرض ولكن ما نكاد نقوم بأي مجهود حتى نشعر بضيق في التنفس ونلهث قليلا.

وضع "تنزنج" مرتبته الهوائية على الرف الأسفل من المصطبة وقد تدلى شطرها فوق المنحدر العميق تحتنا، وراح يغط في نوم هادئ، بينما تلمست أنا أقصى ما يستطاع من رقدة مريحة نسبيا فوق الرف الأعلى بين جالس ومضطجع متخذا لقدمي موضعا فوق الرف الأسفل. ومن فوائد الرقاد على هذه الصورة –وإن يكن أبعد ما يكون عن الراحة– أنه كلما أنذرتني زفزفة الريح باقتراب العاصفة استطعت أن أساعد بقدمي ومنكبي أوتاد الخيمة الضعيفة الواهية على الثبوت في مواقعها أمام تصفيق الرياح المؤقت للخيمة الهزيلة بصورة تثير الهلع في النفوس.

لم يكن لدينا من الأوكسجين ما يمكن الاستغناء عنه في أثناء النوم سوى ما يكفي لأربع ساعات، بمعدل لتر واحد في الدقيقة، فقسمناه على فترتين، تستغرق كل منهما ساعتين من الزمن، تمتد الفترة الأولى من التاسعة إلى الحادية عشرة مساء، وتمتد

الثانية من الثالثة إلى الخامسة صباحا وكان نومنا ونحن نتنفس الأوكسجين هادئا مريحا إلى حد ما، ولكن بمجرد نفاد زادنا منه كنا نشعر بوطأة البرودة القاسية ويغمرنا شعور بالتعاسة، وهبط مقياس الحرارة في أثناء الليل إلى ست عشرة درجة مئوية تحت الصفر، ولكن كان من حسن حظنا أن الريح أيضاً وقف هبوبها. وفي الرابعة صباحا كانت حالة الطقس في غاية من الكمال، وعند ما فتحت باب الخيمة كان المنظر آية في الروعة يعجز عنه الوصف، وكانت القمم من تحتنا تلمع في وضوح وهي تشمخ فوق وديانها القائمة التي ما يزال لونها قاتما في ذلك الوقت، وأشار " تنز نج، في جذل إلى دير "ثيانجيوش" وهو رابض في مقره يشرف من عليائه على كل ما حوله، ولم يكن واضح المعالم في ذلك الوقت المبكر من الصباح، على أننا كنا قد ارتفعنا عن مكانه بنحو من ستة عشر ألف قدم. ولم تلبث أن أشعلنا الموقد لأننا كنا قد بيتنا النية على احتساء كميات كبيرة من عصير الليمون الساخن بعد إضافة شيء من السكر إليه لمنع جفاف السوائل في جسدينا ثم أتينا بعد ذلك على آخر علبة كانت معنا من السردين والبسكويت.

وما إن فرغنا من ذلك حتى سحبت جهازي الأوكسجين داخل الخيمة، ومحوت ما كان قد تراكم فوقهما من الجليد، ثم ضبطت آلاتهما واختبرت صلاحيتهما. وبعد ذلك ارتدينا معاطفنا الواقية من الريح فوق ما كنا نرتديه من ملابس مبطنة بالريش، ثم سحبنا فوق أيدينا ثلاثة أنواع من القفازات، حريرية فصوفية جلدية واقية من الريح. وأخيرا حبونا من الخيمة في السادسة والنصف صباحا زاحفين فوق الثلوج بعد أن وضع كل منا على ظهره جهاز الأوكسجين، الذي لا يقل وزنه عن عشرين رطلا ثم أحكمنا اتصالها بقناعينا، وفتحنا الصمامات لتملأ رئتينا من هذا الأوكسجين – أس الحياة ومادتها.

وعمد "تيزنج" إلى تمهيد خط من الدرج العميق في الثلج الهش المسحوق كالتراب، مبتعدا عن الصخرة التي أظلت خيمتنا، ومنحرفا إلى يسار الريد الأساسي، بينما راحت الشمس تغمره بطوفان من أشعتها الذهبية مما أتاح لنا رؤية أول أهدافنا

الشعفة الجنوبية. وهي تطل علينا من عرشها العالي البعيد. كان " تيزنج" ماضيا في تمهيد الدرج بإصرار ومثابرة في خط طويل إلى الوراء صوب الريد، فاستطعنا بذلك الوصول إلى سنده حيث يبدو فيه نتوء ظاهر، عند ارتفاع ثمانية وعشرين ألف قدم.

وهنا بدأت حافة الجبل تضيق حتى صارت كحد المدية فتزعمت القيادة، وكنا نسير ببطء ولكن بصورة رتيبة محتفظين بشيء كثير من نشاط احتياطي مختزن- كما كانت الثلوج هشة متخلخلة فوق حافة الجبل مما جعل شق طريق فيه أمرا عسيرا محفوفا بالأخطار؛ لذلك انحرفت قليلا إلى اليسار حيث كانت الريح قد كونت قشرة رفيعة من الجليد وكانت هذه القشرة من الصلابة أحياناً بحيث تستطيع حمل ثقلنا، ولكنها كثيرا ما كانت تميد تحت أقدامنا فجأة، حتى يختل توازننا، وتضعف قوتنا، وما إن قطعنا عدة مئات من الأقدام حتى صلحت الحافة للسير فجأة، أو على الأقل تضاءل خطرها، وعثرنا على زجاجتي الأوكسجين اللتين خلفهما "افز" و"بورديون" في محاولتهما السابقة. كشطت الثلوج المتراكمة فوقهما على الفور، وشد ما كان اغتباطي حينها تبينت أنهما ما تزالان تحويان عدة لترات من الأوكسجين تكفي لحاجتنا أثناء الهبوط إلى الممر الجنوبي، إذا نحن توخينا وجه الاقتصاد وعدم الإسراف.

واصلت الصعود فوق الريد الذي لم يلبث أن ازداد انحدارا وعرضا إلى أن تمخض عن رعن جليدي جبار، ليس بينه وبين الذروة الجنوبية سوى أربعمائة قدم. وقد شعرنا أن حالة الثلوج على هذا الرعن كانت على جانب عظيم من الخطر.

ولما لم يكن ثمة طريق آخر نسلكه، لم نجد مناصا من المثابرة والمضي فيما نحن فيه على كثرة المشاق والجهود لتمهيد طريق حتى تصل بنا إلى هدفنا، لذلك ما كدنا نرتفع إلى حيث كانت الثلوج أكثر صلابة تحت الأقدام حتى غمرنا شعور بالارتياح والغبطة، ورحنا ننحت لنا درجا فوق المرحلة الأخيرة من هذه المنحدرات الجبارة، وزحفنا بمساعدة أحذيتنا ذات المسامير فوق الجبل إلى قمته الجنوبية – وهنا كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة صباحا.

أخذنا ننظر في شيء من الاهتمام إلى هذه الحافة البكر المتصاعدة أمامنا، والتي صرح "بورديون" و"إفنز" معا في يأس وقنوط بأنها مشكلة المشكلات، ومعضلة مستعصية الحل، وسرعان ما أدركنا أنها حاجز قد لا يذلل أبداً. كانت تشعر من أول نظرة بالروعة وتثير الرعب في النفوس. فإلى اليمين شرفات ثلجية ضخمة، ملتوية كتل من الجليد، والثلوج تمتد في الفضاء كأنها أصابع معوجة فوق وجه "الكانشنج" الذي يهبط إلى غور اثني عشر ألف قدم تحتنا، فأي حركة فوق هذه الشرفات لا يمكن أن تعقب سوى الهلاك المحقق. ومن هذه الشرفات يهبط ريد الجبل من اليسار في انحدار شديد، إلى أن يتخذ من الواحة الصخرية الهائلة التي تمتد من الرعن الغربي. ولم يكن هنالك ما يشجع على احتيال الوصول إلى الهدف سوى ظاهرة واحدة، وهي أن المنحدر العميق بين الشرفات الثلجية، والأغوار الصخرية كانت تكسوه طبقة صلبة من الجليد. أوهكذا بدا لنا. فإذا ما توصلنا إلى نحت طائفة من الدرج على طوال هذا المنحدر، كنا قد أحرزنا – غير قليل – من التقدم نحو الهدف على أقل تقدير.

نفد ما كان في الزجاجتين الأوليين من أوكسجين، فاقتطعناهما من قناعينا للتنفس، وطرحناهما جانبا، واستعضنا عنهما بالزجاجتين الباقيتين، وبكل منهما ثمانمائة لتر تكفينا لمدة أربع ساعات ونصف الساعة، بمعدل استهلاك ثلاثة لترات في الدقيقة. وبذلك خف ثقل جهاز الأكسجين فأصبح لا يزن أكثر من تسعة عشر رطلا، فشعرت إزاء هذا التخفف من الحمل الثقيل بشيء كثير من حرية الحركة والنشاط. وما إن هويت بفأسي على أول منحدر ثلجي عميق؛ حتى شعرت بأن أقصى ما كنت أطمح إليه قد تحقق، أو هو على الأقل في طريق التحقيق إذ كان الجليد صلبا متبلورة. وما هي إلا ضربتان أوثلاث ضربات متتابعة رتيبة من فأسي حتى كنت قد مهدت درجا يبلغ من الحجم ما يتسع لأقدامنا الغائصة في الأحذية الضخمة التي كنا ننتعلها العملية التسلق. وكان أحسن من هذا أوذاك أن كل مرة أهوى فيها بفأسي على الجليد بقوة وعزم، تغوص الفأس إلى نصف القصبة، فتصبح متينة تصلح للف الحبل حولها للصعود في سهولة ويسر.

كنا نتحرك واحداً واحداً. فكنت أنحت خطأ من الدرج طوله أربعون قدما، بينما يمسك "تنزيج" بحبلي أثناء قيامي بالنحت، ثم يأتي دوره للصعود، فأغرز فأسي في الثلج، وألف الحبل حوله بضع مرات بينما يتسلق "تنزنج"– وهو في مأمن من الانزلاق فوق الدرج– إلى حيث أقف من الحبل. وكانت طائفة كبيرة من الشرفات الثلجية ضخمة الحجم، فكنت أتفاداها بنحت درج هابط إلى حيث يلتقي الجليد بالصخر. وقد تغلبنا على هذه العقبات بالزحف فوق الصخور حينا، وحينا بنحت مواضع نقبض عليها بأيدينا.

ولاحظت في إحدى المرات أن "تنزنج" كان يتنفس بصعوبة في قفت الأخص جهازه الأوكسيجيني فوجدت أنبوبة طرد العادم (الشكمان) وقطرها نحو بوصتين، مسدودة من تراكم الثلوج. وقد استطعت أن أنظفها له في وقت كان في أمس الحاجة إلى جهاز تنفس صالح. وفحصت جهازي في نفس الوقت فوجدت نفس المشكلة.. ومن ثم قررت ملاحظة هذا الأمر بانتباه بين آن وآخر.

كان الجو صحوا أو كاد أن يكون بالنسبة لإفرست. ولا أقصد من ذلك بأنه من قبيل الجو المثالي لقضاء اليوم على شاطئ البحر، ولكننا لم نشعر بشيء من الضيق الشدة البرد أوالريح، فقد كانت ملابسنا المبطنة بالصوف كفيلة بوقايتنا. على أني ما كدت أرفع عن عيني نظارتي الواقية من الثلج الأخص بدقة أحد المواقع –وهي المرة الوحيدة التي فعلت فيها ذلك– حتى كادت تعميني على الفور ذرات الثلوج الناعمة المشبعة بها الرياح الباردة. فأعدتها إلى عيني في الحال.

وبعد ساعة قضيناها في عملية نحت الدرج بصورة مستمرة، وصلنا إلى حضيض قاعدة صخرية جبارة تعترض ريد الجبل، وترتفع عموديا نحو أربعين قدما ،فكانت معضلة المعضلات وكبرى العقبات. وكنا قد رأينا هذه القاعدة من مسافة بعيدة ونحن في "ثيانجبوش" خلال المناظير المكبرة، وأدركنا لتونا أن مثل هذه الصخرة على مثل هذا الارتفاع قد تكون الحد الفاصل بين الفشل والنجاح وكانت الصخرة هذه ملساء غير ثابتة، فلو أنها وجدت بمكان. كمقاطعة البحيرة، لاعتبرت من المعضلات التي

يهتم بها جماعة من رواد تسلق الصخور عصر أيام الأحاد، ولكن هنا، وبوضعها الحالي، كانت عقبة كأداء تستعصي على قوانا الواهية.

ولكن، على الرغم من كل ذلك، فقد بقي احتيال واحد لمعالجتها، فإلى يمين الصخرة تقوم شرفة ثلجية أخرى ضخمة الحجم بينها وبين الصخرة صدع ضيق يمتد مسافة الأقدام الأربعين كاملة، أي مساويا لارتفاع الصخرة نفسها. تركت "لتنزنج" معالجة الحبل الذي أتمنطق به لإسعافي ما وسعه الإسعاف، وشرعت أتحرك إلى داخل الصدع موليا إليه ظهري فاحصا بنعلي (المسمرتين) إلى الخلف، حتى وجدت لقدمي موطنا فوق رقعة صلبة من الجليد ورائي، ثم رفعت جسدي عن الأرض مصعدا في الصدع، معتمدا على ساعدي وركبتي وحركة الاحتكاك بظهري، وكل نتوء من صخر استطعت أن أطبق عليه راحتي. والواقع أتى صعدت في هذا الصدع وظهري إليه بكل ما أوتيت من قوة، وبكل ما في نعلي من مسامير وأنا أضرع إلى الله أن تظل الشرفة الثلجية ملتصقة بالصخرة حتى النهاية. وكان تسلقي على هذه الصورة بطيئا، ولكن متواصلا، وكان " تنزيج" يرخي لي الحبل بوصة بوصة إلى أن وصلت في النهاية إلى ظهر الصخرة فسحبت نفسي من الصدع مرتفعا إلى رف ثلجي عريض، ارتميت فوقه لبضع دقائق دون حراك لأستجم وأسترد أنفاسي، ولأول مرة شعرت شعوراً قوياً بأنه ما من شيء الآن يستطيع أن يثني من عزمنا في الوصول إلى الشعفة.

وما إن استراحت واستعدت نشاطي، حتى ثبت قدمي فوق الجليد، وشرعت أسحب الحبل، بينما أخذ "تنزنج" يرتفع بدوره داخل الصدع، فوصل إلى حيث كنت، وسقط منهارا من شدة الإعياء وكأنه سمكة جبارة انتزعت من الماء عقب صراع عنيف مريع. ثم فحصت جهازي الأوكسجين وحسبت على وجه التقريب مقدار ما يمكن استهلاكه في الدقيقة وكان كل شيء يسير على وفق هوانا. وكان " تنزنج" مثابرا على المضي في حذر متلمسا الطريق الأسلم، ولكن في شيء من البطء.وكان رده على سؤالي عن حالته أن ابتسم وأشار إلى حافة الجبل ولم يتغير شيء مما بقي أمامنا من الحافة عن طبيعة ما قطعناه منه فإلى يميننا تقوم الشرفات الماردة الجبارة، وإلى يسارنا

المنحدرات والأغوار العميقة. ولم يكن لدينا أية فكرة عن الاتجاه الذي تقع فيه ذروة الجبل، فقد انحرف الريد إلى اليمين انحرافاً، فيما أكاد أفرغ من تحت درج في نتوء معترض حتى يبرز لنا نتوء آخر أعلى من الأول وأشمخ. ويمر الوقت ولا تظهر للريد نهاية!

ثم حاولت الاستعاضة عن نحت الدرج بغرز على ذات المسامير في الجليد اقتصادا للوقت، ولكن سرعان ما أدركت أن ذلك ينقص من فرص الأمان فوق هذه المنحدرات العميقة، وعلى مثل هذا الارتفاع الشاهق، فعدت إلى النحت كرة أخرى. على أنني بدأت أشعر بشيء من التعب والوهن الآن. وكان "تنزنج" يتحرك ببطء شديد. وبينما كنت ماضيا في نحت الدرج حول ركن آخر جديد تساءلت في شيء من الفتور، إلى أي مدى نستطيع المضي على هذا المنوال؟ وإذا بي أتبين فجأة أن الحافة أمامي قد هبطت مرة واحدة بدلا من استمرارها في الارتفاع، ورأيت على بعد من تحتي جبل الثلج المسمى "رونجبك" الشرقي ثم صعدت البصر فرأيت حافة ضيقة تنتهي على صورة نصل حاد.ضربت بضع ضربات أخرى بالفأس في قشرة الجليد الصلبة، وإذا بنا فوق شعفة الطود الخشام.

وكان أول ما غمرني من الشعور إحساس بالرضى والارتياح ارتياح لعدم الحاجة إلى نحت مزيد من الدرج، ولا إلى اجتياز حافة أوعبور غور، أو تسلق نتوء يغري بقرب النجاح وأمل الفوز بثمرة الصراع الخطير المضني.

ولم تخف علي ابتسامة "تيزنج" المريضة المعدية بالرغم من قلنسوته الصوفية المنسوجة، وعويناته الواقية، وقناع الأوكسجين، وما تراكمت عليها جميعاً من الجليد. ولا ما شاع في أسارير وجهه من آيات الغبطة الصريحة الخالصة وهو يتلفت من حوله في جميع الاتجاهات. ثم تصالحنا بحرارة صادقة ولم نلبث أن تحررنا من قيود ذلك الجمود الأنجلوسكسوني المتكلف، فراح "تيزنج" يخبط كتفي بذراعيه وكل منا يربت على ظهر الآخر ولم نكف حتى لهثنا من ضيق التنفس.

نظرت إلى ساعتي فإذا هي الحادية عشرة والنصف صباحا، وبذلك نكون قد استغرقنا ساعتين ونصف الساعة في اجتياز حافة الجبل، ولكنها كانت تبدو لنا ضعف ذلك. ثم اختبرت جهازي الأوكسجين كرة أخرى. أجل! فمعدل سيرنا كان بطيئا وليس من ذلك مفر. فإذا كان لابد لنا من تحديد استهلاكنا إلى ثلاثة لترات في الدقيقة وجب علينا ألا نضيع شيئاً من الوقت في طريق العودة، إذ لم يكن معنا ما يكفي لأكثر من استهلاك ساعتين من الزمن. وفي خلال هاتين الساعتين كان علينا أن نعود أدراجنا فوق الحافة وأن نمط مع المنحدرات المحفوفة بالأخطار إلى القمة الجنوبية حيث تنتظرنا زجاجتان مملوء شطرهما بالأوكسجين.

ونزعت جهازي بعد أن أغلقت صمام الأوكسجين، وأخرجت آلة التصوير ورحت ألتقط جميع ما تقع عليه العين من المناظر حولي، فالتقطت أولا بعض صور "تنزنج" وهو يلوح بطائفة من الأعلام –أعلام نيبال وبريطانيا والأمم المتحدة والهند– وقد نسقت جميعها في خط واحد. ولم أكن أطمع إلى نتائج باهرة لهذه اللقطات، فقد كانت يداي غارقة في القفازات مما حال دون بلوغ درجة الكمال أو ما يقاربها، لما كنت أجده من الصعوبة في حمل الآلة على الوجه الأكمل، ولكنني كنت أشعر بأنها كافية على الأقل لتكون سجلا للحدث الخطير. وما انقضت على ذلك عشر دقائق أونحوها حتى أدركت أن أصابعي قد تصلبت بعض التصلب وتباطأت حركتها، فأسرعت إلى لبس جهاز الأوكسجين وشعرت مرة أخرى بفائدته المنشطة وإن لم يزد ما استنشقته بعد على بضعة لترات.

وبينما كنت منهمكا في التقاط تلك المناظر كان "ترنج" قد ثغر نقرة في الجليد ووضع فيها بعض ما يؤكل.. قطعة من الشكولاتة وعلبة صغيرة من البسكوت، وحفنة من أقراص الحلوى الصلبة.. قربان متواضع حقا، ولكنه مهما يكن من أمر فهو رمز على الأقل يتقرب به المؤمنون من أصحاب العقيدة البوذية إلى الآلهة الذين يعتقدون بأنهم يعيشون فوق هذه الذروة العالية الشامخة.

وبعد خمسة عشر دقيقة شرعنا نعود أدراجنا، وكان العالم من حولنا يبدو وكأنه

خريطة ماردة عملاقة منشورة أمام أعيننا. واستطعت بنظرة واحدة أن أستوعب بلدة عكفنا عديدا من الشهور في رحلاتنا الاستكشافية السابقة على دراسة طبيعة أرضه ورسم خرائط له. ولكن رد الفعل العكسي كان قد بدأ يغشانا، وكان لا بد لنا من أن ننزح عن جبلنا. فما إن خمدت شعلة الطموح أمام وهج النجاح والتوفيق حتى بدأنا نشعر بدبيب الوهن إلى أطرافنا وبضيق في التنفس. ثم بدأت طريق الهبوط عن الشعفة، وأخذنا نغرز نعالنا. في الجليد دون ضياع الوقت سدى، مدفوعين إلى ذلك بالضرورة الناشئة عن تناقص الأوكسجين.

صدمات متتالية سريعة الواحدة تلو الأخرى! على أننا وصلنا أنف صخرة الدرج العظيمة في وقت قصير يكاد يكون إحدى المعجزات. ومن هنا أخذنا نشق طريقنا في شيء من عدم الاكتراث كأنه عمل عادي مألوف،. وكان التعب قد أخذ منا كل مأخذ، ولكن ليس إلى الحد الذي نتجاهل فيه عن توخي سبيل السلامة، فكنا نزحف فوق الصخور في حذر وبمنتهى العناية واحداً بعد الآخر، وحينا فوق قطاع من الجليد متقلقل، وكثيرا ما استعنا بنعالنا المسمرة حتى انتهينا إلى القمة الجنوبية. لم يستغرق منا هذا العمل سوى ساعة واحدة من الزمن.

حقا لقد تحدينا الزمن من حيث السرعة. وهنا ارتشفنا جرعة من عصير الليمون المسكر التماسا للانتعاش، ثم استأنفنا الهبوط من جديد.

بينما كنت أتولى القيادة في الهبوط على هذا الريد الثلجي العظيم الشديد الانحدار والانحراف، ولم أتهاون في اتخاذ منتهى الحيطة وأنا أنقل قدمي من موضع لآخر حتى لكأن حياتنا كانت معلقة إلى أقدامنا. والحق أنها كانت كذلك. فكل خطوة نهبطها تدنينا من الأمان والسلامة. وما إن انتقلنا من المنحدر إلى الحافة التي تحته حتى أخذ ينظر أحدنا إلى الآخر في شعور جلي واضح من الارتياح، وكأننا قد نفضنا عنا شعور الخوف الذي كان قد استولى علينا ولازمنا سحابة يومنا هذا.

أجهدنا الهبوط ونال منا التعب فكننا نتحرك فوق الريد تلقائيا كأنا بعض

الآلات إلى حيث تركت أنبوبتا الأوكسجين. ولم تكن المسافة بيننا وبين خيمتنا ببعيدة ،حمدنا الأنبوبتين وواصلنا الهبوط حتى وصلنا خيمتنا المنصوبة فوق المصطبة العجيبة في تمام الساعة الثانية بعد الظهر. على أن الرياح المتوسطة الحبوب في عصر ذلك اليوم كانت قد انتزعت بعض حبال الخيمة من أوتادها فأصبح منظرها يدعو إلى الرثاء.

وكان العطش قد استبد بنا وما يزال أمامنا بعض الطريق للوصول إلى الممر الجنوبي. وسرعان ما أشعل (تيزنج) الموقد وشرع في إعداد شراب من الليمون مزج به كمية كبيرة من السكر، بينما عكفت أنا على استبدال زجاجتي الأوكسجين بالزجاجتين المملوءتين جزئيا، وأحكمت ضابط الجهازين ليتدفق الغاز معدل لترين في الدقيقة. وكنا نرى تحتنا على مسافة بعيدة أشباحا صغيرة جداً، فعلمنا أن "لو" يترقب هبوطنا وهو على أحر من الجمر. ثم حزمنا أكياس مؤننا ومراتبنا الهوائية في أناة، وشددناها إلى ظهورنا. ثم ألقينا نظرة أخيرة على المخيم الذي آوانا.

وأخذنا في طريق العودة نجر أقدامنا من شدة التعب فوق ريد الجبل هابطين بمنتهى الحذر. ومر الوقت وكأننا في حلم، وأخيرا وصلنا حافة الجبل السويسرية ثم ولجنا الممر العظم.

وكان ينتظرنا هنا حادث غير سار، فالرياح الشديدة قد عفت على آثار الدرج الذي نحتناه، وأصبح المكان كله قشرة جليدية صلبة كما كان من قبل، فلم يكن بد من معاودة النحت من جديد. فأعدت الكرة مسافة مائتي قدم في اتجاه الهبوط. وكانت الرياح تهب شديدة هوجاء حتى كادت تقتلعنا اقتلاعها من فوق الدرج، ثم تولى "تنزنج" قيادة الطريق، فنحت درجا لمسافة مائة قدم، ومن ثم كنا نسير على ثلج هش حتى نهاية الممر.

ولمحنا شخصين من بعيد يسعيان للقائنا ونحن مانزال على ارتفاع مائتي قدم من المخيم. وكان الشخصان "لو" و"نويس" وكانا يحملان معهما حساء ساخنا وأنبوبتي

أوكسجين لنا. ولم نجد من القدرة على الكلام ما نجيب به على أسئلة دلو، وما أبداه من التحمس والغبطة لما أفضينا به إليه من أنبائنا، فقد كنا متعبين كل التعب. ثم صعدنا ببطء إلى الهضبة المقام عليها المخيم، وما إن وصلنا إليه حتى شرعنا ننزع عنا جهاز الأوكسجين، وحبونا إلى جوفه ونحن نلهث من التعب، ونتنفس الصعداء من شدة الفرح.

ولم نلبث أن سقطنا خائري القوى داخل أكياس النوم، بينما كانت الخيمة تهتز جوانها اهتزاز من شدة الرياح الدائمة الهبوب على هذا الممر الجنوبي.

أجل! قد يكون الممر الجنوبي أسوأ بقعة على وجه الأرض، ولكن في هذه اللحظة وموقد "البريموس" يطن طنينه، وصديقانا "لو" و"نويس" يدللاننا ويحتفيان بنا — أجل! كان هذا الممر الجنوبي في هذه اللحظة، سكنا لنا ووطنا!

الحرابون فى ماساى

ج. ا. هنتر

شاهدت أول قنص بالحراب، عندما نزلت بأحد أحياء بلدة "ماساى " الصغيرة غير بعيد عن بحيرة "ما جادى". فقد حدث في الليلة السابقة أن قفز أحد الأسود فوق السور المحيط بالقرية على الرغم من ارتفاعه الذي لا يقل عن اثنتي عشرة قدما، ثم أخذ بقرة بين فكيه وقفز بها فوق السور عائدة من حيث أتى. إنني أعلم أن هذه العملية تبدو لسامعها وقارئها بعيدة عن الواقع، لا يقبلها العقل، فالأسد لا يزيد وزنه على أربعمائة رطل، بينما تزن البقرة ضعف ذلك أوقريبة منه. بيد أن الأسد يستطيع في الواقع وحقيقة الأمر أن يقوم بمثل هذا العمل دون أن يعاني في سبيل ذلك من المشقة أكثر مما يعانيه الثعلب في حمل دجاجة.

وللأسد فن وبراعة خاصة في اتخاذ موقفه تحت الجيفة، ثم يزحزحها رويدا حتى يستقر ثقلها فوق ظهره، بينما يأخذ رقبة البقرة بين ماضغيه. وعندما يهم الأسد للقفز بها فوق الحاجز يتصلب ذيله على صورة عصا مستقيمة فيعتمد عليه في الوثوب. وقد أكد لي أهل ماساي أن الأسد ما لم يكن له ذنب لا يستطيع القيام بهذه العملية.

كنت قد أعددت نفسي لاقتفاء أثر (الأسد) في الغداة، ولكن رجال هذا الحي —وهم من الموران— أخبروني في شيء من الازدراء بأنهم ليسوا في حاجة إلى مساعدتي، وأنهم سيعالجون الموقف بأنفسهم. وكان يبدو لي في ذلك الحين أن قيام حفنة من الرجال بقتل ضيغم كبير مكتمل الفتوة أمر عسير التصديق، فطلبت إليهم أن يأذنوا إلي في مرافقتهم ببندقيتي، فأذنوا لي مجاملة وتأدية. وفي الليل أعددت بندقيتي عيار ٤١٦ ماركة رجي، وملأت خزانتها بالرصاص ولم يخامرني أي شك في أنه سوف يكون من نصيبي في النهاية قتل أي رئبال نعثر عليه في الطريق.

بدأنا مسيرنا عند شروق الشمس وأنا في المؤخرة، وكان عدد القناص عشرة، وهم رجال أشداء رائعو المنظر، تغلب عليهم النحافة ولكن، عضلاتهم قوية ملتفة، وليس بينهم من يقل طوله عن ست أقدام، وقد تجرد كل منهم من قطعة القماش الوحيدة التي تتدلى من كتفيه على جسمه، وهيكل ملبسه كي لا تعوقه أثناء الطراد، ولفها حول ذراعه الأيسر، بينما كانت دروعهم المنقوشة بالألوان الزاهية تهتز فوق أكتافهم، وقد قبضوا على الحراب باليد اليمني ووضعوا حول رءوسهم ريش النعام، ولفوا حول كعوبهم قطعا من الفروكما يفعلون عند السير إلى ساحة القتال. وفيما عدا ذلك فقد كانوا عراة تماماً.

عثرنا على آثار القسورة بعد حين، وشرع الرجال يتعقبونها. كان الليث راقدا بين بعض الأدغال الكثيفة بعد ما أتخم في الليلة الماضية من لحم البقرة، فأخذ الرجال يقذفون الحجارة حول الأدغال جزافا إلى أن طرقت الأسماع زمجرته الرهيبة، فكان ذلك برهانا على أن بعض الحجارة قد أصابته. وعرف الأبطال الناحية التي أتى منها الزئير المخيف، فنشطوا إلى قذف الحجارة من جديد بصورة جدة مستهدفين تلك الناحية، وسرعان ما أخذت الأعشاب تهتز ووثب فجأة من بينها على بعد مائة متر من مكاننا، وراح يثب ويعدو فوق السهل وبطنه المنتفخ من التخمة يهتز من جانب إلى جانب أثناء عدوه.

وفي الحال تبعة القناص وهم يطلقون صرخاتهم الوحشية أثناء عدوهم بين الحشائش الطويلة الصفراء. وكان العنبس لايزال مثقلا بالطعام، فلم يستطع الإسراع في عدوه، فوقف واستدار لمطارديه الذين انتشروا حوله على شكل دائرة.

وقف الأسد وسط الدائرة ينظر يمنة ويسرة مزمجراً بصورة تجعل الدم يجمد في العروق، بينما أخذ الحرابون يتقدمون نحوه رويدا رويدا مضيقين عليه الدائرة.

ترك الضرغام القناص يقتربون منه إلى مسافة أربعين مترا، ولم أشك في أنه يتأهب للهجوم، فقد مال برأسه إلى أسفل فوق براثنه الأمامية وتقوست فخذاه الخلفيتين

قليلا، ليضمن أقصى ما يستطيعه من السرعة في وثوبه وعدوه، وشرع ينشب مخالبه في الأرض كما يفعل العداء قبل وثبته الأولى ليضمن عدم الانزلاق.

ركزت نظري على ذيله وقد قوس قوسته النذيرة بالشؤم. فالأسد دائما أبداً يحرك طرف مؤخرة ذنبه بسرعة مجيبة ثلاث مرات متتابعة، ثم يقدم نحوك في سرعة مذهلة حتى ليبدو من شدة العدو أصغر حجما مما هو في الحقيقة.

كان القناصة يعلمون – كما علمت – أن الأسد يتأهب للهجوم، فتحركت أذرعتهم القابضة على الحراب إلى الوراء قليلا في آن واحد حتى لكأنها تنبض بنبض واحد مشترك. وكانت أعصاب هؤلاء الشجعان قد توترت إلى أقصى حدود التوتر، فاختلجت عضلات أكتافهم القوية الصلبة قليلا، وتموج البريق المنبعث من أشعة الشمس المتوهجة على نصال أسنة الحراب حتى لو أنك أنفذت مساره في عضلة أحد منهم لما شعر به البتة.

وفجأة بدأ ذنب الليث يتحرك. مرة! مرتين! ثلاث مرات!! وبعد ذلك هجم على دائرة الحرابين. وفي الحال اخترقت نحوه الفضاء ست حراب، رأيت واحدة منها تغوص في كتفه فتخترق جسده ويخرج رأسها من جانبه الآخر. ولكن أبا الحارث لم يتمهل أو يقلل من سرعته. وكان في طريقه غلام يافع من الموران أشرك لأول مرة في مطاردة الأسود، على أنه لم يجفل ولا طرفت له عين أواختلجت له عضلة، ووطن النفس على استقبال هجمة الأسد، فأمسك بدرعه أمام صدره ومال قليلا إلى الوراء ليضع كل ثقله وراء طعنة حربته، ووثب الليث على الفتى فأطار درعه من يده بلطمة واحدة من كفه كما لو كانت الدرع لعبة من الورق المقوى، ثم شب على رجليه الخلفيتين محاولا اجتذاب الفتى إليه بمخالبه الأمامية الممتدة.

وأسرع الفتي فطعن الأسد في صدره، فأنفذ حربته فيه مسافة قدمين غير أن الوحش الجريح وثب عليه منشبا مخالبه الخلفية في بطن الغلام ومطبقا ماضغيه على كتفه في الوقت نفسه.

خر الغلام إلى الأرض تحت ثقل الأسد الضخم، وفي الحال هجم جميع رجال الموران الآخرين على الوحش، وهو يلفظ أنفاسه، بخناجرهم الثقيلة ذات الحدين والتي يبلغ طولها نحوا من قدمين، إذ تعذر استعمال الحراب الضيق الفرجة بينهم وبينه، وأخذوا يتدافعون حوله، كل واحد منهم يريد أن يسبق إلى تمزيق الأسد قبل زميله، وانهالوا على رأس الوحش بطعناتهم وقد جن جنونهم، وما هي إلا ثوان قليلة حتى كانوا قد مزقوها تمزيقا مبتدئين بفمه حتى قمة رأسه، كاشطين مقدار بوصة من اللحم من دماغه مع كل طعنة من خناجرهم. ولقد رأيت أحدهم يسدد إلى رأس الأسد طعنة هائلة شطرتها نصفين، على أني لا أستطيع الجزم بأن الليث لم يكن قد فارق الحياة قبل هذه الطعنة.

لم أستطع استعمال بندقيتي خلال هذه المعركة، فالبندقية خطر حتمي يتهدد القناص أنفسهم في مثل هذه الظروف، فعندما يستدير القناص الهائجون بالأسد يتعذر على الإنسان إطلاق الرصاص خشية إصابة أحد من الرجال.

فحصت الفتى الجريح فوجدت إصابته مريعة حقا، ولكنه كان عنها معرضا غير مبال بها، خطها بإبرة وهو لا يبدي لذلك أي اهتمام مطلقا حتى لكأنني كنت أربت على كتفه لا أخيط له جراحا مميتة.

كان جلد السبع قد مزق شر مزق من طعنات الحراب والمدى، حتى إنه لم يعد يصلح للاحتفاظ به ولو على سبيل التذكار. والواقع أن كل ما بقي من الأسد كان كومة من شعر أصفر ملطخ بالدم، فقد تلاشى وقار الحيوان النبيل وتبخرت هيبة جلالته فلم يبق منه سوى حطام كسيف مبتذل.

وعندما عدنا إلى قرية ماساى أو(المنيتا) –بلغتهم– أطعم الفتى الجريح مقادير كبيرة من لحم البقر النيء، ثم سقي بعض دم الماشية ليحدث له إسهالا يساعده على أكل مقادير أخرى من اللحم النيء، وكان بعض أصحابنا من الحرابين قد أصابتهم مخالب الأسد، ولكنهم لم يحاولوا تطهير جراحهم للوقاية من العدوى. وقد شاهدت

بعد ذلك بفترة من الوقت بعض قبائل قرية ماساي ينقعون جذور عشب يسمى (الكيلوريت) في الماء فيكسبه لون (برمنجنات البوتاس). ويبدو أنه محلول مطهر يساعد على الإبراء.

وإني لأرجو أن يكون الفتى قد استعاد صحته، فلا جدال في أنه استحق مرتبة الشرف الأولى في المعركة. وقد كانت فتيات الحي يرمقنه باعجاب شديد، حتى إنه لو قدر له البقاء على قيد الحياة لما وجد أية صعوبة في اختيار الفتاة التي يصبو إليها قلبه لتشاركه حياته.

يعتقد رجال قرية ماساى أن أشجع عمل يأتيه إنسان، هو أن يقبض على ذنب الأسد من منبته، حتى يتمكن الأبطال الآخرون من الاطباق عليه بحرابهم ومداهم. فالرجل الذي يفعل ذلك أربع مرات يمنح لقب (ملبوكي) ويرفع إلى مرتبة قائد. وقد جرى العرف بينهم على أن الرجل الذي يفوز بهذا اللقب، لابد وأن يكون على استعداد لمصارعة أي شيء على وجه الأرض. وإني لأشك إذا كان هناك أكثر من اثنين من بين كل ألف رجل في ماساى فازا بهذا اللقب، وإن تكن المنافسة بين رجال حي الموران على الفوز بهذا اللقب قوية للغاية.

على أنني شاهدت عدة مواقع جذب فيها قناص الأسود في ماساى، طريدتهم من ذنبه، وطالما تعجبت من بقائهم أحياء بعد هذه المحاولات.

وإني لأتذكر ذات مرة أثناء مطاردة من هذا القبيل اشترك فيها أكثر من خمسين قناصا بحرابهم متعقبين أسدين ولبؤة. تحاول الوحوش الثلاثة الوصول إلى حرش كثيف ، ولكن القناصة الأبطال حالوا بينها وبين ما استهدفته، فتقهقرت الليوث إلى دغل صغير قرب قناة جف ماؤها وسط كثيب من الرمال، ومن عادة الأسد إذا طورد أن يلجأ في الغالب الأعم إلى حوض إحدى تلك القنوات الجافة، لكثرة وجود الأعشاب المتلفة الكثيفة على جوانها. وما إن انقضت بضع دقائق حتى كان المطاردون قد أحاطوا بالدغل وشرعوا يتقدمون نحوه لتضييق الخناق على الأسود تمهيدا لقتلهم.

وكلما نقصت المسافة بين الحرابين وبين الأسود المحصورة كلما زجر الأسود، وفجأة وبغير سابق إنذار برز أكبر الأسود الثلاثة من مكمنه وسارع عدوا إلى الخلاء لينجو بنفسه، وكان منظر الأسد رائعة وهو يعدو في قاع القناة بجر ذنبه، وكان في طريقه اثنان من الموران أسرعا إلى رفع حربتهما استعدادا لهجومه، ولكن الأسد الضخم لم تكن له رغبة في القتال، وكل ما كان ينشده هو أن يلوذ بالفرار، فقفز قفزة هائلة فوق رأسي الرجلين مطيحا بأحدهما بضربة من جانبه أدارته حول نفسه بينما صدر من الرجال الآخرين صوت فرقعة أحدثتها ألسنتهم تعبيرا عن استيائهم من الزميلين لتركهم الأسد يفلت من أيديهما.

هذا من جهة ومن جهة أخرى لأن الأسد تحاشى القتال. على أني طالما لاحظت أن الأسود الكبيرة الناضجة ذات الأعراف الفخمة، كثيرة ما تتحاشى القتال بعكس الأسود الفتية ذكورا وإناثا. وما يقال عن الأسود يقال كذلك عن الفيلة.

فالفيل المسن ذو الأنياب العاجية الجميلة أكثر عزوفا عن القتال من الذكور والإناث الفتية. وأغلب الظن أنها كلما تقدمت بها السن ازدادت حذرا وفطنة، وكثيرا ما بدا لي كما لو أن الأسود قادرة على تمييز الفتيان غير المدربين من غيرهم، فيخصونهم هجماتهم. قد تكون كل هذه الافتراضات مجرد أوهام أو صور من تخيلاتي، على أن الفتيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال بعد، ربما ترددوا بعض الشيء في مثل هذه المواقف، وإني أعتقد أن الأسود تلحظ مثل هذا التردد.

ازداد اقتراب المطاردين من الدغل وأخذوا يتدافعون بالأكتاف، فكل منهم يرغب في أن يكون أول من يسفك الدم وأصبح الليثان باديين للعيان بوضوح تام، وقد وقفا متلاصقين يزمجران ويزاران. وشرع رجال الموران يرشقونهما بالحراب بعد أن صاروا على مسافة عشرة أمتار منهما، وأصيبت اللبؤة في خاصرتها فصرخت من الحنق والألم معا، ووقفت لحظة على رجليها الخلفيتين وهي تضرب الفضاء بيديها، فكانت صورة حية للشعار الذي ينقش على الدروع وغيرها. ثم سقطت على الأرض وهي تعض الحربة الغائصة في جانبها، وفي هذه اللحظة أخذ الموران حربته على

الأرض وعدا إلى حيث اللبؤة وقبض على ذنبها من منبته، ومن الجدير بالذكر أن الموران لا يقبضون على ذنب الليث أبداً من طرف الأسفل المشعر، لأن الليث في استطاعته أن يجعل ذيله في صلابة ماسورة البندقية، وبحركة واحدة يطرح القابض عليه بعيدا عنه.

وفي الحال وثب زملاؤه على اللبؤة بمداه وانهالوا عليها ضربا وطعنا. وهم في مثل هذه الظروف تأخذهم الحمية فلا يشعرون بشيء ويعميهم الغضب عن كل شيء، فهم يبدون كما لو كانوا آلات طعن متحركة، وليس على وجوههم أي أثر لتعبير أو شعور، كما أنهم لا يتصرفون بطريقة جماعية منظمة، وإنما يحاول كل واحد منهم أن ينفرد بعملية القتل. راحت اللبؤة تحفر الأرض بمخالبها الخلفية تحفزاً للوثوب إلى الأمام، بينما استمر القابض على ذيلها في جذبها إلى الخلف، ولكنها نهضت فجأة على ساقيها الخلفيتين وأخذت تضرب بمخالبها الأمامية من حولها من الرجال يمينا ويسارا. ولقد رأيت ضرباتها تهوي على بعض رجال الموران، ولكن أحدا منهم لم تطرف له عين. وقد أخبروني فيما بعد بأنهم لا يشعرون عندما تحركهم الأسود بشيء من الألم على الإطلاق، إذ تكون أعصابهم في مثل هذه الظروف متوترة إلى أبعد حدود التوتر، والظاهر أن الأسود تكون هي أيضاً في مثل هذه الحالة فكلا الطرفين يقاتل حتى يسقط من كثرة ما يفقد من الدم.

سقطت اللبؤة على الأرض رويداً، ولم أعد أرى سوى بريق المدى وهي تمزق أديها ورأسها. وعندما انتهى رجال الموران من عمليتهم نظرت إلى رأس اللبوة، فإذا هي شرائط من اللحم، وبدا لي أديمها أشبه بمغرز الإبر منه بالرأس، فقد غاص فيه مالا يقل عن ست حراب.

وكنت أعلى من الجلبة على الجانب الآخر من الدغل بأن هناك طائفة أخرى من الحرابين مشغولون بقتل الأسد الثاني. وقد رأيت أحد هؤلاء الأبطال يركع ويمد درعه إلى الأمام لإغراء الأسد بالهجوم. وما هي إلا طرفة عين حتى كان الأسد قد هجم على الدرع ملقيا بصاحبه على الأرض، وحاول هذا البطل أن يطعن الأسد حربته

ولكنه لم يفلح في ذلك، إذ كان الأسد قد أنشب مخالبه في كتفه العاري، فأهبت الرجال ليتقهقروا حتى أطلقت عليه رصاص بندقيتي، ولكن أحدا لم يسمع صراخي الذي طغت عليه صيحات الحرابين الجنونية، وزمجرة الأسد وهو يبطش بالرجل الممدد تحته. على أني لم ألبث أن رأيت حربتين تغوصان في جسم الأسد، ثم هجم الرجال على الوحش الهائج بمداهم.

أصاب الأسد –قبل أن يقتل– أحد المطاردين بجراح خطيرة كما مزق كتف البطل الذي كان قد طرحه تحت درعه. فبذلت كل ما في وسعي لإسعاف الرجلين، فيليهما إصابات من مخالب الأسد وأنيابه، وقد فقدا مقداراً كبيراً من الدم. وبينما كنت أخيط جراح أحدهما وقع نظره عرضا على جراحه الخطيرة ، فرك لسانه بجز سينم عن الاستياء والازدراء معا، شبيه بجرس زملائه عندما رأوا السبع الأول يقفز طلبا للنجاة، وكأن لسان حاله يقول "شيء يضايق!". ولو كان الجريح من البيض لخرج به الألم عن طوره.

ومن الغريب أني لم أسمع أبداً بكسر عظام من عضة أسد. فجميع ما يحدثه بالإنسان جراحات في اللحم. والظاهر أن بين نيوب الليث فرجة تحول دون انطباقها على العظم. ومع ذلك فكثيرا ما يحدث أن تقابل نيوب الليث عندما يطبق ماضغيه على كتف فريسته، بحيث لو صب مطهر في الجرح من جانب خرج من الجانب الآخر.

وقد أكد لي الحرابون بأن أخطر سلاح الليث ليست نيوبه ولا مخالبه بالمعنى الصحيح، ولكن ما يسمى "بالمخلبين المجنبين" فعلى جانب ساقي الأسد الأماميتين مخلبان إضافيان من الداخل، يبلغ طول كل منهما بوصتين. وهذان المخلبان بمثابة الإبهامين من راحتي الإنسان على وجه التقريب وهما مقوسان وحادان جداً، وليس من السهل رؤيتهما، لأن الأسد يحتفظ بهما مطويين، وهو يستطيع بسطهما كلما أراد على شكل زاوية قائمة بالنسبة لساقيه. وهذان المخلبان حادان متينان كالخطاف أو الكلاب. والأسد يقطع بهما كالسكين، وفي مقدوره أن يكشف عن أمعاء الرجل

بضربة واحدة من هذين المخلبين المرعبين.

وحراب رجال ماساي يصنعها الحدادون المحليون من "فلز" الحديد الذي يلتقطونه من مسايل المياه. على أن هؤلاء الحدادين لا يعرفون طريقة سقي المعدن فنيا، لذلك كانت النصال أو السنان التي يصنعوها لينة يستطيع الإنسان أن يثنها فوق ركبته، إلا أن الرجال الموران من المهارة في الطعن بها ما يجعل الحربة تخترق أحياناً –بنصلها وقناها– جسم الحيوان. ولكن النصل إذا ارتطم بالعظم أنثنى إلى ما يقرب من زاوية قائمة.

وعندئذ لا يحاول صاحب الحربة تقويم ما أعوج فيها إلا بعد عودته إلى القرية، إذ أن انحناء النصل دليل قاطع على اشتراكه في قتل الطريدة اشتراكاً فعلياً. ومن هنا كان للحربة وصاحبها مكانة رفيعة ملحوظة.

وحينما كنت في سلك القوات الاحتياطية، رأيت رجال مأساي وهم يقتلون الفهود بحرابهم، وإني أعتبر هذا العمل يفوق قتل الأسود مهارة وخطرة، فالفهد وإن لم يزن أكثر من مائتي رطل، إلا أنه أسرع من الأسد كثيرة وأشد منه عدوانا وضراوة، وهووحش ماكر يرقد فلا يبدي حراكا، حتى إذا أشرفت عليه، وثب عليك فجأة بسرعة قاتلة وإصرار تام، وتكمن الفهود كذلك في الكهوف، وفي الأغوار، بينما تفضل الأسود الأحراش والأدغال المكشوفة. فالرجل الذي يزحف بين الصخور والحجارة الضخمة المطاردة الفهد إنما يكون في مركز لا يحسد عليه.

رافقت ثلاثة حرابين في مطاردتهم. والفهد بخلاف الأسد النبيل يقتل لمجرد شهوة القتل. وكان الفهد الذي نحن بصدده قد خلف وراءه عدداً غير قليل من الأعنز، قتلها دون أن يكلف نفسه تناول شيء من لحومها.

وبعد تعقب آثار أقدام الفهد مسافة طويلة جداً، أدى بنا المسير في النهاية إلى رقعة ضيقة، حشائشها مرتفعة، استدل الموران على كون الفهد فيها من آثار أقدامه. فلو كان المختبئ أسدا لأخرجه من مكمنه قذف حقبة من الحجارة أو الحصى لمهاجمة

المطاردين، أو كان على الأقل قد زمجر أو زأر – فيستدل من صوته على مكمنه، ولكن الفهد حيوان ماكر، فلم يأت بصوت أوحركة يستدل منها على اتجاه مكانه على الرغم من كثرة ما قذفنا من حجارة على الدغل، ومن دواعي الأسف أني لم أحضر معي كلاب صيدي.

ولما كان عدد الحرابين ثلاثة فقط، كان استعمالي لبندقيتي أمرا ميسوراً دون أن أخشى من إصابة أحد من الزملاء، فطلبت إلى الرجال الثلاثة أن ينتشروا عن يميني وعن يسارى، على أن يكون ذلك خلفي بمسافة ملموسة. فأنا أعلم أن الفهد عندما يبرز للهجوم سيندفع نحونا بسرعة مفاجئة، وكنت واثقا من أن الرجال لن يجدوا أمامهم متسعا من الوقت لاستعمال حرابهم، ولا كنت أطمع في أكثر من لحظة خاطفة أعاجله فيها رصاصة سريعة عند وثوبه علينا، فلم أكن أقدر الموران حق قدرهم، ولا كنت أتصور مبلغ مهارتهم الفذة في إصابة الهدف برماحهم رغم رقة نصالها.

تحركنا في بطء وحذر بين الحشائش التي كانت ترتفع إلى الخصر وكأننا نفر الدراج لنصيده. وكان رفاقي من الموران يسيرون خلفي بضع خطوات ودروعهم أمام صدورهم، ورماحهم مرفوعة استعدادا للطعن أو الرمي. كنا نتحرك خطوة خطوة، وكثيرا ما كنا نقف ونتلفت يمنة ويسرة بحثا عن الوحش الكبير المراوغ. لم تكن رقعة الحشيش طويلة المدى، ولكن هذا السير البطيء كان مضنيا لأعصابنا التي كانت قد بلغت من التوتر مبلغاً كبيراً.

وفجأة اندفع الفهد من بين الحشائش على بعد متر واحد من مكاني وفي مواجهتي رأسا مع انحراف قليل إلى يميني، ووثب علي وثبة عظيمة، ولكن قبل أن أتمكن من رفع بندقيتي كان الحراب الواقف عن يميني قد اخترق الوحش بحربته، إذ ما كادت أقدام هذا الوحش الكاسر ترتفع عن الأرض حتى كان نصل الحربة الرقيق قد اخترق جسده بين العنق والكتف، وألصقه بالأرض حيث راح يتلوى من شدة الألم، عاجزا عن تخليص نفسه. وفي الحال استل المورانى مديته ووثب للخلاص على الفهد. ولم أستطع منعه عن تمزيقه إلا بشق النفس وقضيت عليه وهو في مثل سيخ الشواء

برصاصة من بندقيتي فأنقذ جلده الثمين من التمزيق.

عندما يكون الموراني على وشك أن يرمي بحربته أو يطعن بها، يمد قدمه اليسرى إلى الأمام قليلا لحفظ توازنه. فإذا رمى، دفع بثقل جسمه كله وراء الرمية. وتبدو الحربة كما لو كانت ترعد وهي تخترق الفضاء. وغالبية الحراب بها تجويف ضيق على صفحتيها، ولعل هذا هو ما يجعلها في اعتقادي تدور على محورها قليلا كما تفعل الرصاصة المنطلقة من البندقية. والموراني لا يخطئ الهدف أبداً من مسافة عشرين مترا، حتى ولو كان الهدف متحركا.

وبعد انقضاء ثلاثة أشهر، أخذت في طريق العودة إلى نيروبي ومعي عربتان تجرهما الثيران، ملأى بجلود الأسود. ففي بحر تسعين يوما قتلت ببندقيتي ثمانية وثمانين ليثا وعشرة فهود، وهو رقم قياسي لا أعتقد أن أحدا توصل إليه من قبل، وأرجو ألا يصل إليه أحد في المستقبل. استطاع أهالي ماساي أن يجمعوا من شحم هذه الأسود مائتين واثني عشر رطلا، وضعوها في خزان خاص، وجمعت أنامل صندوق من "العظام العائمة" وهي عظام مقوسة تختلف في الحجم، وقد تصل إلى أربع بوصات، وهي توجد في آخر عضلة بكتف الأسد، ولا يتصل بأي عظمة أخرى من عظامه. والظاهر أن وظيفتها تنحصر في تنظيم حركة الكتف، ومنع عظامه من الاحتكاك عندما يقوم الأسد بقفزاته الهائلة.

كان لعشرين فقط من الأسود التي قتلتها أعراف ممتازة، أما الباقي –فيما عدا الأناث منها– فكانت أعرافها رديئة، أفسدتها ونحلتها الأدغال الكثيفة. ولو كنت استهدف من صيد الأسود الحصول على جلود طيبة صالحة لفعلت. وإنما كان همي كله قتل الأسود التي تفتك بالماشية، وغالبية هذه الوحوش كانت أعرافها هزيلة. فهي إما كبيرة السن وإما مريضة، ولولا هذا لما افترست الأبقار بدل ما تعودت بطبعها على صيده من وحوش.

وعندما علم أهل ماساي بأني عزمت على الرحيل اغتموا لذلك كثيرة، وعقد

شيوخ القبيلة اجتماعا للتشاور فيما بينهم، وبعد الجدل والنقاش، عرضوا أن يبتاعون لي من مصلحة صيد السباع وبعد أن فكروا في الأمر مليا بذلوا لي خمسمائة بقرة ثمنا لذلك. ولما كانت ثلاث بقرات تعتبر ثمنا سخيا لشراء زوجة صالحة فقد احتواني الزهو لهذا التقدير.

إطلاق الصواريخ فى ويت ساندز

جوناثان نورتن لنارد

ما إن توصل الإنسان إلى إطلاق الطاقة الذرية من عقالها، وطار بسرعة تزيد على سرعة الصوت حتى أصبح يقف على حافة عالمه –الذي صار يتراءى له صغيرة محدودة محصور الرقعة – ومن ثم أخذ يتطلع إلى ما بين الكواكب من فضاء. فما كان يعتبر خلال بضع السنوات الأخيرة أضغاث أحلام، قد أصبح خطة وعزما، حتى صار ما يلهج به العلماء من إنشاء محطات في الفضاء والوصول إلى القمر أمرا لا يتطرق إليه الشك، لا مجرد احتمال أو افتراض، على أنه قبل أن يصبح هذا المطمح حقيقة واقعة، لابد لنا من أن نلم بطبيعة الصواريخ وأن نتعرف على عاداتها، وهو في الواقع أمر قد عكفت بعض الحكومات على دراسته دراسة مستفيضة في تعمق وإمعان.

وفي هذه القصة يروي لنا "جوناثان لنارد" بعض ما شاهده أثناء زيارته لإحدى المنشآت الخاصة بمصنع الصواريخ واختبارها فيكشف لناعن جانب من ذلك النشاط الذي يدور على حافة العالم والذي لا يكاد يتصوره الخيال. إن إطلاق صاروخ بأرض التجارب الواقعة بمنطقة "ويت ساندز" عملية أقل ما توصف به أنها أكثر من هامة، وأكثر من جميلة، وأكثر من مثيرة. إنها مصدر إلهام قل أن يعادله مصدر آخر ما يوجد فوق أديم الأرض.

(١)

خلف مباني المركز الحربي، الصارمة المنظر ترتفع رائعة خلابة جبال "أورجان" "بنيومكسيكو" تحوط بها أشجار الصنوبر القائمة اللون مرتفعة إلى أعلى حافتها. وتترامى حول هذا المركز الأمامي المنعزل مركز الإنسان الفني الصناعي مجاهل مقفرة

خالية من السكان تحاصره من كل جانب، فلا يقع فيها البصر إلا على الأرانب تثب وتقفز بين أشجار الصبار اليولة[1] وعلى الظباء وهي ترقص هابطة من فوق الجبال عندما يخيم ظلام الليل، لترعي ما يتخلف من سكان المركز من نفايات، وأحياناً تقفو الأسود آثار هذه الغزلان لترعاها.

وأمام هذا المركز الحربي تمتد صحراء "حوض تلاروزا" مغبرة خضراء اللون إلى مدى أربعين ميلا، تكتسحها أعاصير مترية مصفرة، وأحياناً تهب عليها زوابع رملية تحجب قرص الشمس عن الأنظار، غير أنه على الرغم من ذلك كله الفراغ الصافي يكشف للناظر جانبا من إطار جبال بعيدة تحيط بأرض الصحراء المنبسطة. ولو أن إنسانا وقف وسط المنطقة التي تحلق فوقها الصواريخ المنطلقة السهل عليه أن يتخيل نفسه قائماً وسط منخفض أوفوهة بركان من أعظم ما يقوم في القمر من منخفضات أو براكين، ومن حواليه الأفق كالقلعة أو الاستحكامات المسورة.

وأنت إذا ألقيت النظر من بعيد على ما صنعه الإنسان وشيده وسط هذا المكان، لتضاءل أمام عينيك وصغر بالنسبة للمكان نفسه، على أن بعض هذه المباني لتثير الدهشة والإعجاب عن كثب لضخامتها وروعتها. وهناك على منحدر أحد الجبال، يقوم بناء مسلح منفرد متشامخ كالمعبد العظيم الضخم فوق جبال التبت. هذا البناء هو المكان الذي تجرى فيه التجارب الأضخم "قاذفات" الصواريخ ذات السرعة الجبارة. والحق إنه ليبدو كأنه قاعدة ملحقة بهذا المكان للطيران منها إلى القمر. وإذا توغلت بعيدة في الصحراء وجدت بناء أشد غرابة وأدعى للعجب – بناء مسلحا على هيئة الأكواخ أو الكهوف الثلجية، جدرانه وسقوفه ضخمة متينة كصخور الأهرام. ولهذا المأوى فتحات ضيقة تقوم مقام النوافذ، زجاجها سميك يبلغ عدة بوصات، زيادة في الحيطة من احتمال تمرد صاروخ وانقلابه على صانعيه فيمزقهم شر مزق ويتركهم أثراً بعد عين.

---

[1] جنس من النباتات الزنبقية.

وبجوار هذا الحصن العصري تبعثرت ملحقات غريبة: مخازن تحت الأرض أشبه ما تكون بالقبور، لحفظ الوقود الكيميائي الشديد الانفجار وأبراج من أسلاك الصلب المتشابكة، وغابة اكتظت بالقضبان والأسلاك المتداخلة كبيوت العناكب، على حين انتشرت فوق الصحراء لمسافة أميال عديدة من جميع الجهات آلات غريبة مألوفة الشكل. وهناك إلى جانب كل هذا تقوم آلات الرادار باكتساح الأفق في كل حين بأشعتها الإلكترونية وقد سلطت عيون آلات التصوير الفوتوغرافي وآلات مقاييس الأبعاد على مركز الانطلاق، بينما نصبت فوق ريد الجبل على بعد غير يسير "منظارات" ضخمة مزودة بمرايا سمكها أربعون بوصة وهي على أتم استعداد لتتبع سير الصواريخ وهي تشق الفضاء.

وبهذه الصحراء أيضاً أشباح. فالفجوات الموجودة بالأرض بين الأسرة الهوائية المشدودة إلى جذوع الأشجار قرب قاعدة انطلاق الصواريخ مليئة بقطع لامعة من الشظايا الفخارية المطلية. فمنذ عهد متغلغل في القدم كان حوض "تلاروزا" وادياً خصباً يعيش على خيراته أقوام كثيرون جداً من الهنود الذين تدل على آثارهم أطلال مساكنهم ومقابرهم المتناثرة بين الأعشاب، على أن أحدا لا يعلم ماذا حدث لهؤلاء القوم الغابرين، فمن المحتمل أن تكون المنطقة قد عصف بها جفاف طويل الأمد، أو أن يكون النهر الذي كان يجري بين ربوعهم قد تحول مجراه أو غاص تحت الرمال. وأيا كان الأمر فإنهم قد عفى على آثارهم الزمن. كان ينقصهم المعرفة ووسع الحيلة لمعالجة مثل هذه الأحداث والتقلبات التي طرأت على بيئتهم ومحيطهم، فلفوا وراءهم موتاهم وشظايا آنيتهم الفخارية وأسلحتهم الضعيفة. وما فتئ هواة الآثار من رجال مركز التجارب يقومون بالحفر في الرمال بجوار القاعدة، فيعثرون على هياكل أولئك الهنود العظيمة مغمورة تحت الرمال، وقد قلبت فوق رؤوسها آنية مطلية من الفخار.

(٢)

لعل من الخير أن يسمح لأولئك المتحمسين لفكرة غزو الفضاء من المستهترين الذين يتكلمون في استخفاف عن الطيران إلى القمر أو المريخ. أقول لعل من الخير أن يسمح لهم بمشاهدة ما يجري في "ويت ساندز" فقد يكون في تفهمهم لما سوف يقوم في سبيل تحقيق هذه الفكرة من صعوبات جمة ما يردهم إلى الصواب والرشد. وما الصواريخ التي تدوي فرق صحراء نيومكسيكو إلا آلات بدائية بالمقارنة إلى ما سوف تكون عليه عابرات الفضاء الحقيقية. فهذه الصواريخ لا ترتفع في الفضاء إلى أكثر من بضع مئات من الأميال، وسرعتها لا تكاد تعادل عشر السرعة التي لا بد أن يكون في مقدور الصواريخ بلوغها عند الانطلاق للتحرر من جاذبية الأرض، وهي لا تحمل طيارين آدميين بل إنها كلها ينتهي بها الأمر إلى التحطيم.

ولكن هذه "الوحوش البدائية" (بعض رجال الصواريخ يسمونها"وحوشا غاشمة" بينما يسميها البعض الآخر "طيوراً" هي أحسن ما استطاع الإنسان المتطلع إلى غزو الفضاء أن يقدم لنا اليوم. وإلى "ويت ساندز" يحمل أحسن ما ينتجه التقدم الصناعي، فمن معادن غريبة عولج سطحها بطريقة خاصة أكسبتها مناعة لمقاومة الغازات المنطلقة، وقد احمرت وابيضت من شدة درجة الحرارة. إلى أمخاخ إلكترونية محزومة مع أنابيب مفرغة متناهية الصغر في الحجم صقلت بدقة كما أصقل عدسات المجهر. إلى مضخات (طلمبات أومنافخ) لا يتجاوز حجمها حجم فناجين القهوة، في مقدورها طرد الوقود المتآكل بسرعة لا تقل عن سرعة تدفق المياه العظيمة في قنوات الري الزراعية.

ويرى الوافد على "ويت ساندز" معرضاً متواصلاً لأجهزة جديدة لا يكاد يتصورها العقل ، آلاف من حواس صناعية ذات خصائص معينة لاغي للإنسان عنها المضاعفة قوة حواسه الطبيعية. وتتخذ هذه الحواس الصناعية أمكنتها في المعامل الرئيسية بالمعقل الحصين أوداخل ألواح صغيرة متينة البناء منتشرة هنا وهناك فوق رمال الصحراء، حيث تقوم بما صنعت له من أعمال في سرعة البرق الخاطف، تاركة

طابعها على شرائط فوتوغرافية، أو تسجل بأقلامها الدقيقة على شريط من الورق بخط غريب وبسرعة المختزل السريع الماهر.

أما الرجال الذين يباشرون هذه الآلات، فلا يقلون عنها مهارة ودقة.

وعلى "ويت ساندز" يفد كذلك أعاظم الخبراء في الإلكترونات والبصريات وفي علوم الطبيعة والكيمياء والتعدين والرياضيات والفلك، بعضهم يمكث أعواما وبعضهم لايقم إلا ريثما ينتهي من المساهمة في عمل معين يقوم به لهذه القاعدة النائية القصية التي تخزن فيها رائعات المعارف والصناعات الفنية.

على أن ما يقوم به هؤلاء الخبراء في الغالب الأعم محاط بالسرية التامة، ولا غرو فقاعدة "ويت ساندز" تعتبر رسمية مركزة من مراكز المهمات العسكرية – لتحسين الأسلحة واختبار المستجد منها – أسلحة رهيبة. وبعض هذه الأسلحة صقور آلية تقعقع في الفضاء متى أمرها الإنسان، وتفتك في انطلاقها بكل ما يصادفها في مدار تحليقها، وثم أنواع أخرى تسمى الملائكة المنتقمة، وقد صممت بطريقة تكفل اهتداءها بالنجوم في طيرانها عبر القارات، لتضرب المدن المعادية في ومضة انفجار نووي.

ورجال "ويت ساندز" لا يتكلمون عن هذه المشروعات الرهيبة في شيء من الاستخفاف والاستهتار، أنهم يعلمون أنها أمور ضرورية، وسوف تظل ضرورية طالما أن الجنس البشري سادر في انتهاج مسلك التدمير المتبادل. ولكن حينما ينشر الليل ذؤابته ويضرب بجرانه فوق الصحراء، وترصع فيه السماء الصافية شتى النجوم المتألقة بألوانها المتعددة اللامعة، يميل رجال "ويت ساندز" –شبه معتذرين– إلى العدول عن متابعة مشروعات التدمير والعودة بأفكارهم إلى مشروع هوأكثر اتصالات بالسلام – مشروع غزو الفضاء الذي فوق رؤوسنا.

وحتى المجندين منهم –وبعضهم من العسكريين المثقفين الذين يخلدون إلى لعب الشطرنج عندما يكونون في الثكنات، ويتجاذبون أطراف الحديث عن المستلزمات

والمقاييس الميكانيكية– حتى هؤلاء يدركون تمام الإدراك أنهم يعملون في مكان من الأرض هو أقرب إلى الانطلاق في الفضاء وأكثر ملاءمة لذلك من أي مكان آخر.

وهم يقدرون كل التقدير ما حققه الإنسان من تقدم في مسيره نحوالفضاء وما يعترض طريقه من عقبات جسام لم تذلل بعد. وهم يعلمون فوق كل هذا. أن للصواريخ أطواراً وأمزجة كأطوار وأمزجة الراقصات الممشوقات القدود، الناعمات الضامرات الخواصر اللائي يشبهون.

وفي الأيام الغابرة حينما كان الأمريكيون يتعلمون لأول مرة كيف يطلقون الصواريخ الألمانية ف – ٢ التي غنموها في أواخر الحرب العالمية الثانية ارتفع صاروخ من تلك الصواريخ الجهنمية الملتهبة من قاعدته، وفي تلافيف مخه الدوار الألي "الجيروسكوبيك" خطة مؤامرة للتمرد، فلابد من الارتفاع عموديا ككل صاروخ مهذب، استدار صوب الجنوب، ولم يملك مطلقوه –من أمريكيين وألمانيين– أكثر من أن يحملقوا خلفه بأبصاره في هلع وفزع، فلم يكن ثمة وسيلة لوقفه.

وحدث ذات مرة على بعد خمسين ميلا عبر مقاطعة "ريوجراندي" أن مدينة "جوارز" بالمكسيك كانت تحتفل بيوم عيد من أعيادها، وكان شارعها الرئيسي الفسيح الممتد من نهاية معبر (كوبرى) البارو، مزينا بالأعلام غاصة بالجماهير الغفيرة، وهم في مرح وحبور يرقصون على أنغام الفرق الموسيقية، تسحرهم بألوانها الزاهية، صواريخ الأعياد البريئة وهي تنطلق فوق رؤوسهم، وبينما هم في ذلك إذ مال فوقهم من ناحية الشمال الصاروخ المتمرد ف – ٢ منطلقاً فوق رؤوسهم بسرعة ثلاثة آلاف ميل في الساعة وانفجر مرتطماً بمقبرة المدينة القائمة فوق إحدى التلال الصغيرة خلف أسوارها مباشرة، محدثا هزة عظيمة في مكان سقوطه وفيما حوله.

ولعل المكسيكيين قد راق لهم منظر هذا الصاروخ الجبار، وتبادر إلى ذهنهم بادئ ذي بدئ أنه من قبيل صواريخ الأعياد، أعد ليكون مفاجأة لهم، فهم بطبيعتهم من ذاك الفريق من الناس الذين يرحبون بالموت ويرافقونه طالما لحوا فيه صورة من

صور البطولة، بيد أن السلطات في "ويت ساندز" ما برحوا يشعرون بما قد تكون عليه الكارثة من فداحة لو أن الصاروخ المتمرد اختار طريقة مختلفاً اختلافاً يسيراً.

وقد ترتب على هذا الحادث الدولي الذي كاد يؤدي إلى كوارث جسام أن ابتكرت طريقة للأمان إلى جانب بناء المعقل الضخم الحصين، على أنه ما كاد يفرغ من هذه المعدات الجديدة حتى تمرد صاروخ آخر من نفس الطراز أي ف – ٢ فتفز قفزة جبارة في الفضاء لم يلبث بعدها أن قام بحركة انقلابية عظيمة في الهواء، ثم دوى صراخه المزعج على بعد ستمائة قدم من موضعها وهويجر ذيله الناري الملتهب. وفي النهاية استطاع الفنيون ترويض الصواريخ ف – ٢ المستولى عليها من الألمان، بيد أن جميع الصواريخ لا سيما المستحدث منها كانت تكمن فيها بذور الكوارث أو احتمال وقوعها على الأقل. لذلك كان من الضروري أحياناً أن تختبر وهي ساكنة على الأرض موثقة إليها بإحكام. على أن هذا النوع من الاختبار الذي يرجى منه توخي الحيطة ضد احتمال وقوع الكوارث لايؤمن جانبه بصورة قاطعة فقد يقع المحظور ويختل توازن الصاروخ بصورة واضحة جلية.

وقد حدث منذ وقت غير بعيد حينما كان المختصون يقومون باختبار صاروخ من الحجم الكبير –وهو ساكن في مكانه فوق الأرض– أن وقف فجأة على ذيله بينما انطلق الدخان واللهب من محركه المغلول، وبعد ذلك أخذ يناضل في قوة وعنف كما يفعل الوحش الضاري عندما يحس بأنه أسير مغلول وسرعان ما تحطمت الوسائل التي تشد وثاقه إلى الأرض فانطلق عمودي) في سرعة البرق، واحتجب وراء قبة الفلك الزرقاء.

اكتسحت "ويت ساندز"موجة من الفزع والهلع، ولم تكن شبكة الآلات ذات العيون المتعددة قد تنبهت للأمر، إلا أن أجهزة الرادار نشطت المعالجة الموقف على الفور مكتسحة الأفق المردد لصدى الصاروخ الآبق المتمرد بينما مضت عيون المناظير تفحص الفضاء باحثة عن الصاروخ الفار، وانطلقت أشعة اللاسلكي تتلمس مكانه في الفراغ، ولم يكن أحد يعلم إلى أين ذهب. وكل ماهنالك أنه كان له من المدى ما

يكفي للانطلاق شمالا حتى "سانتافي" أو جنوبا حتى "شيهيواهوا" في مكسيكو قبل أن يسقط.

على أن رجال "ويتساندز" لا يسهبون في شرح انطلاق الصاروخ على هذه الصورة فهم يرفضون ذكر العلل والأسباب تفصيلا، أو ربما هم لا يعلمون إذا كانت الأوهاق[1]الإلكترونية قد تمكنت من إدراكه والسيطرة عليه قبل اختراقه منطقة الجو الأرضي، وأيا كان الأمر فقد سقط بالفعل في منطقة غير مسكونة، فلم ينفجر في ميدان "سانتافي" ولم يحدث به فجوة كبيرة.

على أنه كثيرا ما تقع بعض الكوارث الصغيرة، وهي كوارث لا حصر لها، وسوف لا يخلو المستقبل من أمثالها، بل سوف يفوقها حصراً وعداً، ولا غرو، فما "ويت ساندز" به سوى مركز أمامي من مراكز التقدم الصناعي الخارجة على القانون. كل صاروخ يحمل في ثناياه وفي أجزائه ما لا حصر له من عوامل النقمة التي تتآمر على تحطيمه وتحطم صانعيه، فكان لابد أمام هذه النذر الرهيبة من العمل على إقصائها والقضاء عليها جهد المستطاع، وذلك عن طريق اختبار كل قطعة من أجزائه حتى أصغرها حجما بمنتهى الدقة قبل التركيب النهائي مرات ومرات.

ويجرى الاختبار الأول داخل المصانع حيث تصنع الأجزاء، فتصقل وتلوى وتمط وتصهر وتبرد، حتى ما كان منها تافهة أو غير ذي موضوع كالمزالج والمغالق والأختام. ثم تجمع الأجزاء بعد ذلك في وحدات أوسع نطاقا، وتختبر اختبارا أكثر دقة، كما يختبر المخ الإلكتروني للتأكد من مبلغ اتزانه وذكائه. أما حركات الأجنحة ومدى تأثرها بالريح ومدى صلاحية سطحها وسيطرة الآلات عليها، فيجرى اختبار ذلك داخل نفق هوائي حيث تدرس حركاتها دراسة دقيقة مستفيضة.

وأروع الاختبارات، تلك التي تجري على المحركات في أماكن منعزلة محكمة الأسوار بعيداً عن الجيران المتذمرين، وحتى هذه الأماكن نفسها، على بعدها من

---

[1] جمع الوهق بالتحريات والسكون = الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان.

مصاطب الاختبارات، تبعث في النفس شيئاً غير قليل من الانقباض وتنذر في تشاؤم بوجوب التحرز واتخاذ الحيطة الشديدة، وتشاهد في كل مكان علامات التحذير من الخطر بألوان صارخة، وقد بنيت جدران المنشآت بالخرسانة السميكة إذ يبلغ سمكها عدة أقدام. وإذا كان الأكسجين السائل من بين العناصر المستعملة في المحركات، فإنه يقرقر باردا في صمت داخل زجاجات حرارية ضخمة الحجم مغلفة بالمسلح، بينما يتصاعد بخار الأكسجين من فتحات أنابيب خاصة على صورة خيوط بنفسجية رفيعة.

ومحركات الصواريخ نفسها صغيرة الحجم إلى درجة مذهلة. فهناك طراز غير أنيق المنظر، نحيل الخصر جدا، مصنوع من ألواح معدنية، لا يزيد حجمه على سلة تتسع لقنطار، وهو على الرغم من ذلك يستطيع تسيير عدد من البواخر عابرة المحيطات. وهو مشدود إلى هيكل مجموعة من ألواح الصلب المتين بينما تؤدي شبكة من الأنابيب إلى رأسه المستدير.

ويجلس الرجال الذين يقومون بإجراء عملية الاختبار خلف منصة الإدارة الآلات تقوم بدورها خلف حاجز من الخرسانة يبلغ سمكه عدة أقدام، بينما صفت منصات الآلات المختلفة صفا فوق صف، لتسجيل جميع أطوار (المحرك) أثناء عملية التجربة. أما الزائرون –إذا سمح لهم بالمشاهدة– فيقفون على مسافة كبيرة من مكان الاختبار. ومن الحكمة أن يحشوا آذانهم بالقطن. وتجثم على مقربة من أنبوبة ذنب المحرك آلات التصوير التلفزيوني مشاهدات مستهلكة، تعكس ما ينطبع في عدساتها على شاشات أعدت داخل غرفة القيادة، مسجلة كل ما يطرأ على عملية الاختبار من خلل، إذ قد (تتحطم) هذه المشاهدات غير الآدمية ، وكثيراً ما يحدث ذلك. وفي أحد الأمكنة المعدة لهذه التجارب يعمد إلى دفن بقايا آلات التصوير التلفزيوني المحطمة في مدافن خاصة، نصب فوق كل مقبرة منها صليب صغير لتخليد ذكرى هذه الضحايا غير الآدمية المستشهدة دون أن تتذمر أو تشكو.

على أن مشاهدة محرك الصاروخ أثناء اختباره تجربة عنيفة مزعجة، فأنت تبصر

بدون أي إنذار أو مقدمة لهباً عظيماً ينبعث من أنبوبة الذيل يخطف بريقه البصر، وموجة من الحرارة تلطم البشرة والإهاب إلى جانب صوت هائل مدو يعجز عنه الوصف يصم الآذان على الرغم مما حشيت به من قطن. وأسوأ من هذا وذاك وأشد إزعاجا أزيز عالي النبرات كطنين النحل، صوت لا يكاد يتبينه السمع يصدر من احتكاك جانب المحرك، وهوأسرع من الصوت نفسه، صوت يمزق شغاف القلوب والأكباد، ويبعث داخل الجماجم صدى نبرات كالتي تصدر عن صليل احتكاك النصال.

ولكن اللهب المدوي الصارخ شيء رائع جميل. فعندما تستعمل بعض عناصر معينة للوقود يلمع لونه ويتألق ويبهر العيون ويجففها من خلال قطارة أو مصفاة تحجب ضوء الشمس. وعند ما تستعمل للوقود عناصر أخرى ينبعث اللهب هادئة رقيقة شفافة بنفسجي اللون يخالطه شريط من نور على صورة صحاف ماسية الشكل، تبدو كأنها أوراق أشجار من الذهب تضطرب في وسطه. هذه الأوراق المصقولة اللامعة تنشأ من موجات اهتزازية تماوج وتمايل من خلال اللعب. وعندما يقفل صمام الوقود يطارد بعضهما بعضا متدفقة داخل المحرك وكأنها سرب من الأرانب يلج متقاطراً حفرة من الحفر.

واللهب الذي ينبعث من "هيدريد البورون" وهو ما يستعمل للوقود في الاختبارات التجريبية، أخضر اللون شديد اللمعان، ثم لا يلبث أن يتحول إلى طبقات أوموجات باهتة من دخان بنفسجي اللون لا يعادله في ألوانه الزاهية تنين الصين الخرافي وهويحلق في الفضاء.

وفي بعض ما ينظم من اختبارات ينتشر اللهب أفقيا فتكنس غازاته الأرض محرقة ما فوقها من صخور حيثما لامستها ألسنتها المندلعة، وأحياناً يوجه اللهب إلى أسفل مسلطة على لوح من الصلب يغمره طوفان من المياه الباردة من ناحيتيه العليا والسفلى. فلوأن اللوح كان مصنوعا من الخرسانة المسلحة وروعي أن يبلغ سمكه عدة بوصات لحطمه اللهب وفتته إلى حصى وتراب.

والرجال المطلعون على أسرار القذائف الموجهة لا يبوحون بعدد التجارب التي تجرى بنجاح على محرك الصاروخ قبل إعلان صلاحيته للاستعمال مستقبلا في الفضاء، فهو سر من أسرار الإحصاءات التي لها قيمتها من الناحية العسكرية. ولكنهم يجزمون بأن الاختبارات التجريبية ما تزال من الأمور الضرورية على ما فيها من تعريض المحرك الصاروخي للتحطم. ذلك لأن فن صناعة المحركات الصاروخية لم يصل بعد إلى المستوى الذي ينتظر معه أن تحقق هذه الوحوش النحيلة الخصر ما يتطلب منها أداؤه دون سابق تجربة.

وثمة نوع آخر من الاختبار يعمل في غرف هادئة، منها ما هو مشيد جزيرة "مانهاتن" ليقوم مقام أرض التجارب في بناء، لولا وجود الحرس العسكري على أبوابه لظن الرائي أنه مصنع للعب الأطفال أوللملابس. ومنها ما هو مقام وراء تلال "يسادينا" الجافة في ولاية كاليفورنيا، فهنا في هذين المكانين الهادئين لا توجد محركات مدوية مزعجة ولا أجزاء صواريخ، ولكن توجد بدلا منها منصات مسندة إلى الجدران، مصنوعة من اللدائن سوداء اللون، أقيمت فوقها صفوف متراصة من العدادات والساعات والمسجلات الدقيقة، وثريات ينبعث منها ضوء أحمر ضعيف. هذه المجموعة هي الوجوه الكالحة الجامدة للمحاسبات الإلكترونية التي تقوم أمخاخها المصنوعة من المعدن والزجاج في عشر معشار الثانية حل المسائل المعقدة التي يتطلب حلها مجموعة من الرياضيين ينفقون في سبيل ذلك أعمارهم.

وبديهي أن مهرة الرياضيين وحدهم هم الذين يقدرون وحدهم هذه الآلات الحاسبة حق قدرها وينتشون من مراقبتها أثناء حلها المسائل في مثل لمح البصر. بيد أن الذين أوتوا الحكم والمعرفة يرقبون النتائج باهتمام بالغ كما لو كانوا "بويت ساندز".

وهم يعطون الآلة الحاسبة –تمهيدا للطيران المعتزم– رؤوس المسائل المطلوب حلها، والتي تتصل بالصاروخ الوهمي وبمخه الألي. ثم يقومون بضبط العدادات والأجهزة التي تمثل جميع العوامل والمؤثرات الخارجية كجاذبية الأرض، وضغط الهواء،

وما إلى ذلك، وعندما يفرغ من إتمام هذه المعدات، يكون كل جهاز قد استطاع أن يسجل كل ما ينتظر من تصرف كل جزء من أجزاء الصاروخ الوهمي، سوى جزء واحد فقط هوالجزء الذي عليه العول الأكبر. والذي لم يختبر بعد.

وقد علم الرياضيون أن هذا الجزء الجديد –وربما كان من عناصر التحكم الأوتوماتيكي– قد يكون له مدى تأثير معين على طيران الصاروخ. لذلك فهم يعطون الجهاز الحاسب مسألة لحلها. ثم يعمدون بعد ذلك إلى ضبط الجهاز التركيز فكره وحل المسألة. وتسلط على مخه عاصفة من التيارات الإلكترونية فيجيء الرد مبينا كيف تصرف الصاروخ في طيرانه الموهوم.

وأحياناً يمنى هذا الطيران بالفشل وأحياناً ينتهي بكارثة. فهذا الصاروخ الذي لا وجود له في الواقع إلا في المخ الإلكتروني المزود به الجهاز الحاسب قد يتحطم وتتناثر أجزاؤه أوينقلب في الفضاء رأسا على عقب، ويهوى إلى الأرض مرتطماً في صحراء وهمية، ويأتي بعد ذلك طيران آخر الاختبار الجزء المطلوب اختباره بعد وضعه في وضع يختلف بعض الاختلاف عن الوضع الأول. ويسجل ما يحققه هذا الاختبار الجديد من توفيق في السجلات الخاصة، وأخيراً بعد عدة محاولات في هذا الطيران القائم على العمليات الحسابية المحضة يقف الرياضيون على كيفية تصرف الجزء الجديد، الذي لولا هذه الاختبارات للطيران الوهمي لاستعصى عليهم الوصول إلى معرفة ما ينشدونه إلا بعد إطلاق عشرين أو ثلاثين صاروخاً تتحطم في النهاية فوق صحراء "نيومكسيكو" المجدية ولا تقل نفقة كل منها عن ربع مليون من الدولارات.

(٣)

وفي اليوم الذي يطلق فيه صاروخ من الحجم الكبير في "ويت ساندز" ينشط الجهاز بكامل معداته نشاطا مركزة، وينتشر في الصحراء لمئات من الأميال، فمن حناجر مكبرات الصوت المعدنية تنطلق النبرات وئيدة متهدجة متكررة كل نصف الثانية، لتنبيه كل واحد إلى النشاط المنتظر منه أن يقوم به في الوقت الموائم. وكنت

ترى السيارات من طراز "الجيب" وسيارات النقل تروح وتغدوفي الصحراء مثيرة الغبار أينما سارت، فيتطاير في الفضاء كما يتطاير الريش. ومن ثم تتجه أعين الرادار صوب المكان المعد للانطلاق حيث تجمعت حشود من الناس فوق المنشآت الصلبة المحيطة بالصاروخ الجميل الشكل الذي تم إعداده.

وكنت ترى بعض القائمين بأمر الصاروخ قد غاصوا من قمة الرأس إلى أخمص القدم – على غرار النساء الغربيات بالصحراء– في ملابس صنعت من اللدائن لوقاية أجسامهم من المواد الكيمائية المؤذية، بينما وضع آخرون على آذانهم السماعات الدقيقة، أو أجهزة الراديو للمخاطبة والاستماع في نفس الوقت. وثم فريق آخر شرعوا يزودون الصاروخ بالوقود ويختبرون مخه الإلكتروني وصماماته ومضخاته بآلات دقيقة شديدة الحساسية. وإنك لتخالهم في موقفهم هذا بعض فئات من الأقزام قد عكفوا على تدليك سيدة الراقصات الفارعة الطول الممشوقة القد، وهي تستعد للظهور على خشبة المسرح للقيام بدورها الأول والأخير.

وأما المعمل الحصين المنيع فكان في داخله أشبه ما يكون بالمنجم في قسم من أقسامه، وبمحطة الراديوفي قسمه الثاني، وتظهر سفينة حربية على وشك الاشتباك في معركة عنيفة في قسمه الثالث، فهويعج بالنشاط والحركة من غدو ورواح على أعمال معينة محددة. كل رجل منوط به عمل يؤديه، يتصل أكثر ما يتصل بتلك الآلات والأجهزة المنتشرة فوق وجه الصحراء، وكأنها بيت ضخم هائل من بيوت العناكب. وكانت تسمع جرس الأصوات المعدنية الجامدة، وتلمح خطوطا رفيعة خضراء اللون تتعارج فوق صفحات راسمات الذبذبات. وفوق مائدة طويلة موضوعة تحت نافذة ضيقة تحمل صمامات التحكم الأوتوماتيكي، يوجد صف من الأنوار الصغيرة الحمراء، وكلما انطفأ واحد منها كان ذلك علامة على أن آلة من الآلات قد أتمت دورتها وأنها – أيا كان موضعها، قريبة أوبعيد– فإنها قد أصبحت على أهبة الاستعداد. وتمضي الثواني في دقاتها وكأنها نبض هادئ متلاحق، وبعد حين يدوي صوت رهيب تردد صداه مكبرات الصوت في كل مكان قائلا: "صفر إلا ثلاثين

دقيقة"، ومعنى هذا أنه لم يبق سوى ثلاثين دقيقة على الموعد المحدد لإطلاق الصاروخ بالساعة والدقيقة والثانية.... وسرعان ما تضطرب أعصاب الرجال، سواء منهم من كان فوق الصاروخ لإتمام عمله، ومن كان يكتسح أرجاء الصحراء ببصره. وما هي إلا طرفة عين حتى تزداد سرعة تدفق الدم في الشرايين فقد حانت الساعة الرهيبة.

ومن ثم تنطفئ غالبية الأنوار الحمراء الصغيرة فوق مائدة المراقبة الأوتوماتيكي الواحد تلو الآخر، وتسمع صوتا يقول "خلل طارئ" ثم لا يلبث الصوت أن يعلن "أصلحنا الخلل" ويدوى مكبر الصوت معنا مرة أخرى "صفر إلا عشرين دقيقة".

وها هي سيارات النقل وسيارات والجيب، محملة بالرجال تندفع من هنا وهناك، من كل صوب وحدب، وفي كل مكان وهي تسرع في الابتعاد ما وسعها الإسراع عن منطقة الخطر... أغلقت الأبواب ومدت السلاسل المتينة عبر الطرق البعيدة لمنع المرور، وقام الرجال الموجودون فوق هيكل الصاروخ وحوله بتمتمة نوع من الرقي كما يفعل الناس في المواقف العصيبة الرهيبة فاحصين آلاته الدقيقة المعقدة للمرة الأخيرة.

ثم راحوا بعد ذلك يغلقون أبواب الصاروخ المحكمة التركيب، الموصلة إلى جوفه الجهنمي، ومن ثم أخذوا يهبطون من فوقه في شيء من التردد والتراخي كأنهم يتركونه وهم من تركه على مضض، ثم شرعوا يجرون هيكله الخارجي بعيدة عن صلبه، كاشفين عن قوام الصاروخ الممشوق وطوله الفاره، ذلك الصاروخ الذي حكم عليه بالإعدام، والذي سوف يلقي حتفه بعد فترة وجيزة من الزمن. وفي هذه اللحظة التي يزاح فيها الستار عن صاروخنا العملاق، يبدوللعيان كأدق وأروع ما صنعته يد الإنسان. وهنا يدوي مكبر الصوت مرة أخرى معلناً "صفر إلا عشر دقائق".

خيم الصمت رهيباً كئيباً على ربوع الصحراء، لا أحد يرى على مدى مرمى البصر، ولا إلى أبعد من مرمى البصر. لقد فر الناس جميعاً مبتعدين عن القذيفة الجبارة، بيا آوى فريق منهم إلى الملجأ الحصين يعتصمون به... لم يبق من الأنوار

الصغيرة الحمراء سوى عدد يسير منها فوق مائدة المراقبة الأوتوماتيكي. وهنا شرع جهابذة العلم الأفذاذ الذين قضوا الشطر الأكبر من أعمارهم في صنع الآلات والأجهزة التي خلقت ذلك الصاروخ الضخم يغمغمون المرة بعد الأخرى صلواتهم الفنية اللادينية، وراح بعضهم يربت بدافع الغريزة على أقدام بعض الأرانب التي حملوها معهم مجلبة للحظ، أولتكون لهم بمثابة التمائم والتعاويذ، بينما راح البعض الآخر يضع أصبعه الوسطى فوق سبابته كما يفعل صغار التلاميذ في المدارس عند انتظار نتيجة من النتائج التي يعلقون عليها الآمال.

ويدوي مكبر الصوت من جديد "صفر إلا دقيقة واحدة؟

وهنا يشارك الصوت الجامد المنبعث من (الميكروفون) غير المنظور شعور القلق والترقب الذي استبد بجمهرة الموجودين، وراج يتزايدويشتد من لحظة إلى أخرى. ومرة أخرى ينطلق مكبر الصوت في نغمة أكثر دوياً "صفر إلا خمسا وأربعين! ثم صفر إلا ثلاثين ثانية".

وهنا ينطفئ آخر الأنوار الصغيرة الحمراء اللامعة تاركا مائدة القيادة، وقد زال عنها كل ما يعتري الصاروخ من موانع فيما بينه وبين ساعة مجده في طبقات الفضاء العليا. فهوالآن يقف في الميدان عاريا وحيدة كأنه قربان آدميا يحف به آلاف القساوسة. وتنبعث في هذه اللحظة من جانب الصاروخ على الأرض ريشة من لهب تشق الفضاء عبر الصحراء، إنها الإنذار النهائي. الإنذار الأخير المرئي، للرجال والآلات والطائرات التي لا تتمتع بآذان إلكترونية.

ومرة أخرى يدوى مكبر الصوت "صفر إلا خمس ثوان"، ثم تنطلق الإنذارات منبعثة من مكبر الصوت متلاحقة " أربع ثوان ثلاث ثوان – ثانيتان – ثانية واحدة – صفر!!"، وفي المأوى الحصين حيث يخيم الصمت التام، يدير ضابط إطلاق الصاروخ مفتاحا كهربائية، وفي الحال انطلق رمح من اللهب المصفر اللون، وانبعث من ذنب الصاروخ سحابة كثيفة بيضاء، ودوت في جوانب الصحراء صرخة هائلة، أخذ بعدها

الصاروخ يتصاعد في بطء أول الأمر كما لوكانت تجذبه إلى أعلى قوة خفية. وبعد أن يهتز قليلا يمنة ويسرة يعتدل واقفا على ذنبه الناري، وكأنما قد ازداد ثقة بنفسه فاستجمع سرعته وانطلق يشق الفضاء في طبقاته العليا كالسهم الرائش.

وما هي إلا بضع ثوان حتى كان قد اختفى عن الأنظار، لم يبق له من أثر سوى شريط من دخان أوسطر رسمه أصبع من الطباشير قد انعكس ظله على صفحة السماء الزرقاء.

وإلى هنا ينتهي طيران الصاروخ بالنسبة إلى العيون الآدمية، ولكن ليس كذلك بالنسبة للعيون الآلية. فهي ما فتئت له بالمرصاد تتابعه وتلاحقه، فمن أجهزة لاسلكية ورادارات[1] منبثة في المناطق المجاورة والمناطق البعيدة على السواء، كما اشرأبت خلفه أعناق آلات التصوير. ويأتي من الصاروخ على موجات الأثير طوفان من المعلومات الشيقة تلتقطها أجهزة الاستقبال اللاسلكية وتسجلها في لهفة واهتمام.

وبداخل مقدم الصاروخ مجموعة من الحواس الدقيقة ذات ميزات وخصائص بالغة الأهمية، فمنها مايحس الهواء فيسجل درجته وكثافته وسرعة هبوبه على الرغم من سرعة الصاروخ المذهلة.

ومنها مطيافات لتحليل ضوء الشمس الذي يزداد بريقه في الطبقات العليا. ومنها عدادات جيجر التي تحصى شذرات الأشعة السينية وهي تنبعث بقوة من ثنيات الفضاء. ومنها عدادات "فوتون" التي تتلمس أشعة إكس المنبعثة من الشمس كالطوفان.

وبعض هذه النتائج تسجل على أفلام فوتوغرافية تلف تلقائيا حول أسطوانات دقيقة لها من المتانة ما يكفل لها البقاء بعد ارتطام الصاروخ بالأرض وتحطمه نهائيا. أما

---

[1] الرادار جهاز يوضح اتجاه الطائرة والسفن والشواطئ وما إليها مبينا في الوقت نفسه مدى ابعادها بفضل ما يعكسه من الموجات الكهرومغيطية.

البعض الآخر فيصل إلى الأرض بالراديو حيث تستقبله أجهزة اختزال خاصة تسجله سريعاً على الورق خطوطا متماوجة.

وحين تصل المعلومات على صورة أصوات واضحة الجرس تبدو لمن يسمعها أشبه ما تكون بألحان منبعثة من بيان يعزف عليه صبي صغير السن. ويستدل من التحليل التسجيل هذه الألحان أوالأصوات، على أنها تختلف كثيرة في الطبقة. فهذه الموسيقى الغريبة التي تسجل على شريط ممغطس بطرق وأجهزة خاصة تروي قصة الصاروخ بأكملها، قصة كفاحه ونضاله وفوزه وانتصاره في طبقات الأثير العليا كما تروي قصة خاتمته الأليمة وتحطمه.

وعندما يكون الصاروخ فوق منصته (قاعدة الانطلاق) تعزف آلات في مقدمته نغمات وألحانا هادئة مملة، بعضها متواصل يشبه النغمات المنبعثة من موسيقى القرب، وبعضها منقطع الفترات يشبه نغمات البيانو. وحينما ينطلق الصاروخ، ويأخذ في الارتفاع تظل طائفة من هذه النغمات معتدلة الإيقاع بينما يتفاوت نغم الطائفة الأخرى في الطبقة كأنه تجديد عصري غريب.

ويمضي العازف على البيان في عزفه إلا أن الإيقاع سرعان ما يختل نظامه، فكأن الصبي الذي تجرى أصابعه على مفاتيح البيان قد أدركه التعب أو استولى عليه الخوف والجزع.

على أن الصاروخ كلما ازداد علوا أو تباعدا عن غلاف الأرض الجوي أرسل صوب الأرض أصواتا مضطربة كأنها رنين مكروب أوزحير متعب مكدود، هي في الوقع ذبذبات تسجل صراعه مع الأثير. فالرنين الطويل والولولة معناها أن الصاروخ يتعثر في طريقه أويتقلب، أومال عن مساره.

على أن النغمات الموسيقية البدائية ما زال يسمع رنينها على الرغم مما يشوبها من تنافر، إلا أن الصي "الجالس إلى البيان، قد أصبح عزفه يشعر بأنه قد بلغ مرتبة اليأس أوكاد. فالصاروخ كان قد قارب أقصى سرعته وكان في صراع عنيف مع الهواء

يقاوم صدماته ولطاته الشديدة.

وحينما ينفذ الصاروخ من غلاف الجو الأرضي صاعدا إلى الفضاء الأعلى يتلاشى تدريجية رنين التنافر. فهاهوالآن يتحرك في الفضاء هادئا رزينا ككوكب من تلك الكواكب التي تسبح حول الشمس فيما بين مداري المريخ والمشتري، بينما يمضى الطفل الصغير في عزفه على البيان في ثقة ومهارة.

على أن فترة السلام والحدود التي يتمتع بها الصاروخ في الفضاء لا تدوم أمدا طويلا، فسرعان ما يبلغ ذروة مداه، ومن ثم يأخذ في الانحدار صوب حافة الأثير الأرضي متعثرا مراراً وتكراراً. وعندما يلطمه الهواء يعتدل الصاروخ في طير انه الهابط، وأنفه إلى أسفل تشير إلى تلك الرقعة من الصحراء التي سيرتطم فوقها حيث النهاية المحتومة.

وهنا يزداد التعثر والذبذبة من جديد، وتسمع نغمات الألحان غامضة متنافرة مرة أخرى. ثم يزداد الصوت قوة وشدة كلما ازداد الصاروخ من الأرض اقترابا.

وتنمحي تدريجيا أمواج الرادار وعيون المناظير المنخفضة عن الصاروخ أميالا كثيرة تتابعه وتلاحقه، وكأنها تتلمس في غير اكتراث البقعة التي سيلاقي فيها حتفه. ويستمر الطفل الجالس إلى البيان في عزف ألحانه التي تكاد تطغى على صداها صرخات التحذير المنبعثة من الآلات والأجهزة، وهنا تندفع الأرض الصلبة الجامدة إلى أعلى بسرعة معدلها ثلاثة آلاف ميل في الساعة.

وفجأة وبدون سابق إنذار ينقطع صوت الموسيقى، فقد لاقى الصاروخ حتفه فوق الصحراء محتفرا كوة عظيمة، ولم يبق منه سوى كتلة مهشمة من المعدن، ولكن بقيت أفلام فوتوغرافية تحمل في ثناياها معلومات عزيزة غالية، إلا أن الطفل الذي كان يجلس إلى البيانو لن يعزف لحنا آخر بعد اليوم.

من نيويورك إلى باريس

تشارلز. ا. لندبرج

في الساعات المبكرة من صباح اليوم العشرين من مايو سنة ١٩٢٧. ارتفع تشارلز أوغسطس لندبرج على متن طائرته من مرج روزفلت بنيويورك، ليقوم برحلة لعلها أشهر ما قام بها طيار بمفرده منذ الأزل. والذي لا جدال فيه هو أنها كانت أروع رحلة حتى يومنا هذا.

طار لندبرج بمفرده عن طريق نيوفوندلاند، فإيرلندا، فانجلترا، حتى هبط بطائرته المسماة "سر القديس لويس" أرض باريس في اليوم التالي قاطعة المسافة، وتقدر بثلاثة آلاف وستمائة ميل، في ثلاث وثلاثين ساعة ونصف ساعة. فهذه القفزة في الفضاء، بطائرة إذا قيست بمعيار طائرات الوقت الحاضر لاعتبرت من بعض الهنات، إنما كانت قفزة تحدى بها الإنسان المحيط والزمن والجو. أما عدته وعتاده لمواجهة كل هذا فشبابه (إذ أنه من مواليد سنة ١٩٠٢)، وشجاعته، وأكثر من هذا وذاك خبرته بالطيران. ولقد نشر منذ عهد قريب، كتابا حوى تفاصيل رحلته الجوية هذه، ولكننا إذا توخينا الصدق جزمنا بأن ماسبق له نشره في وصف هذه الرحلة عام ١٩٢٧، والذي ننقله فما يلي، هو من ناحية الأمانة والبساطة والصراحة وصف لا يعلى عليه.

***

أعدنا النظر في نيويورك على الطائرة وعدتها وآلاتها، وقد تطلب هذا القيام ببعض طيرورات قصيرة المدى فوق المطار، وبعد أن فرغنا من اختبار الطائرة والتأكد من صلاحيتها للرحلة عبر الأطلسي أبلغنا بأن الضباب منتشر فوق نوفاسكوتيا ونيوفوندلاند، مضافا إلى ذلك هبوب عاصفة فوق إحدى مناطق شمال الأطلسي.

وفي صباح اليوم التاسع عشر من شهر مايو هطلت السماء رذاذا وتلبدت بالغيوم. وكانت النشرات الجوية الصادرة من المحطات البرية ومن السفن الماخرة في الخط البحري الدائري تدل على الحالة الجوية غير صالحة للطيران إلى باريس قبل عدة أيام على الأقل. وفي الصباح قمت بزيارة مصنع "ريت" في " باترسون" بنيوجيرزي معتزما مشاهدة إحدى المسرحيات بنيويورك مساء نفس اليوم ولكن في الساعة السادسة أو قرابة ذلك، وصلتني نشرة خاصة من مكتب نيويورك للأنباء الجوية فحواها أن منطقة ضغط عال تخيم فوق جميع شمال المحيط الأطلسي، وأن الضغط المنخفض الذي كان يخيم فوق نوفاسكوتيا ونيوفوندلاند قد أخذ في الانحسار، فكان من الجلي الواضح أن احتمال انحسار الضباب هو كل ما يمكن أن يشرئب إليه رجائي لمدة من الزمن. ولابد أن يكون شمال الأطلسي قد أصبح الجو فيه صحوا، مع استثناء بعض الأعاصير المحلية على ساحل أوروبا. وكان القمر قد اكتمل بدراً أوكاد. وكانت النسبة المئوية لأيام الضباب فوق نيوفوندلاند وجراند بانكس آخذة في الارتفاع، لذلك لم يكن هناك نفع يرجى من الانتظار أكثر مما انتظرت.

ذهبنا إلى مرج كيرتس على جناح السرعة لعمل الترتيبات اللازمة لوضع الباروجراف المسجل الآلي لتقلبات الضغط الجوي في الطائرة بعد إحكام أختامه، ولإعداد الطائرة نفسها للرحيل.

واستقر رأينا على ملء خزان البترول جزئيا داخل الحظيرة قبل ربطها إلى سيارة النقل لجرها إلى مرج روزفلت، الذي يتاخم مرج كيرتس من جانبه الشرقي، لاستكمال معدات الرحلة. تركت مسئولية العناية بالطائرة وإتمام تكييفها لرجال المطار بينما أويت إلى الفندق لأستريح مدة ساعتين ونصف الساعة. وما إن وصلت إلى الفندق حتى وجدت أنه ما تزال هناك طائفة من التفاصيل التي لابد من استكمالها فقضيت ليلتي دون أن تغمض لي عين فيها.

عدت إلى المطار قبل انبثاق فجر اليوم العشرين من مارس وكان المطر يهطل خفيفاً، وقد استمر على هذا المنوال إلى ما قبل طلوع الفجر بقليل، لذلك لم ننقل

السفينة (الطائرة) إلى مرج روزفلت قبل انقضاء فترة طويلة على الموعد الذي كنا قد حددناه لتنفيذ هذه العملية. وكانت النتيجة أنني لم أطر مع الفجر كما كنت أعتزم، بل في الساعة الثامنة أوقريباً من ذلك.

كان انهطال الأمطار قد انقطع منذ الفجر، وإن لم تكن الغيوم قد انحسرت أو تبددت. على أنه كانت هناك فترات ترسل فيها السماء فجأة بشيء من الرذاذ. وكان ذيل الطائرة قد شد إلى سيارة النقل تحت حراسة حفنة من رجال البوليس (فرقة الموتوسيكلات)، وهكذا بدأت الرحلة البطيئة من مرج كيرتس إلى مرج رزوفلت. وضعت السفينة في أقصى الجهة الغربية من المطار في مواجهة المجري الشرقي الغربي، ومن ثم شرع في تزويدها بالكمية النهائية من الوقود. وفي نحو الساعة السابعة والدقيقة الأربعين أدير المحرك. وفي الساعة السابعة والدقيقة الثانية والخمسين بدأت رحلتي شطر باريس.

كانت أرض المطار لينة رطبة بعض الشيء بسبب ما هطل من الأمطار أثناء الليل، فلم تستجمع الطائرة المثقلة بالوقود سرعتها إلا بمنتهى البطء. وبعد أن اجتازت العلامة القائمة بمنتصف المجرى تبين لي أن في مقدوري التحليق فوق جميع الحواجز والعوائق في نهاية المجرى. ولقد مررت فوق جرار ليس بيني وبينه أكثر من خمس عشرة قدما تقريبا، وفوق سلك تليفوني لا ارتفع عنه إلا بحوالي عشرين قدما مع احتفاظي بقدر لا بأس به من سرعة طيران احتياطية. وفي اعتقادي أن الطائرة كان في مقدورها أن ترتفع بحمولة تزيد خمسمائة رطل على الأقل على حمولتها الفعلية لو أن أرض المطار كانت صلبة غير لينة.

ملت إلى اليمين قليلا لأتجنب بعض الأشجار العالية النابتة فوق إحدى التلال في الطريق ولكن ما إن قطعت بضع مئات من الياردات حتى كنت قد ارتفعت بما فيه الكفاية لتخطى كل ما قد يعتريني من العوائق.

وفي الحال اندفعت في طريق مسترشدا بالبوصلة فبلغت "لنج أيلندساوند" وهنا

تركتني إلى "أوريول" وعادت بمصورها الفوتوغرافي، وكانت قد رافقتني من مطار كيرتس. وسرعان ما انقشع الغمام حتى إني قطعت المسافة من رأس كود مخترقاً الشطر الجنوبي من نوفاسكونتا في جو معتدل للغاية لا يعوق قوة الإبصار. وكنت أطير قريباً جداً من الأرض حتى لم يكن بيني وبين رؤوس الأشجار والماء أحياناً أكثر من عشرة أقدام.

وفي أثناء طيراني فوق رقعة الماء الممتدة بين رأس كود ونوفاسكوتيا وطولها ثلاثمائة ميل مررت داخل نطاق مرمى البصر بكثير من مراكب صيد الأسماك. وشمل الجانب الشمالي من نوفاسكوتيا عدداً من المناطق المعصرات حتى إنني طرت مرات كثيرة وسط سحب "متهزمة ".

وحالما اقتربت من الساحل الشمالي ظهرت الثلوج فوق رقاع من الأرض بينما كان الضباب يغطى الجهة الشرقية من الساحل على بعد.

وكان الجليد يغطي سطح المحيط الأميال عديدة بين نوفاسكوتيا ونيوفوندلاند ولكن عندما اقتربت من الساحل اختفى الجليد تماما وشاهدت عددا من السفن في المنطقة. وكنت قد سلكت طريقة في اتجاه سانت جونز يقع إلى جنوب الدائرة الكبرى من نيويورك إلى باريس حتى لا يكون هنالك مجال للشك في إنني مررت بنيوفوندلاند فيما لو اضطررت إلى الهبوط في شمال الأطلسي.

وقد مررت فوق عديد من الجبال الثلجية العامة بعد ابتعادي عن سانت جونز، ولكنني لم ألمح شيئاً من السفن.

هبط الظلام حوالي الثامنة والربع، وانتشرت فوق البحر طبقة رقيقة من الضباب المنخفض، كانت الجبال الثلجية العامة تظهر من خلالها في وضوح عجيب. على أن الضباب ما فتئ يتكاثف ويزداد ارتفاعا حتى وجدتني، ولم تمض على ذلك ساعتان، أسبح فوق رؤوس السحب العاصفة، وأنا أكاد ألمسها على ارتفاع عشرة آلاف قدم أو قرابة ذلك. وحتى على هذا الارتفاع كان الضباب كثيفا حتى ما أكاد أبصر خلاله

من النجوم إلا ما كان منها فوق رأسي مباشرة. ولم يكن هناك فجر، وكان الظلام شديد الحلكة. وكانت قمم بعض المعصرات ترتفع فوقى إلى مسافة آلاف عديدة من الأقدام وفي ذات مرة

حينما حاولت اختراق إحدى السحب الكبرى، أخذ البرد يتجمع فوق الطائرة فاضطرني ذلك للعودة في الحال إلى حيث صفا الجو ورق، ومن ثم أخذت أدور حول كل سحابة تعذر على التحليق فوقها.

ظهر القمر في الأفق بعد ساعتين من انتشار الظلام، فصار الطيران أقل تعقيداً. وانبثق الفجر حوالي الساعة الواحدة صباحا بتوقيت نيويورك، وارتفعت درجة الحرارة حتى لم يعد هناك خوف يذكر من خطر هطول البرد.

وبعد شروق الشمس بقليل ازداد تشتت السحب، بيد أن بعضها كان مايزال فوقي بمسافة بعيدة، وكثيرا ما كنت أضطر إلى الدخول فيها مسترشدا بالآلات وحدها أثناء الولوج في مناطقها. وعندما ازداد ارتفاع الشمس ظهر بعض الفتحات والحروق في السحب، ورأيت البحر خلال واحدة منها، فهبطت إلى أن صرت على ارتفاع نحو مائة قدم من أمواجه. وكانت الرياح تهب شديدة من ناحية الشمال الغربي، وكان سطح البحر شديد البياض من كثرة الزبد.

وبعد طيران بضعة أميال في جو صحو نسبياً، انخفضت السحب حتى صارت فوق الماء مباشرة، فكنت أسبح في ظلام دامس وسط الضباب الكثيف لا أستبين شيئاً ماحولي، وقد استمرت هذه الحالة نحو ساعتين وأنا أطير على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم على وجه التقريب. بيد أن الضباب ارتفع بعد ذلك وبدا لعيني ماء الغمر من جديد.

وكثيراً ما كنت أجدني مرغماً على الاستعانة بالآلات في سباق الطيران لفترات قصيرة، ثم لا يلبث الضباب أن يتكسر ويتفرق مبددا على صورة رقع متناثرة تتخذ أشكالاً شتى، فكانت تتراءى لى معالم ساحلية عديدة معكوسة في الأفق وبها الأشجار

النامية في أوضح صورة وأتم شكل. والحق أن السراب كان مطابقا للواقع إلى حد بعيد، ولولا علمي بأنني كنت في وسط المحيط لجزمت بأني أنظر إلى جزر حقيقية واقعية. وما إن انحسر الضباب حتى هبط مقتربا من سطح البحر، فكنت أغير في بعض الأحيان ليس بيني وبين رؤوس الأمواج سوى عشر أقدام، ونادرا ما كنت أرتفع عنها بأكثر من مائة قدم أون حوها.

توجد في الجو، قريباً من سطح الأرض أوالبحر وسادة هوائية تسبح في نطاقها الطائرة بمجهود أقل مما تبذله لو أنها تسبح في طبقات أكثر ارتفاعا، وكثيراً ما كنت أتحين الفرص للانتفاع بهذا العامل ساعات متواصلة أثناء الرحلة، ثم إن تحديد اتجاه الرياح يكون أقل مشقة بالقرب من الماء.

كان هبوب الريح طيلة الرحلة من الشدة بحيث كانت الأمواج يعلوها الزبد. وهذا الزبد حينما يتطاير من قوة تلاطم الأمواج بعضها بعض يوضح اتجاه الريح ومبلغ سرعتها على وجه التقريب. وقد بقي هذا الزبد فوق رؤوس الأمواج مدة كافية تسمح لي بتكوين فكرة عامة عن الاتجاه الذي كنت أسير فيه.

رأيت أثناء النهار طائفة من الدرافيل "سمك يونس"، وبعض الطيور، ولكنني لم ألمح شيئاً من السفن، وإن كنت قد علمت فيما بعد أن سفينتين مختلفتين أبلغتا نبأ مروري فوقهما.

كانت أول علامة لاقترابي من الشاطئ الأوروبي، رؤية قارب صيد لمحته أول الأمر على بعد بضعة أميال أمام مع انحراف يسير إلى جنوب خط سيري. ولمحت كذلك وجود مجموعات من قوارب الصيد يبعد بعضها عن بعض بضعة أميال.

مررت فوق القارب الأول من هذه المجموعات دون أن أشاهد فيه أثراً لإنسان، ولكن بينما كنت أحلق دائرياً فوق الثاني لمحت وجه رجل يطل من نافذة غرفته (كابينته).

وحدث أن قمت بمحادثات قصيرة مع بعض المارة بالبر، هابطاً إلى مسافة قريبة منهم، بعد قفل ماسورة الهواء مستفسراً عن الطريق، فكانوا يجيبون بالإشارة. وكنت

قد اعتزمت حينما شاهدت وجه ذلك الصياد أن أحاول حمله على أن يشير لي بيده إلى ناحية الشاطئ، ولكنني سرعان ما عدلت عن المحاولة لعدم جدواها، فهو على أكثر الاحتمالات لا يفهم اللغة الإنجليزية. ولو فرض إلمامه بها لحالت شدة ذهوله بلا ريب عن الإجابة، على أني بالرغم من هذا كله قفلت مفتاح الهواء واقتربت من القارب في مطاري حتى لم تكن المسافة بيني وبينه لتزيد على بضع أقدام ثم صحت به: أين الطريق إلى إيرلندا؟ وغني عن القول إن المحاولة كانت فاشلة، فواصلت الطيران.

وفي أقل من ساعة ظهر لي في الاتجاه الشمالي الشرقي ساحل وعر شبه جبلي، وكنت مرتفعاً عن سطح الماء بأقل من مائتي قدم عندما لمحته، وكانت معالم هذا الساحل واضحة جلية لا يبعد أكثر من عشرة أميال أوخمسة عشر ميلا على أكثر تقدير، غير أن غلالة رقيقة من الضباب، بالإضافة إلى وجود عديد من المناطق العاصفة حالت دون تبين معالمه من مسافة أطول بعداً.

كان الساحل يمتد منحدرة من الشمال ويتقوس في اتجاهه نحوالشرق. وخامرني الشك في أنه قد يكون الجانب الجنوبي الغربي من إيرلندا، ولكي أتأكد من هذا غيرت خط سيري متجها صوب أقرب نقطة بالبر.

عثرت على رأس بلنسية وخليج دنجل، ثم استأنفت طريقي وفقاً لتوجيه البوصلة صوب باريس.

وبعد مغادرة إيرلندا مررت فوق عدد من البواخر وقلما خلا البحر من السفن منذ تلك اللحظة.

وبعد انقضاء ساعتين أو أكثر بقليل. ظهر ساحل إنجلترا، وكان خط سيري يمر فوق جنوب إنجلترا مع انحراف بسيط إلى جنوب بلموث. ومن ثم عبر الخليج الإنجليزي حتى شربورج من موانئ فرنسا.

كان منظر المزارع الإنجليزية من الجويثير الإعجاب على نقيض المزارع في أمريكا. فهي تبدو صغيرة الرقعة جدً. نظيفة منظمة بأسوارها وحواجزها الحجرية والشجرية.

كنت أطير على ارتفاع نحو ألف وخمسمائة قدم فوق انجلترا، وحالما اجتزت الخليج وحلقت فوق شربورج بفرنسا بدا لي أنه من المحتمل أن أكون قد رأيت من هذا الجانب الأوروبي أكثر مما شاهده أبناء أوروبا، وكان الجو يجعل القدرة على الإبصار سهلة ميسورة، فكنت أرى الريف من حولي إلى مسافة أميال عديدة.

وما أكثر ما صرح من كان لهم حظ التحليق في الجو لأول مرة، من أن الناس لا تعرف المناطق والأحياء التي يقيمون فيها حق المعرفة حتى يروها من شاهق، فالبلاد إذا شوهدت من الجو تبدو لها صورا وخصائص تختلف عما يشاهد منها على الأرض.

مالت الشمس إلى المغيب بعد اجتيازي شربورج بقليل، وظهرت للعيان الأنوار القائمة على طول الطريق الجوي بين باريس ولندن.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء عندما لمحت أنوار باريس لأول مرة، أو الخامسة مساء حسب توقيت نيويورك، وما هي إلا بضع دقائق حتى كنت أحلق فوق برج إيفل وحوله على ارتفاع أربعة آلاف قدم.

وكانت أنوار "لى بورجيه" ظاهرة بكل وضوح إلا أنها كانت تتراءى لي وكأنها قريبة جداً من باريس. ولما كنت قد فهمت قبل الرحلة أن المطار يبعد عن العاصمة بعض البعد، واصلت الطيران في اتجاه شمالي شرقي، متوغلا في الريف مسافة أربعة أميال أو خمسة، لأتأكد من عدم وجود مطار آخر قد يكون أبعد من "لي بورجيه" ولكني عدت ثانية إلى حيث المطار، وشرعت أهبط حلزونياً، مقترباً من الأنوار، وسرعان ما شاهدت صفوفاً طويلة من الحظائر، وكانت الشوارع تمور بالسيارات.

طرت فوق المطار مرة على ارتفاع يسير من الأرض، ثم استدرت حوله في الهواء وأخيراً هبطت بطائرتي على الأرض. وما إن كفت الطائرة عن الانسياب حتى استدرت وأخذت أرجع بها القهقري إلى حيث الأنوار. كان المطار المترامي أمامي غاصاً من أوله إلى آخره بآلاف من الناس وهم يهرعون نحو طائرتي. وحالما وصلت الطائفة الأولى منهم حاولت أن أحملهم على صد الباقين عن الطائرة، ولكن يبدو أن

أحدا لم يفهم قولي، فلم يستجب أحد لرجائي.

أوقفت المحرك والتيار خشية أن تقتل "المروحة" أحداً منهم. وحاولت أن أنظم حرساً عابراً للطائرة، ولكن عبثاً حاولت، وما إن سمعت للطائرة صريراً من شدة ضغط الجماهير عليها، حتى قررت النزول من البرج أملاً في اجتذاب الناس بعيداً عنها.

كان الكلام محالاً. ولا أمل في أن يسمع منه شيء وسط هذه الضوضاء والجلبة، وما كان أحد ليهتم بما يقال على ما بدا لي، فشرعت أهبط من البرج، ولكن ما كادت تظهر إحدى قدمي من الباب حتى جذب بقية جسمي من الطائرة دون أي مجهود من جانبي، ولم أتمكن من وضع قدمي على الأرض قبل انقضاء نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك، حملت خلالها بحماس شديد وطوف في داخل نطاق رقعة كان يبدو لي أنها ضيقة المساحة، بينما كنت أقلب محمولاً على جميع الأوضاع التي يمكن تصورها. كانت نواياهم طيبة صادقة ولكن أحداً لم يكن يعلم ما هي تلك النوايا على وجه التحديد.

أخذ رجال سلاح الطيران الفرنسي على عاتقهم، إنقاذ الموقف بدهاء ولباقة، فاختلط نفر منهم بالجماهير، وعند إشارة متفق عليها فيما بينهم وضعوا قلنسوتي فوق رأس أمريكي من مراسلي الصحف، وصاحوا "هاهولند برج". كانت هذه القلنسوة فوق رأس رجل أمريكي دليلاً كافياً على شخصيتي. ومن ثم أصبح المراسل على الفور محور اهتمام الجماهير، فحمله الناس سالكين به طريقاً ملتوية بينما كنت أنا قد تمكنت من ولوج إحدى حظائر الطائرات.

وفي هذه الأثناء أقبلت فصيلة ثانية من الجنود ورجال البوليس، وضربوا نطاقا حول طائرتي، ثم وضعوها داخل حظيرة أخرى. أمامقدرة الفرنسيين ومهارتهم في معالجة المواقف غير المألوفة، والسيطرة عليها فقد برهنوا عليهما أروع برهان في تلك الليلة بمطار "لي بورجيه".

قهر القطب الشمالي

روبرت. ا.بيري

حقق بيرى (١٨٥٦ – ١٩٢٠ م) – وهوالذي كان يوصف أحياناً بالرجل الذي أبى أن يفشل– مطمح أمله في الحياة بوصوله إلى القطب الشمالي في السادس من أبريل لعام ١٩٠٩، وهويومئذ في الثالثة والخمسين من عمره. أما إنه كان يومئذ، ما يزال يتمتع بقسط وافر من النشاط، فحقيقة يؤيدها بقاؤه على قيد الحياة بعد كل ما عاناه أثناء تلك المراحل المتلاحقة المتواصلة التي قطعها في جوف تلك المجاهل الجليدية من مشقة ونصب، حتى وصل في النهاية إلى القطب الشمالي، ومعه مات هنسون، وأربعة من رجال الأسكيمو. كان بيري قد سبق له زيارة مناطق المتجمد الشمالي منذ زمن بعيد في عام ١٨٨٦. وهومنذ ذلك العهد أوبعدذلك بقليل كان قد وطد العزم على أن يكون أول قاهر للقطب. ولقد عانى في سبيل ذلك ضروبا وألوانا من الحرمان والفشل ألمعنا إليها في سياق الصفحات التالية، ولكنه ما برح بعد ذلك أن غيره ما يغمر الرجل المكافح المنابر من شعور بالرضى والارتياح لما فاز به في النهاية من نجاح وتوفيق نتيجة جلده وقوة عزمه. وها نحن أولاء نراه هنا في هذه العجالة يصل إلى القطب مع رفقته القلائل ونشاركه مشاعره، وما كان يختلج في نفسه وهويمضي قدما في جوف تلك البراري الجهراء البيضاء.

***

لا يكاد يمر بنا يوم إلا ازداد فيه رجال الاسكيموولعا بالرحلة واهتماما، على الرغم ما هم وبنا من التعب والإعياء، لكثرة ما قطعنا من مسافات طوال. فما هوإلا أن ننزل منزلا نضرب فيه خيامنا حتى يسرعوا إلى أقرب ربوة ثلجية يتسلقونها ويمدون البصر صوب الشمال إلى أن يكل، لعلهم يلمحون القطب أثرا. لأنهم كانوا الآن على

يقين من أننا واصلون إليه في هذه المرة لا محالة. لم نتم في هذه الليلة التالية سوى بضع ساعات، استأنفنا السير بعدها قبل منتصف ليلة الثالث والرابع من أبريل. وكان مسيرنا ألين وأسهل حتى من سير اليوم السابق له، إذ كانت طبقة الجليد مستوية استواءها في الإطار الثلجي الممتد بين هكلا[١] ورأس كولومبيا وأكثر صلابة، باستثناء بعض نتوءات حادة هنا وهناك من أثر الضغط. ولقد غير في المرور من ناحية صلاحية الطقس، إذ لوأنه استمر على حالته هذه لاستطعت قطع خمسة أشواط قبل ظهر اليوم السادس من أبريل.

استأنفنا المسير من جديد مدة عشر ساعات دفعة واحدة، والكلاب تطوى الأرض خببا في معظم الأحيان، وأحياناً إرخاء سريعا، حتى إننا استطعنا في تلك الساعات العشر أن نقطع خمسة وعشرين ميلا. ومنيت في ذلك اليوم بإصابة طفيفة فقد انزلقت قدمي بينما كنت أجرى بجانب قطيع من الكلاب فرت إحدى الزحافات الثلجية فوق جانب قدمي اليمني ولكن الألم لم يكن من الخطر بحيث يمنعني من متابعة السهر.

وعندما قارب النهار نهايته، عبرنا مجرى مائيا تكسوه طبقة رقيقة من ثلج "فتي" (لم يتكثف بعد) فتقدمت القافلة في العبور، لأرشد الكلاب، منزلقا في السير على طريقة الدببة، مباعدا ما بين ساقي لكي أوزع ثقلي، بينما ترك الرجال الكلاب تعبر وحدها بالزحافات، ثم عبروا في أثرها منزلقين قدر المستطاع، والواقع أن آخر رجلين من قافلتنا الصغيرة عبرا المجرى زحفا على الأربع جميعاً (الأيدي والأرجل).

وكنت أراقبهم من الجانب الآخر وقلبي في فمي. أراقب الجليد وهوينوء تحت ثقل الزحافات والرجال. وبينما كانت إحدى الزحافات تقترب من الجانب الشمالي، أحدثت شقا واضحا في الجليد توقعت معه أن أرى القافلة كلها. الزحافات والكلاب جميعاً تهبط إلى القرار، ولكنها نجحت بحمد الله وفضله.

---

[١]جبل في جنوب جزيرة أيسلندا.

وذكرتي وثبتنا هذه الخاطفة بحوادث يوم سابق، من ثلاث سنوات تقريبا حينما جازفنا مجازفة اليائس، إنقاذا لحياتنا بعبور المجرى الكبير، كرة أخرى، فوق طبقة رقيقة من الجليد شبيهة بتلك التي عبرنا فوقها اليوم، وكيف كانت تتني وتتداعى تحت أقدامنا، وكيف كانت مقدمة حذائي الثلجي تغرز فيها وتشقها مرات عديدة وأنا أنزلق فوقها. ولا جدالَ في أن الإنسان الذي ينتظر تكثف الجليد الأمن على نفسه أخطار العبور إنما يكون حظه من المضي قدما في المجاهل هزيلا ضعيفاً، وكثيرا ما يضطر الإنسان إلى أن يختار إحدى خلتين: إما المضي في العبور مع احتمال الغرق، وإما أن يتريث فيموت جوعان، ويكون في هذه الحال قد تحدى القدر مفضلا أقرب المصيرين وأخفهما ألماً.

شعرنا جميعاً بالتعب في تلك الليلة ولكننا كنا راضين عن تقدمنا في رحلتنا، فقد أوشكنا أن نجتاز خط العرض التاسع والثمانين، حتى إنني كتبت في يومياتي: "هبني اللهم ثلاثة أيام أخر لها مثل هذا الطقس" فقد كانت درجة الحرارة عند بدء السير أربعين درجة تحت الصفر. وفي هذه الليلة عزلت أكثر الكلاب ضعفاً عن المجموعة، وجعلتها فريقاً مستقلاً، وشرعت أطعم الكلاب الأخرى من لحومها، إذ كانت الضرورة قد اقتضت مثل هذا المسلك.

توقفنا عن متابعة الرحلة لفترة وجيزة انصرفنا فيها إلى النوم، على أننا استأنفنا المسير في ساعة مبكرة من مساء اليوم عينه، بينما سجل ميزان الحرارة الجوية خمسة وثلاثين درجة تحت الصفر. وكان معدل سرعة السير كالمعدل السابق، إلا أن الزحافات تكون دائما أسهل انزلاقا كلما ارتفعت درجة الحرارة، وانطلقت الكلاب تعدوعلى وتيرة منتظمة. وعندما قاربنا نهاية الشوط اعترض طريقنا مجرى مائي يمتد شمالا وجنوبا، ولكن الطبقة الجليدية كانت من الكثافة بحيث تستطيع القافلة السير فوقها بطمأنينة، فانطلقت الكلاب تعدوبنا فوقها مدة ساعتين وهي تطوى الأميال بصورة أثلجت فؤادي. وكان النسيم الخفيف الذي هب من الجنوب خلال الساعات القليلة الأولى من مسيرنا قد انحرف إلى ناحية الشرق، وأخذ يشتد بمرور الوقت. لم

أكن أنتظر أن نتقدم في مسيرنا بمثل هذه السرعة، ولم أكن لأجرؤ على الطموح إلى ذلك. فلولا أن لنا غرضا معينا نستهدفه وتأبى أن يثنينا عن بلوغه عائق، لما وجدنا من القوة والجلد ما يشحذ عزائمنا للمضي في سبيل تحقيقه، ولتعذر علينا مواجهة مثل هذا الزمهرير القارس، فلقد ألهبت الريح الباردة بشرة وجوهنا حتى تشققت، وكنا نعاني منها آلاما مريرة طردت عن عيوننا الكرى أياما طوالا كلما لجأنا إلى خيامنا طلبا للنوم، وما أكثر ما اشتكى رجال الأسكيمو من قسوة البرد حتى إنهم كانوا يغطون وجوههم بملابسهم المصنوعة من الفراء في كل مخيم، وخصورهم وركبهم. وكانوا يشكون كذلك من شدة الألم في الأنف، ولم أكن قد سمعت منهم مثل هذه الشكوى من قبل، والحق أن الجوكان مريرا شديد البرودة كالصلب المتجمد.

وفي مخيمنا التالي أمرت بقتل كلب آخر لإطعام الكلاب. كنا الآن قد انقضى على يوم مغادرتنا السفينة روزفلت. ستة أسابيع كاملة، وشعرت كما لوأننا قد أصبحنا على مقربة من هدفنا. فاعتزمت أن تقطع في اليوم التالي شوطاً طويلاً إذا سمحت حالة الطقس والجليد، فلا نقف إلا متى بلغنا منتصف الشوط لنتناول شراباً ساخناً ووجبة عاجلة، نستأنف بعدها السير دون أن تخلد إلى النوم محاولة منا في تعويض الأميال الجنسية التي حيل بيننا وبين قطعها في الثالث من أبريل.

وفي أثناء السير كنت أجدني منصرفاً، عقلاً وجسماً، إلى التفكير في عدد الأميال التي يجب أن نقطعها والمسافات التي يجب أن نطويها، حتى إنني ما كنت أسمح لنفسي بلحظة أخلد فيها إلى الاستمتاع بما يحيط بي من جمال هذه البراري والمجاهل المتجمدة المجدبة التي كنا نضرب فيها. على أنى بعد الفراغ من مسير اليوم وبينما كان الرجال يشيدون الأكواخ الثلجية للمبيت، كنت أنصرف عادة إلى الاستمتاع بمشاهدة ما حولي لبضع دقائق، مدركاً ومقدراً روعة المنظر الفاتن الخلاب وموقفنا منه. فقد كنا وحدنا الكائنات الحية في هذه العراء البلقع الأغطش، والقرقر الجليدية الجرداء القاحلة المقفرة لا شيء حولنا سوى الجليد، ذلك الخصم اللدود الجبار، وسوى الماء المتجمد، وهويفوق الأول عداوة وجبروتا. كان هذان العدوان الجليد والماء المتجمد،

هما كل ما يحول بيننافي مكاننا هذا النائي عن العمران وبين أقصى أطراف أمنا الأرض.

وبديهي إنني كنت أدرك تماما أن هناك احتمالا قويا لملاقاة حتفنا هنا، وأن كشفنا لهذه البراري المجهولة، ولهذا الفضاء الصامت من مناطق القطب المقفرة، قد تظل إلى الأبد مجهولة من العالم الذي خلفناه وراءنا. ولكن كان من العسير إدراك هذا الاحتمال والتسليم به، فالأمل الذي يقال إنه دائما أبداً يضطرب بين جوانح البشر كان مازال يداعبني ويبعث في نفسي اعتقاداً قوياً بأننا سوف يكون في مقدورنا العودة من حيث جئنا سالكين نفس الطريق البيضاء الذي قدمنا منه.

وما أكثر ما كنت أتسلق ذروة هضبة من الهضبات الثلجية القائمة إلى شمال مخيمنا، وأسرح ببصري في الفضاء الأبيض الممتد أمامي محاولاً تخيل نفسي وقد وصلت القطب فعلا. لقد قطعنا كل هذه المسافة، وكان الجليد الحول القلب رحيما بنا بعض الشيء، فليقم في طريقنا سوى القليل من العقبات، فسمحت لنفسي بالاسترسال في آفاق التخيلات التي حرمت منها حتى الآن قوة إرادتي. تلك التخيلات التي كانت تفترض في جموحها وصولنا إلى الهدف الذي نسعى إليه.

لقد حالفنا الحظ حتى اليوم فيما يتعلق بالمجاري المائية، إلا أني ما كنت أزال في خوف مستمر متزايد من احتمال مصادقة مجرى يستعصي علينا عبوره بعد أن شارفنا نهاية الطريق. أجل لقد كانت مخاوفي في ازدياد مستمر كلما هممنا بالمسير من هذه المجاري المائية التي ربما اعترضت طريقنا في مرحلة من المراحل القليلة الباقية. فما هوإلا أن نرى حافة برزت في الطريق من شدة الضغط الثلجي حتى نسرع في مسيرنا ونحن نلهث خشية أن يكون خلفها مجرى مائي. ولكن ما إن نصل إلى قمتها حتى نتنفس الصعداء وتتبدد مخاوفنا لعدم مصادفة ما كنا نخشاه، ومن ثم نأخذ طريقنا من جديد حتى تبدولنا الحافة التالية.

وفي الخيمة التالية التي ضربناها في الخامس من أبريل، سمحت للرجال بفترة أطول

للنوم أكثر من المرات السابقة، إذ كنا جميعاً في حاجة ماسة إلى قسط وافر من الراحة نظرا لما نالنا من الإعياء والجهد، وعمدت إلى تحديد الموضع الذي بلغناه، فوجدت أننا في خط عرض ٨٩ درجة و٢٥ ثانية، أوبعبارة أخرى على بعد خمسة وثلاثين ميلا من القطب الشمالي، بيد إنني صممت على السير حثيثا حتى نستطيع إقامة مخيمنا التالي قبيل الظهر، لأتمكن من القيام برصد جديد إذا ما ظلت الشمس ظاهرة في الأفق.

استأنفنا السير قبيل منتصف الليل في الخامس من الشهر، والجومتلبد بالغيوم والضوء ما يزال أول عهدنا به، عندما بدأنا السير بعد أن تركنا "مارفن" ليعود أدراجه، فهوقاتم داكن لا يلقى ضوءً ولا ظلاً، والسماء باهتة قد أخذت تتكاثف رويداً حتى صار لونها أقرب إلى السواد في الأفق، بينما كانت الثلوج بيضاء رهيبة كثلوج (الأرض الخضراء) جرينلند. فترتب على ذلك طائفة من الألوان، كالتي يصبوإليها الفنان ذوالخيال الخصب الذي مارغب في رسم لوحة لسباسب القطب الشمالي الثلجية. فكم كان يختلف منظرها عن منظر تلك الحقول الباسمة الزاهية التي اخترقناها خلال الأيام الأربعة الأخيرة كأنما مدت فوقها غلالة شفافة زرقاء، بينما راحت تتناوب إضاءتها أشعة ونور القمر. كان إدلاجنا الآن أسرع من ذي قبل. وزالت الثلوج عن سطح الطبقة الجليدية الصلبة أو كادت. وبدت البحيرات اللازوردية اللون أكثر اتساعا من ذي قبل. وارتفعت درجة الحرارة إلى خمسة عشر درجة (تحت الصفر) فقل بذلك احتكاك الزحافات بالأرض، فبدت الكلاب كما لوأن عدوى النشاط الذي دب في كياننا قد انتقل إليها فراحت تهز رؤوسها يمنة ويسرة وتنبح وتعوي في سيرها.

وبالرغم من دكنة اليوم وحلكته، وبالرغم من وحشة العالم الذي يكتنفنا ويحيط بنا فإن الشعور بالخوف من مصادفة المجاري المائية قد فارقني تماما كما لوكان قد أزيل عني بمعجزة أوحدث خارق. وأصبحت أشعر الآن بأن النجاح أمر محقق على الرغم ما بنا من وصب وإعياء نتيجة ما قاسيناه من مشقة شاقة وجهد جهيد في السير طيلة

الأيام الخمسة الأخيرة. فضيت قدما لا ألوى على شيء، وراح رجال الأسكيمو يتبعوني على الأثركأنما يتحركون تلقائياً، على أنني كنت أعلم علم اليقين أن التعب والإعياء لابد وأن يكونا قد نالا منهم إلى حد كبير، إلا أن انشغال بالي واهتياج مخي قد حالا دون شعوري بمثل ما يشعرون به. وحينها فرغنا من قطع مسافة خمسة عشر ميلا كاملة (حسب تقديري) نزلنا لنستريح ونلنا قليلا من الشاي، وتغدينا وأرحنا الكلاب. ثم استأنفنا المسير بعد ذلك لمسافة خمسة عشر ميلا أخرى. وبهذا نكون قد قطعنا خلال مسير اثنتي عشرة ساعة ثلاثين ميلا كاملة، وقد يعجب كثير من سواد الناس من يجهلون شئون السير في القفار من أن سيرنا كان أكثر سرعة عقب الاستغناء عن الفرق المساعدة لنا، وأن هذه السرعة كانت تزيد ازدياداً مطرداً كلياً استغنينا عن فرقة من تلك الفرق، وخاصة بعد رد الفرقة الأخيرة منها. والسر في هذا لايخفى على أحد من له خبرة ودراية بقيادة الجنود في مثل هذه الأحوال، إذ كلما ازداد عدد الفرقة ازداد عددالزحافات، وازداد تبعا لهذا احتمال تعرضها للكسر أوالعطب لسبب أوآخر. فأنت لا تستطيع أن تسوق الحشد الكبير من الجند مثل السرعة التي تسوق بها الفرقة الصغيرة. خذ مثلا فيلقا، فإنك لا تستطيع أن تسيره العدد من المرات يفوق متوسط سرعته اليومية فيها سرعة كتيبة منتخبة من بين صفوفه. والكتيبة المنتخبة لا تستطيع أن تسير لعدد من المرات يفوق متوسط سرعتها اليومية فيها متوسط سرعة سرية منتخبة من صفوف تلك الكتيبة عينها. وهذه السرية لا تستطيع أن تسير لعدد من المرات يفوق متوسط سرعتها اليومية فيها سرعة نفر واحد انتخب من بين صفوفها لتفوقه في سرعة الانتقال والسير.

ولما كان عدد الذين اصطحبتهم معي لا يزيد على خمسة من منتخب الرجال الممتازين، ولما كان كل واحد منهم وكل كلب وكل زحافة تحت مراقبتي الشخصية مباشرة وأنا أتزعم القيادة، ولما كان كل منهم يعلم أن ساعة فصل الخطاب قد دنت وأنه لابد أن يبذل كل منا قصارى جهده لتحقيق ما نهدف إليه، فإن من الطبيعي أن يكون مسيرنا أكثر سرعة من مسيرنا السابق.

عندما غادرنا "بارتلت" قمنا بإصلاح الزحافات كأحسن ما يكون، بل قد يكون أقرب إلى الحقيقة والواقع القول بأننا أنشأناها إنشاء جديداً على وجه التقريب، كما أننا استولينا على أصلح الكلاب وأشدها قوة، وكنا جميعاً نفهم كل الفهم بأن علينا أن نصل إلى هدفنا، ومن ثم تأخذ في طريق العودة على جناح السرعة، وقد كانت حالة الطقس موائمة، أما متوسط مسافة كل مرحلة قطعناها من مراحل الرحلة بأكملنا من البحر إلى القطب فكان خمسة عشر ميلا أوتزيد. على أننا كثيرا ما قطعنا عشرينميلاً في المرحلة الواحدة. والواقع أن متوسط مسافة كل مرحلة من المراحل الخمس التي بدأت منذ أن غادرتنا آخر الفرق المساعدة كانت ستة وعشرين ميلاً أوقريباً من ذلك.

وكان الفراغ من المرحلة الأخيرة صوب الشمال في الساعة العاشرة قبل ظهر اليوم السادس من أبريل، وبهذا أكون قد أتممت المراحل الخمس التي وضعت خطتها والتي بدأت من النقطة التي عاد "بارتليت" أدراجه منها، وتبين من حسباني أننا قد أصبحنا في منطقة هدفنا مباشرة، هدف جميع ما بذلنامن جهود، وتحملنا في سبيله من مشاق وحرمان وكفاح مرير، وبعد أن انتهينا من اتخاذ المعدات المعتادة لنصب مخيمنا، أوبالأحرى أكواخنا الثلجية، شرعت أحدد موقع مخيمنا في القطب لأول مرة في نحوالظهر المحلى على وجه التقريب حسب توقيت ولمبيا، فوجدت ٨٩ درجة و٥٧ درجة وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية مرحلتنا الأخيرة الطويلة مصعدين صوب القطب. فهذا هوالقطب، الآن قد أصبح على مرمى البصر في الحقيقة والواقع، ولكني لم أجد ميلاً لذرع الخطوات القليلة الباقية بسبب مابي من الكلل والإعياء. فالجهود التي بذلناها خلال تلك الأيام، وفي الليالي، قطعناها ضاربين في البراري الجليدية لا نذوق فيها للكرى طعماً إلا غراراً، وما قاسيناه فيها من تعب ونصب وما تعرضنا له من أخطار وما انتابنا من قلق مستمر متواصل، بدت كلها كما لوأنها قد جثمت فوق صدري دفعة واحدة، والواقع أني كنت منهار القوى في تلك اللحظة إلى حد لم أدرك معه إني قد حققت هدف حياتي. وما إن فرغنا من إقامة أكواخنا الثلجية

وتعشينا وأطعمنا الكلاب كمية مضاعفة حتى أويت إلى فراشي لأنعم بالرقاد بضع ساعات قلائل كنت في أمس الحاجة إليها، بينها وضع "هنسون" ورجال الإسكيموالأثقال عن الزحافات لإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح؛ حتى تكون معدة لاستئناف المسير عندما نزمع الرحيل، ولكن على الرغم من شعور بالتعب الشديد لم أستطع إغماض عيني الأكثر من بضع ساعات قلائل. وكان أول شيء عملته بعد أن استيقظت كتابة هذه الكلمات في مفكرتي: "وأخيرا وصلنا القطب" ثمة ثلاثة قرون. حلمي وهدفي ومطمح آمالي مدى عشرين عاما. لقد قهرته في النهاية. إنني لا أكاد أصدق نفسي أوأحملها على إدراك هذه الحقيقة الواقعة إذ هي تبدوالآن من أبسط الأمور وأكثرها تفاهة.

كان كل شيء معدة لرصد موقعنا في الساعة السادسة مساء حسب توقيت كولمبيا، فيما لوصفت السماء، ويبدوأنها للأسف كانت في تلك الساعة ما تزال متلبدة بالغيوم، ولكن لما كان هناك من البوادر ما يشير إلى قرب انقشاع تلك الغيوم قبل مضى وقت لا يطول أمده، أعددت أنا واثنان من الأسكيموزحافة خفيفة لم نضع فيها سوى بعض أدوات الرصد، وعليه لحوم مقددة وفراء أو فراءان، وشددنا إليها ضعف العدد المعتاد من الكلاب لجرها، وسرنا بها مسافة قدرتها بعشرة أميال. وفي أثناء المسير أخذت الغيوم تنقشع فاستطعت في نهاية المرحلة أن أحدد موضعنا بصورة مرضية، مرات متعددة من موقع كولومبيا بالنسبة إلى القطب في منتصف الليل، وقد دلت هذه الأرصاد على أن موضعنا يومئذ كان قد تجاوز القطب. كان كل شيء تقريبا في الظروف التي أحاطت بنا يومئذ يبدوغريبا حتى ليصعب على الإنسان إدراكه تمام الإدراك. ومن أغرب ما بدا لي من تلك الظروف هوأني في تلك المرحلة الأخيرة التي لم تستغرق أكثر من بضع ساعات قلائل كنت قد انتقلت من نصف الكرة الغربي إلى نصفها الشرقي وتحققت من موقفي فرق دورة الأرض، ولقد كان من العسير أن ندرك أنا –خلال الأميال الأولى من مسيرنا هذا القصير– كنا نتجه صوب الشمال بينما نحن في الأميال القليلة الأخيرة من الشوط نفسه.. كنا نسير صوب الجنوب، على

الرغم من أن مسيرنا كان في اتجاه واحد لم يتغير طيلة الطريق. ومن العسير أن يتخيل الإنسان برهانا أكثر وضوحا من هذا التدليل على أن معظم الأشياء نسبية ليس إلا. ويجب أن يؤخذ في الاعتبار أيضاً ظاهرة غريبة أخرى وهي أن العودة إلى المخيم كانت تقضى أن نستدير ونتقدم صوب الشمال مرة أخري لبضعة أميال، ثم نسير رأسا صوب الجنوب، مع العلم بأننا كنا نسير طيلة الوقت في اتجاه واحد لا ميل فيه ولا انحراف. وبينما كنا نعود أدراجنا فوق تلك الطريق عينها. تلك الطريق التي لم تقع عليها عين إنسان من قبل، ولن تقع عليها مرة أخرى بعد اليوم. استلفتت نظري وتأملاتي ظاهرة اعتقد أنها فريدة في بابها، وهي أن الشرق والغرب والشمال قد اختفت تماما بالنسبة لنا، ولم يبق سوى اتجاه واحد هوالجنوب. فكل نسمة تهب علينا أويمكن أن تهب علينا مهما يكن موقع مصدرها من الأفق لابد أن تكون ريحا جنوبية، فحيث كنا في ذلك الوقت يؤلف يوم وليلة سنة كاملة ومائة يوم وليلة تكون قرنا كاملا. فلوأننا أقمنا في موضعنا هذا ستة شهور من ليالي الشتاء في القطب لاستطعنا أن نرى كل نجم من نجوم نصف الكرة الأرضية وهي تدور في أرجائها ومنازلها من السماء على مسافة متساوية من الأفق، وقد علاها جميعاً أوكاد "بولاريس"[1] (نجم القطب).

فلوأن في استطاعة إنسان ما أن يصل إلى خط عرض ٩٠ درجة شمالاً دون أن يشعر بالتعب والإعياء الشديد جسما وعقلا لأستمتع بلا شك بأحاسيس وتأملات فريدة لا نظير لها، ولكن بلوغ القطب كان ثمرة مسير ليال وأسابيع فرضناه على أنفسنا قسراً في صرامة وعزم.. مسير أنهك قوانا وأقض مضاجعنا وسبب لنا الشيء الكثير من القلق المريع. ولعل من رحمة الله بالإنسان وحكمته أن الضمير البشري لا يبلغ من تركز الشعور إلا بالقدر الذي تحتمله قواه العقلية، فجاب الطبيعة الصارمون الموكلون بحراسة أقصى بقعة من أطراف الأرض لا يأذنون في أن يلم بهم أحد ما لم يكن قد أصقلته التجارب، وامتحنته الأهوال الجسام. ولربما كان من الأفضل لوأن

---

[1] نجم القطب أو نجم الشمال.

شيئاً من ذلك لم يكن. بيد أني ما كدت أوقن أني قد وصلت الهدف حتى شعرت بأنه ليس في العالم كله شيء أحب إلى مطلبا من النوم. ولكن ما كدت أرقد بضع ساعات قلائل حتى اعترتني حالة من حالات التجلي الذهني والنشوة العقلية جعلت الاستمرار في النوم ضربا من المحال. لقد ظلت هذه الرقعة من أديم الأرض هدف جهودي صغيرها وكبيرها مدى عشرين عاما، كرست فيها لبلوغه كل كياني مادياً وعقلياً وأدبياً، فكم من مرة عرضت فيها حياتي وحياة أولئك الذين زاملوني في محاولات لخطر الموت، حاشدة لتلك المحاولات جميع ما أملك من قوة ومال، وما يملك أصدقائي. كانت رحلتي هذه الأخيرة ثامن رحلة أقوم بها إلى مهامه المتجمد الشمالي وسباسبه. وفي تلك البراريقضيت قرابة

اثني عشر عاما من الأعوام الثلاثة والعشرين التي استغرقتها محاولاتي منذ بلوغي الثلاثين من عمري إلى أن بلغت الثالثة والخمسين. وحتى في الفترات التي تخللت هذا الزمن، والتي كنت أقضيها في مجتمعات متحضرة، لم يكن لهم سوى إعداد العدة للعودة إلى البراري الجليدية. فإصراري على بلوغ القطب الشمالي كان قد أصبح جزءا لا يتجزأ من كياني، حتى إنني ما كنت أنظر إلى نفسي من سنوات عديدة خلت إلا كأداة لبلوغ هذا الغرض، وإن بدا هذا الأمر غريبة شاذة على أنه وإن بداغريباً شاذاً للرجل العادي إلا أنه يسهل فهمه على المخترع أوالفنان أوكل من كرس حياته سنوات وسنوات لتدعيم مبدأ معين والدعوة إلى اعتناقه.

وعلى الرغم مما كان يثلج فؤادي ويشرح صدري لتحقيق أحلامي وبلوغي مطمح أمنياتي، فإن بعض ذكريات معينة كانت ما تزال تمر بخاطري في الفينة بعد الفينة، أثناء الساعات الثلاثين التي قضيتها في القطب بصورة واضحة جلية ذكريات يوم من ثلاث سنوات خلت. وهوعلى وجه التحديد الواحد والعشرين من أبريل سنة ١٩٠٦ . ففي ذلك اليوم اضطرت الحملة التي كنت أقودها، بعد صراع عنيف مرر من قطع الجليد العائمة ومياه المحيط المتدفقة، والأعاصير إلى التخلي عن متابعة الرحلة والعودة من خط عرض ٨٧.٦ نظراً لنفاذ مئونتنا من الطعام. فكانت المقارنة

بين ما غمرنا في ذلك اليوم البعيد من تعاسة وانقباض رهيب، وبين ما غشينا اليوم من غبطة وانشراح مظهرا غير قليل من مظاهر سرورنا خلال الفترة القصيرة التي مكثناها في القطب. في تلك اللحظات المظلية أثناء العودة عام ١٩٠٩ كنت أقول لنفسي معزيا: "ما أنا إلا واحد من أولئك الرجال في قائمة المستكشفين الحاشدة الذين حاولوا بلوغ القطب من أول "هنرى هدسون" إلى "دوق أبروتزى" بما في ذلك "فرانكلين" و"كين" و"ملفيل" قائمة حافلة بأسماء رجال أبطال مغاوير، جاهدوا وكافوا ولكنهم منوا بالفشل. أجل قلت في نفسي إنني لم أنجح إلا على حساب سنوات عديدة من عمري، هي أحسنه وأفضله، أضفت فيها بضع حلقات إلى السلسلة التي امتدت من حيث ينتهي العالم المحتضر إلى مركز القطب، على أن كل ما استطعت تدوينه في النهاية يومئذ، كان كلمة والفشل". ولكني الآن! الآن وأنا أشتت قطع الجليد من حول مخيمنا الثلجي في شتى الجهات، حاولت أن أدرك الحقيقة الواقعة، وهي أني بعد ثلاثة وعشرين عاما من كفاح مرير وخيبة آمال قد وفقت في النهاية إلى رفع علم بلادي فوق الهدف الذي طالما صبت إليه القلوب وأشرأبت الأعناق.

وليس من السهل على الإنسان أن يكتب عن مثل هذه الأشياء، إلا إنني كنت أعلم أننا عائدون إلى حيث تشرق المدينة بالقصة الأخيرة في حلقة قصص المغامرات الكبرى – قصة ترقب العالم سماعها منذ أربعمائة عام، قصة قدر لها أن تروى في النهاية تحت ظل العلم الأمريكي وبين طيات نجومه وأشرطته، ذلك العلم الذي كان لي في وحدتي الموحشة، وفي عزلتي أثناء تلك السنين الطويلة من حياتي، رمزا للوطن، ولكل ما يخفق له القلب بالحب. ولعلني ما كنت أحظى برؤية شيء منها إلى الأبد.

كانت الساعات الثلاثون التي قضيتها بالقطب حافلة مزدحمة بما شغلنا من أعمال، فيكم سرنا وكم كررنا عائدين، وكم رصدنا وحددنا موضعنا، وسجلنا المشاهدات والمقاييس. على أني بالرغم من هذا كله وجدت من الوقت متسعة لكتابة تذكرة بريدية "كانت كارت بوستال" من تذاكر إدارة البريد في الولايات المتحدة، كنت قد عثرت عليها في السفينة خلال فصل الشتاء. وكان من عادتي كتابة مثل

هذه "التذاكر" أثناء أهم مراحل الرحلة صوب الشمال، حتى إذا حدث لي مكروه أوأمر خطير، فقد تصل هذه الرسائل القصيرة في النهاية إلى زوجي، بواسطة من بقي من الجماعة على قيد الحياة. وإليك ما كتبت في هذه التذكرة التي بعثت بها إلى زوجي في مدينة "سدني، والتي استلمتها فيما بعد:

٩٠°خط عرض شمال.

في السابع من أبريل.

عزيزتي جو[1]:

لقد انتصرت في النهاية. مضى على وجودي هنا يوم كامل. سوف أبدأرحلة العودة إلى الوطن وإليك بعد ساعة من الزمن. بلغي الصبية حي.

"بيرت" [2]

في عصر نفس اليوم –أي السابع من أبريل– أوينا إلى أكواخنا الثلجية بعد أن رفعنا أعلامنا، والتقطنا ما شئنا من الصور الفوتوغرافية، محاولين أن تخلد إلى النوم لفترة قصيرة من الزمن قبل الشروع في طريق العودة صوب الجنوب مرة أخرى.

لم أستطع أن أذوق للنوم طعما، ولا نعم بالنوم رفيقاي من رجال الأسكيمو اللذان شاركاني الكوخ، فقد كانا يتململان مثلي ويتقلبان من جنب إلى جنب، وحتى عندما سكنا وكفا عن الحركة، كنت أعلم من تنفسهما غير المنتظم بأنهما غير نائمين. فهما مثلى كانا تحت تأثير نشوة الفرح بالانتصار، مما جعل النوم ضربا من المحال، وإن لم يبد عليهما شيء من الانفعال الخارق حينما أفضيت إليهما في اليوم السابق بأننا قد حققنا الهدف.

وأخيرا نهضت من الفراش وأخبرت الرجلين، والثلاثة الآخرين بالكوخ الثاني –

---

[1] اسم التدليل.

[2] اسم التدليل.

وهم أيضاً لم يذوقوا للكرى طعماً– بأننا سنحاول ضرب مخيمنا التالي بعد مسير ثلاثين ميلا أونحوها صوب الجنوب قبل أن نعاود النوم مرة أخرى وأصدرت أوامري على الفور بشد الكلاب إلى الزحافات والشروع في المسير، فليس من الحكمة أن نضيع الوقت في مثل هذا الطقس الملائم كل الملاءمة للرحلة تمليل فوق مصاطب الرقاد داخل الأكواخ الثلجية دون أن يغمض لنا جفن.

ولم يكن لي من حاجة لحث "هنسون" أورجال "الإسكيمو" على المبادرة؟ بالرحيل. فقد كانوا جميعاً بلا ريب يتحرقون شوقاً إلى العودة للبر بمنتهى السرعة.. بعد أن فرغنا من تحقيق الغاية التي كنا نستهدفها. وهكذا ولينا ظهرنا لمخيمنا بالقطب الشمالي في نحوالساعة الرابعة بعد ظهر اليوم السابع من أبريل.

كنت أشعر في قرارة نفسي شعوراً عميقاً بجسامة ما أنا تارك ورائي، ولكني لم أتسكع في التأمل، وتوديع مطمح حياتي ومحور آمالي. فوصول الإنسان إلى قمة الأرض –تلك القمة التي استعصت عليه حتى اليوم– والوقوف فوقها، أمر قد تحقق وعمل قد فرغت منه، ولم يبق أمامي سوى العمل على العودة صوب الجنوب، وأن أقطع ثلاثة عشر وأربعمائة ميل بحرية عبر الكتل الثلجية، وما قد يصادفني من بحار مائية، وهي المسافة التي تفصل بيننا وبين الساحل الشمالي الأرض جرانت. نظرة واحدة ألقيتها خلفي، نظرة واحدة فقط، ثم وليت وجهي شطر الجنوب، وشطر المستقبل.

على حافة الغابةالأزلية

البرت شفيتزر

قليل من الناس من أحيط في حياته بمثل ما أحيط به "ألبرت شفيتزر" من الاحترام والتقدير، وهو يعتبر حجة لا نظير له، في كل ما يتصل بحياة جوهان سباستيان باخ وفنه. ثم هو إلى جانب هذا كله عالم متفقه في الدين وفيلسوف وطبيب.

وعندما كان شفيتزر في الثلاثين من عمره وذاع صيته كموسيقى، استقر عزمه على أن يصبح طبيبا ليرعى ويعالج أبناء أفريقيا الاستوائية الفرنسية.

وكان مولد شفيتزر "بألزاس" عام **١٨٧٥**. وفي عام **١٩١٣** ارتحل إلى "لمبارينيه" من أعمال "جابون" حيث لم يفتأ منذ ذلك الحين يقدم إلى أهالي تلك المنطقة خدماته الطبية، مستعينا على ذلك بما يصله من الخارج من إعانات مالية من مختلف الهيئات الخيرية والأفراد.

وها هوذا يصف لنا في النبذة الآتية –التي اخترتها له– جانباً من كفاحه في أول عهده بـ "لمبارينيه".

***

لشد ما أعجب لكثرة عدد المصابين بأمراض القلب. وهم من الناحية الأخرى يعجبون من معرفتي سر شكواه بمجرد خصى لهم بمسماع الصدر، حتى إن امرأة عجوزة قالت ذات مرة لمساعدييوسف من عهد غير بعيد: "أعتقد أنه قد أصبح عندنا الآن طبيب حقيقي. فهوقد عرف ما أعانيه من صعوبة في التنفس أثناء الليل. وأن قدمي كثيراً ما تتورمان على الرغم من أني لم أقل له كلمة واحدة عن ذلك، ولا

هونظر إلى قدمي أبداً".

وكثيرا ما أقول في نفسي: إن في وسائل الطب الحديث لمعالجة أمراض القلب ما يدعوإلى الإعجاب والتقدير حقا، فأنا أعالج مرضى القلب بالدجتالس وفقاً للطريقة الفرنسية الحديثة (جرعات يومية: عشر ملليجرام يتعاطاها المريض عدة أسابيع أوشهور)، وإنني مرتاح إلى النتائج كل الارتياح.

ولابد من القول هنا إن معالجة المصابين بالقلب في هذه المناطق أسهل من معالجة المصابين بالقلب في أوروبا، فهنا متى أمروا بالتزام الراحة والخلود إلى السكينة والهدوء لعدة أسابيع صدعوا بالأمر، ولم يحتجوا بأن ذلك يفوت عليهم مرتباتهم وأجورهم، وربما أدى إلى فصلهم من العمل الذي يرتزقون منه، أجل إنهم هنا متى التزموا بيوتهم، قام ذووهم وأقاربهم بأود معاشهم بصورة واقعية، ومدوا لهم يد المعونة إلى أقصى حد مستطاع.

والأمراض العقلية هنا أندر وقوعاً –نسبياً– منها في أوروبا، وإن كنت قد شاهدت منها، فعلا حتى الآن ما لا يقل عن ست حالات. والواقع أن المرضى من هذا النوع كانوا يشغلون بالي كثيراً، ولم أكن قد اهتديت بعد إلى وسيلة مثلى للتخلص منهم.. فلوإنني سمحت لهم بالبقاء في مقر الوحدة (الطبية) لأزعجونا طيلة الليل بصراخهم المتواصل، ولاضطررت إلى مغادرة فراشي مراراً وتكراراً لحقنهم تحت الجلد تهدئة لأعصابهم. وفي استطاعتي أن أعود بالذاكرة إلى عديد من ليال مزعجة سالفة ترتب على ما بذلته فيها من جهد، شعور بالتعب والإعياء لأيام عديدة. على أنه من المستطاع تذليل كل هذه العقبات أثناء فصل الجفاف، إذ في مقدوريحينئذ عزل المصابين بالأمراض العقلية، وحملهم على الإقامة مع أصدقائهم في مخيم يضرب فوق جزيرة رملية على بعد ستمائة باردة من هنا، ولوأن في العبور لزيارتهم مرتين كل يوم مضيعة لجانب كبير من الوقت، واستنفاداً لكثير من النشاط.

وليس من شك في أن حالة هؤلاء المرضى هنا تعسة للغاية. والأهالي لا يعرفون

وسيلة لوقاية أنفسهم منهم، فعزلهم ضرب من المحال لأن في مقدوره الهرب من الأكواخ المصنوعة من الغاب في أي وقت يشاءون، لذلك يشد وثاقهم بحبال من الليف دائما، ولكن هذا يزيد حالتهم سوءا وينتهي بهم الأمر بأن يتخلص منهم ذووهم بطريقة أوأخرى.

ولقد أخبرني أحد المبشرين في "سمكيتا" ذات مرة، أنه بينما كان في منزله في يوم من أيام الآحاد من سنتين خلتا، سمع صراخا مدوية في قرية مجاورة، فنهض وقصد إلى القرية ليستطلع الخبر. ولكنه قابل رجلا أخبره أنه لم يحدث شيء يستوجب قلقه، وأن كل ما في الأمر أن بعض الأطفال أجريت له عملية انتزاع ذباب الرمال من أقدامهم، فليطمئن قلبه ويهدأ باله وليعد إلى منزله مرتاح الضمير. ففعل، بيد أنه ترامي إلى عليه في اليوم التالي أن أحد أهالي القرية أصيب بالجنون فأوثقت يداه وقدماه وطرح في الماء.

اتصلت أول ما اتصلت بحالة من حالات الاضطراب العقلي أثناء الليل، فقد جاءني طارق اصطحبني إلى نخلة شد إليها وثاق امرأة متقدمة في السن، وقد جلس أمامها جميع أفراد أسرتها، حول نار يصطلونها، ومن ورائهم ترامت الغابة الكثيفة.

كانت ليلة من الليالي الأفريقيا البديعة، وكانت السماء المتألقة بالنجوم الزاهية تضيء المشهد. فأمرت الجمع بصل وثاق المرأة في الحال، ففعلوا ولكن في شيء غير قليل من الحذر والتردد. وما إن أطلقت المرأة من وثاقها حتى هجمت على الانتزاع المصباح من يدي والإطاحة به. فقر الأهالي سراعا في جميع الاتجاهات ولم يحرموا على الاقتراب منا، حتى بعد أن تهاوت المرأة إلى الأرض في هدوء وسكون وقد قبضت على يدها، وسرعان ما مدت إلى ذراعها لأحقنها بالمورفين والإسكيولامين، وبعد بضع دقائق تبعتني إلى أحد الأكواخ حيث لم تلبث أن استغرقت في النوم، وتعتبر هذه الحالة من حالات الاضطرابات العقلية التي تعاود المريض من حين لآخر. ولم يمر على ذلك أسبوعان حتى شفيت –لفترة ما على الأقل– وكانت النتيجة أن شاع بين الناس بأن الطبيب ساحر عظيم، في مقدوره شفاء جميع الأمراض العقلية.

على أنني لم ألبث أن علمت –لسوء الحظ– بأنه لا يوجد هنا حالات من الاضطرابات العقلية قلما تنفع فيها عقاقيرنا الأوربية أوهي لا تنفع فيها أصلا، وكانت الحالة الثانية لرجل عجوز حمل إلى هوأيضاً موثق اليدين والقدمين، وقد حزت الحبال في لحمه بصورة عميقة حتى إن يديه ورجليه جميعاً كانت متورمة ومضرجة بالدماء. وشد ما عجبت من أن حقن المورفين والأسكوپولامين وهيدرات الكلوروبروميد البوتاس لم تؤثر فيه إلا قليلا بالرغم من شدتها. وفي اليوم التالي قال لي يوسف: "صدقني يا دكتور، أن الرجل مسموم، وهذا هوالسبب في جنونه، إنك لن تستطيع إنقاذه أبداً. بل هوسوف يضعف ويضعف ويزداد جنونا يوما عن يوم وفي النهاية يموت".

كان يوسف على حق فقد مات الرجل بعد أسبوعين، وعلمت فيما بعد من أحد الآباء الكاثوليكيين بأن الرجل قد سرق بعض النسوة وأن أقاربهن تبعوه وسموه.

وانفق إلى أن عرضت على حالة مماثلة استطعت دراستها منذ البداية – ففي أمسية يوم من أيام الآحاد وصلت في قارب صغير امرأة تتلوى من تقلص العضلات فظننت في أول الأمر بأنه قد تكون اعترتها نوبة هيستيرية بسيطة أوتشنج، ولكن في اليوم التالي ظهرت عليها أعراض الاضطرابات العقلية والجنون، وأخذت تهذى طيلة الليل وتصرخ. وفي هذه الحالة أيضاً لم يكن للعقاقير المخدرة تأثير يذكر وأخذت قواها تضعف سريعة وافترض الأهالي بأنها هي أيضاً قد سمت.

لم أكن في مركز يسمح لي بنفي الافتراض أو تأييده. على إنني استنتجت من كل ما سمعت أن استعمال السموم أمر شائع في هذه الجهات وكذلك في المنطقة الجنوبية التي تبعد عنا بعض البعد القبائل المقيمة بين نهري "الكونجو" "وأجووى" مشهورون باستعمال السموم، على أن هناك في الوقت نفسه عديداً من حالات الوفاة فجأة، تعتبر بلا مبرر، بأنها نتيجة التسمم.

وأيا كان الأمر فإنه لابد أن يكون في هذه الجهات بمجموعة من النباتات، لعصيرها

أثر فعال في تنشيط الجهاز العصبي. وقد أكد لي بعض من يوثق بأقوالهم بأنه توجد بعض أوراق نباتات معينة تمكن شارب عصيرها من التجديف يوما كاملا دون أن يشعر بجوع أوعطش أوتعب، وتظهر عليه في الوقت نفسه علائم المرح المصحوب بالصخب والعربدة. وإني لأرجو أن أتوصل، مع الوقت، إلى معرفة شيء أكثر وضوحا، عن هذه النباتات وفوائدها العلاجية، وإن لم يكن ذلك من السهل الميسور دائما، نظرا لتشدد. الأهالي في الاحتفاظ بسريتها إلى حد بعيد، حتى إن من تقع عليه الشبهة في أن يكون قد أفضى بسرها إلى رجل ما –وخاصة إذا كان هذا الغريب من الجنس الأبيض– فلا مفر له من أن يلقي حتفه مسموماً.

وأما عن استخدام السحرة (أطباء القبائل في القرى) للسموم بغية الاحتفاظ بنفوذهم وسلطانهم، فقد علمت بذلك من يوسف بطريقة فذة.

ففي منتصف فصل الجفاف، أو قرابة ذلك، توجه أهالي قريته إلى كثيب رمل بجوار النهر، في رحلة لصيد الأسماك، مصعدين في النهر مسافة تبعد من هنا نحومسير ثلاث ساعات، ولا تختلف كثيرة تلك الأيام التي يقضونها في الصيد عما جاء في التوراة من وصف أعياد الحصاد التي كان الناس يقيمونها ابتهاجا وشكرا للرب "ياهويه"، وفي رحلات الصيد هذه يعيش أهالي القرية معا –كبارهم وصغارهم– لمدة أسبوعين في أعراش يتخذونها من أغصان الأشجار، ولا يطعمون مدة اقامتهم فيها غير الأسماك الطازجة في كل وجبة مشوية أومحمصة أومسلوقة. ثم هم يحمدون بعد ذلك إلى حمل مالم يستهلكوه منها والعودة به إلى القرية، بعد تجفيفه وتدخينه.

وقد يصل عدد مايعودون به من الأسماك أحياناً إلى عشرة آلاف سمكة، ولما كان يوسف تكاد تخرج عيناه من موضعهما كلما دار الحديث حول السمك، فقد اقترحت عليه أن يرافق أهل قريته في رحلتهم عصر اليوم الأول، وأن يحمل معه طستا ليضع فيه بعض السمك للطبيب "أي لي"، ولكنه لم يتحمس للعرض، وقد وقفت على السر في ذلك ما أجاب به على بضع الأسئلة التي وجهتها إليه.

فبن أجوبته علمت أن مشايخ القرية يكرسون اليوم الأول لرقية المكان ومباركته بسكب الروم، وإلقاء أوراق الطباق[١] في الماء لتهدئة خاطر الأرواح الشريرة؛ حتى تسمح للأسماك بأن تعلق بشباكهم، وحتى لا تصيب أحدا منهم بمكروه أوأذى.

وحدث ذات مرة من سنوات خلت أن صرف النظر عن إقامة هذه الطقوس، فقامت في السنة التالية امرأة عجوز ولفت حول جسمها شبكة من شباك الصيد وتركت نفسها تغرق في الماء، فصحت: "ولكن لماذا تفعلون ذلك وغالبيتكم مسيحيون؟ إنكم بلا ريب لا تعتقدون في مثل هـ ذه الخرافات! فأجاب:

"بكل تأكيد لا، ولكن أحدا لا يجرؤ على أن ينبس بكلمة سوء ضد هذه الطقوس، ولا حتى على أن يبتسم أثناء تقديم قربان الروم والطباق، ولو فعل لكان نصيبه الموت حتما مسموما إن عاجلا أوآجلا، فالسحرة لا يغتفرون أبداً، وهم يعيشون بيننا دون أن يعرف أحد عنهم شيئاً أومن عسى أن يكونوا".

وعلى ذلك لم يرافق يوسف أهل القرية في اليوم الأول من رحلتهم غير أنني سمحت له باللحاق بهم بعد ذلك بأيام.

وإلى جانب خوف الأهالي من السم، تضاف إليه رهبتهم من قوى الشر الخارقة التي بها يستطيع الإنسان أن يفرض سلطانه وإراداته على غيره من الناس، إذ أن الأهالي هنا يعتقدون بوجود وسائل تمكن من حيازة مثل هذه القوى الخارقة أوالطبيعة الفائقة. فكل من يملك عوذة[٢] أوتميمة صحيحة المفعول، استطاع أن يفعل ما يشاء، فإذا ما رغب في الصيد والقنص مثلا حالفه التوفيق. وإذا شاء أن ينزل الضر والأذى والأمراض وحتى الموت بغيره من الناس، كان ذلك كله في مقدوره. ولا أظن أن أحدا من الأوروبيين في استطاعته أن يدرك مدى ما تعانيه المخلوقات التعسة هنا طيلة أيام حياتهم من بؤس بسبب خوفهم من هذه التعويذات التي يعتقدون إمكان استخدام

---

[١] التبغ

[٢] الخرز والتميمة.

سحرها للإضرار بهم. فلا أحد سالم يشهد عيانا هذا البؤس عن كثب يستطيع أن يدرك بأن من أبسط الواجبات الإنسانية أن يعمل الإنسان على تنوير أذهان هؤلاء القوم البدائيين حتى ينظروا إلى العالم نظرة جديدة تساعدهم على التحرر من المعتقدات الخرافية والطيرة التي تقض مضاجعهم وتعذب أرواحهم وتقلقهم قلقا شديدا. وبهذه المناسبة أؤكد أن ما من أحد تسوقه المصادفة إلى هنا، حتى ولو كان أشد الناس ارتياباً في صحة العقائد الدينية إلا وجد نفسه منساقا بدافع من الضمير الإنساني إلى المساهمة في العمل على النهوض بمستوى أهل هذه البيئة.

ولكن ما هي عبادة التعويذات والتمائم ؟ إنها إحساس يتولد في الرجل البدائي من كل ما يخشاه ويرهبه. فالرجل البدائي يرغب أبداً في حيازة تعويذة أوتميمة من نوع أوآخر لتحميه من الأرواح الشريرة في الطبيعة، ومن أرواح الموتى، ومما لأخيه الإنسان من القدرة على إتيان الشر والأذى، فهو لهذا السبب يعزو لبعض أشياء معينة يحملها معه قدرة خارقة تكفل حمايته ووقايته من الضر والأذى. إنه لايعبدها ولكنه يعتبرها من متاعه الخاص وإنها نافعة له كل النفع لما لها من قوة فائقة.

وما هي الأشياء التي تتخذ للتمام والتعاويذ؟ المفروض أن كل شيء لا تعرف خصائصه يكون له قوة سحرية. فالتميمة تتكون من عروض كثيرة صغيرة الحجم لا تملأ أكثر من وعاء أوحقيبة صغيرة الحجم أيضاً. فهي تارة قرن جاموسة وحشية أو علبة. على أن أكثر التمائم تتخذ في الغالب الأعم من الريش الأحمر، أو من حفنة من الطين الأحمر، أو من مخالب الفهد وأسنانه.. أو من الأجراس المصنوعة في أوروبا! أجراس من طراز قديم يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر حينما كان الأوروبيون يتاجرون مع الأهالي عن طريق المقايضة. وكان لأحد السود مزرعة "كاكاو" صغيرة قبالة مركز التبشير علقت على شجرة من أشجارها تميمة موضوعة داخل زجاجة لوقاية المزرعة من الأرواح الشريرة. أما في الوقت الحاضر فالتمائم الغالية يحتفظ بها

داخل علب من القصدير لتكون بمأمن من الأرضة[1] التي لا تحول العلب الخشبية دون وصولها إلى محتوياتها.

ومن التمائم ما يكون كبير الحجم وما يكون صغيرا. فمن الأول ما يؤخذ من إحدى الجماجم البشرية ويشترط أن تكون جمجمة إنسان قتل خصيصا لاتخاذ تمائم من جمجمته. وحدث في الصيف الماضي، غير بعيد من مركز التبشير أن قتل رجل عجوز في قارب. وقد اكتشفت شخصية القاتل، ويعتبر أولو الأمر أن الشواهد قد دلت على أنه ارتكب جريمته للحصول على ما يصلح لأن يكون تميمة، تكفل له قيام بعض المتعاقدين معه من عملائه بتسديد ما عليهم له من عروض وأموال.

وبعد مضي بضعة أسابيع من ذلك التاريخ خرجت ومعي زوجي في يوم أحد للتنزه في غابة بحيرة ديجلى التي لا تبعد أكثر من مسير ساعتين من الزمن أو نحو ذلك. وفي القرية التي استرحنا فيها عند منتصف النهار وجدنا أن أهلها لم يكن لديهم ما يأكلونه لأنه كان قد مضى على النساء عدة أيام وهن يرهبن الخروج إلى حقول الموز، لسبب ما شاع بين سكان القرية من وجود عدد من الرجال يجوسون خلال المنطقة المجاورة بقصد الفتك بإنسان أو آخر بغية الحصول على عوذة. وأكدت لنا نساء "لبارينينه" بأن هؤلاء الرجال المشار إليهم قد شوهدوا كذلك قرب إحدى آبارنا، وقد ترتب على ذلك أن استبد بأهالي المنطقة جميعها شيء كثير من القلق والاضطراب لعدة أسابيع .

إنني أنا نفسي احتفظ معي بتميمة، أهم ما تحتوي عليه شظيتان من جمجمة بشرية، وهما مستطيلتان بيضاويتا الشكل إلى حد ما مصبوغتان بصبغة حمراء اللون، ويبدو لي أنهما منتزعتان من الجدار العظمى. كانت هذه التميمة ملكا لرجل مرض هو وزوجته مرضا امتد إلى عدة شهور. وكانا يعانيان آلاما مريرة من كثرة ما كان يستبد

---

[1] الأرضة ، من فصيلة الحشرات متساوية الأجنحة وهي تأكل الأخشاب وكل شيء نباتي ويصل ارتفاع بيوتها أحيانا إلى مترين، وتعرف بالنمل الأبيض.

بهما من الأرق المتواصل.

بيد أن الرجل كثيرا ما كان يسمع في أحلامه هاتفا يفضي إليه بأن لا سبيل إلى شفائهما إلا إذا توجها إلى المستر هوج عضو البعثة الرسولية في "نعجومو" وسلماه تميمة الأسرة التي آلت إليه بالوراثة واتبعا أوامره. وأهداني المستر "هوج" التيمة. ولقد مكث الرجل وزوجه تحت العلاج عدة أسابيع، انصرفا بعدها وقد تحسنت صحتهما تحسنا كبيراً.

إن الاعتقاد بأن القوى السحرية تكمن داخل الجماجم البشرية التي يتم الحصول عليها لهذا الغرض خاصة، لابد أن يكون اعتقادا بدائيا. فقد أطلعت منذ عهد بعيد على مقال في إحدى المجلات الطبية يؤكد فيه كاتبه أن عمليات التربنة (ثقب القحف) التي كثيرا ما كانت تظهر آثارها على الجماجم التي عثر عليها أثناء الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة، وكذلك على الجماجم التي قام بفحصها العلماء، والتي يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. إن هذه الآثار لم تكن بحال من الأحوال لعمليات جراحية أجريت لمحاولة علاج تورم المخ أواستئصال نمو غريب به كما كان يفترض، ولكنها آثار عمليات للحصول على فلق لتكون تمائم ليس إلا. ولعل كاتب المقال على حق فيما ذهب إليه.

بلغ عدد الذين أحصتيهم طبيا خلال الشهور التسعة الأولى من قيامي بالعمل هنا ألفي مريض أو نحوا من ذلك. وفي استطاعتي أن أؤكد بأن غالبية الأمراض التي يشكو منها الأوربيون ممثلة هنا، حتى السعال الديكي. فقد شاهدت طفلا مصاباً به. على أني لم أشهد أية حالة من حالات السرطان أو التهاب الزائدة الدودية (الأعور). والظاهر أن هذين النوعين من الأمراض لم يصلا بعد إلى السود في أفريقيا الاستوائية. ولكن من الناحية الأخرى يلعب الزكام "الرجفة" والعطس دورا هاما هنا. في بداية فصل الجفاف ينتشر العطس والسعال في كنيسة لمبارينيه انتشاره في انجلترا أثناء قداس منتصف الليل عشية الاحتفال برأس السنة الجديدة في الكنائس. وما أكثر الأطفال الذين يموتون نتيجة زكام ظل أمره مجهولا.

وليالي فصل الجفاف أكثر رطوبة وبرودة منها في الفصول الأخرى، ولما لم يكن للأهالي السود ملاآت فراش أو غطاء، فهم يشعرون ببرودة الجو داخل أكواخهم إلى حد يتعذر عليهم معه أن ينعموا بالنوم ملء جفونهم، ولو أن درجة حرارة الجو، تعتبر بالقياس إلى أوروبا مرتفعة بعض الشيء، وفي الليالي الباردة تهبط الحرارة – على الأقل– إلى درجة ٦٨ فهرنهيت أي إلى مستوى ٢٠ درجة مئوية. غير أن رطوبة الجو التي تجعل الناس يتصببون عرقا بالنهار بصورة متواصلة، تتركهم أشد حساسية بالليل، حتى إنهم ليرعدون وتتجمد أطرافهم ما يشعرون به من فرط البرودة، ولا يستثنى من ذلك البيض أنفسهم الذين تراهم يشكون على الدوام من الرعشة والزكام، وما أصدق ما جاء في فقرة صادفتني أثناء مطالعتي لكتاب عن طب المناطق الحارة، وإن بدا لي في ذلك الوقت، أنه يتعارض مع الرأي المجمع عليه في المناطق المقيظة حيث تشتد حرارة الشمس، يجب على الإنسان أن يكون أكثر احتراساً من خطر الزكام والرعشة، منه في المناطق الأخرى.

ومن الأخطار القتالة التي يتعرض لها الأهالي بنوع خاص، حياتهم في المخيمات التي يضربونها بجوار النهر فوق الرمال أثناء رحلاتهم الصيفية لصيد الأسماك. فغالبية من تقدمت بهم السن من هؤلاء القوم يلقون حتفهم متأثرين بعلة البرسام التي يصابون بها في مثل هذه المناسبات.

وحمى الروماتزم (وجع المفاصل) أكثر انتشاراً هنا منها في أوروبا، وما أكثر من يشكون هنا من علة النقرس، وإن يكن من خطأ القول أن يعزى السبب في انتشار هذه العلة إلى التنعم في المأكل والمشرب على مبدأ أبقراط[1] أو إلى الإفراط في أكل اللحوم إذ أن طعامهم – باستثناء ما يطعمونه من الأسماك خلال رحلاتهم الصيفية –

[1] فيلسوف إغريقي ولد في ساموس عام ٣٤١ قبل الميلاد درس العلم في أثينا ومن مبدئه أن راحة البال وسلامة الجسم من أهم عوامل السعادة للإنسان. مات عام ٢٧٠ قبل الميلاد.

يكاد لا يتعدى الموز ، و"المنيوك"[1] ولو أن قائلا أسر إلي يوما بأنه سوف يكون من مقتضى على هنا معالجة حالات مزمنة من تسمم النيكوتين لما صدقته أبداً.

لم أستطع في مبدأ الأمر تكوين فكرة حاسمة بشأن ذلك الإمساك الحاد المصحوب باضطراب في الجهاز العصبي، والذي كانت تزيده الملينات (الشرب) حدة، ولكن بينما كنت أعالج أحد السود من موظفي الحكومة –وكان يشكو من آلام شديدة– تبين لي بصورة واضحة جلية عن طريق الأسئلة التي وجهتها إليه أن الأفراط في تدخين الطباق هو السبب في آلامه ومنشؤها.

ولكن المريض لم يلبث أن شفي من آلامه في زمن غير طويل، وأصبح موضوع شفائه على كل لسان. ولا عجب فقد ظل الرجل يشكو من آلامه قبل العلاج زمنا طويلا حتى عجز عن مواصلة عمله أوكاد. ومنذ ذلك الحين دأبت على أن أسأل من فوري كل مريض يأتيني شاكياً من حالة إمساك شديد..كم غليونا تدخن في اليوم؟ وما هي إلا بضعة أسابيع حتى استبنت ما يجلبه النيكوتين هنا من شقاء وتعاسة. وكانت حالات التسمم بالنيكوتين أكثر انتشارا بين النساء. وقد أسر إلي يوسف بأن الأهالي هنا يعانون الشيء الكثير من الآلام بسبب ما يعتريهم من الأرق فيخلدون إلى التدخين طيلة ليلهم لتخدير أعصابهم.

والطباق يأتي إلى هذه البلاد من أمريكا في صورة أوراق نباتية كل سبع أوراق في حزمة تسمى رأسا (رأس طباق). والطباق الذي يستورد هنا نبات من النوع الرخيص، ولكن تأثيره في منتهى الشدة (وهو أقوى بكثير في مفعوله من الأصناف التي يدخنها البيض من الناس) وأوراقه تحل هنا محل العملة الصغيرة المتداولة. فمثلا تستطيع بورقة من ورقاته وهي تساوي مليمين أو قرابة ذلك – شراء حبتين من ثمار الأناناس (عين الناس)– وتكاد جميع الأجور للخدمات العارضة تدفع عينا (بأوراق من الطباق)،

---

[1] **Manioc**. نبات كالبطاطس يطلق عليه اسم شجرة النشاء أوالتبيوكد (**Tapicoa**) لأنها تستحضر من جذوره.

كذلك إذا احتجت إلى القيام برحلة أو سفرة تعين عليك أن تأخذ معك، إلا مقداراً من النقود، بل صندوقا يحتوي على أوراق والطباق " لإنفاقها في شراء ما يلزم البحارة ورجال القافلة من طعام، إذ أن النقود ليس لها سعر ولا تداول في الغابة. ووجب عليك أيضاً أن تتخذ من الصندوق مقعدا لك لمنع الأيدي من أن تمتد إلى محتوياته الثمينة الغالية. على أن الغليون لا يفتأ ينتقل من فم إلى فم طيلة الرحلة، وعلى من يرغب في سرعة السير أن يعد الرجال بمنح كل واحد منهم ورقتين من الطباق زيادة على أجره، فيضمن الوصول إلى حيث ينشد في وقت يقل عما كان يقدر بساعة أوساعتين.

والأورام الباطنية الخبيثة، كثيرة الانتشار بين النساء هنا. وقد كنت أرجوألا تضطر في الظروف إلى إجراء جراحات كبرى قبل الفراغ من إعداد القسيم الطبي الخاص (العنبر) بذلك. ولكن هذا الرجاء لم يتحقق. ففي اليوم الخامس عشر من أغسطس اضطررت إلى إجراء جراحة اختناق فتت لحالة أحضرت إلى مساء اليوم السابق. وكانت لرجل يدعى أبيندا، وقد ناشدني أن أجرى له هذه الجراحة لأنه كان يعلم علم اليقين –كغيره من الأهالي– مبلغ خطورة حالته. والواقع أن الحالة لم تكن تحتمل الانتظار. جمعنا الآلات اللازمة للجراحة على وجه السرعة، وسمح إلى المستر كرستول في استعمال غرفة ابنه الخاصة لنومه كغرفة للعمليات الجراحية، وقامت زوجتي بعملية تخدير المريض، بينما قام قل أحد المبشرين بوظيفة المساعد. وتم كل شيء أحسن مما كان ينتظر، ولكن أذهلني ما أبداه الرجل المريض من الثقة الهادئة، والطمأنينة وهو يتمدد على مائدة الجراحة في وضع سليم.

وصرح لي أحد الأطباء العسكريين، وكان قد قدم من بعض المراكز الداخلية بالمنطقة، وهو في طريقه إلى أوروبا لقضاء إجازته بأنه يحسدني على ما حصلت عليه من المساعدة الطبية الفذة في أولى عمليات الجراحية (للفتق). أما هو فقد أجرى أولى عملياته من نوع هذه الجراحة، وليس له من يساعده سوى سجين من الأهالي كان يناوله الآلات الجراحية، وآخر يباشر عملية التخدير بالبنج كيفما اتفق، بينما كنت

تسمع صلصلة القيود في أرجلهما كلما تحركا، وهذا كله لأن مساعده الأصلي كان متغيبا ولم يوجد من يحل مكانه.

وغني عن القول إن الاحتياطات التي اتخذت للتطوير والتعقيم كانت أبعد من أن توصف بالكمال، ولكن المريض برأ من علته على كل حال.

***

وفي أواخر شهر يناير وأوائل شهر فبراير، كنت أنا وزوجتي في "تلاجوجا" نعنى بالمستر "هرمان" من أعضاء البعثة الرسولية، إذ كان قد أصيب بطائفة من الدمامل مصحوبة بحمى شديدة، وقت في الوقت نفسه بمعالجة المرض في هذه المنطقة.

وكان من بينهم صبي صغير استشعر منتهى الخوف والرهبة فرفض الدخول إلى العيادة حتى حمل إلى قسرا. وقد اتضح فيما بعد أن تخوفه كان بسبب ما توهمه من أن الطبيب ينتوي قتله ليأكله! مسكين هذا الصبي التعس! إنه لم يكتسب معلوماته عن أكلة لحوم البشر مما كان يسمعه ويخوف به في عهد حضانته وطفولته، ولكن من واقع الحياة، إذ أن هذه العادة الوحشية لم تمح تماما بعد، وما يزال لها حتى اليوم أثر وجود بين عشائر "البهوين".

ومن العسير الجزم بصورة قاطعة عن مصير هذه العادة الوحشية في المنطقة التي كانت تنتشر فيها، نظرا لأن العقوبة الصارمة لمرتكبي هذه الفعلة الشنعاء يجعل الأهالي يتكتمون أمرها غاية التكتم. على أنه حدث من عهد غير بعيد أن خرج رجل من سكان المنطقة المجاورة "للبارينيه" إلى بعض القرى المترامية حولها، لتحصيل ماله عند بعض الناس من قروض مستحقة، ولكنه لم يعد إلى عشيرته. واختفى أحد عمال الخدمات السائرة بقريه "سمكيتا" بصورة مماثلة. ويقول الذين يعرفون الريف بأن لفظة متغيب، كثيرا ما يكون معناها "أكل".

ويجري العمل الآن في إنشاء الكوخ الخاص للمصابين بمرض النوم على الضفة المقابلة، وهو يكلفني الشيء الكثير من المال والوقت معا. إذ كلما حالت الظروف

بيني وبين الإشراف على الفعلة والعمال الذين استأجرتهم لقاء الأخشاب من الأرض وبناء الكوخ، لايتقدم سير العمل بتاتا. فكنت أهمل شئون المرضى عصر كل يوم، لأقوم بدور "الملاحظة" هؤلاء الأجراء أثناء العمل.

ومرض النوم أوسع انتشارا هنا ما كنت أتصور في مبدأ الأمر. وتعتبر منطقة نهر "نعجونج" —وهو من روافد نهر "أجووى" على بعد تسعين ميلا من هنا– أهم مركز تنتشر منه عدوى هذا المرض الخبيث، على أي هناك بعض مراكز منعزلة لجراثيمه تتناثر حول "لمبارينيه" والبحيرات الواقعة خلف "نوجومو" .

ولكن ما هو مرض النوم هذا؟ وكيف؟ وبأية صورة ينتشر؟ الظاهر أنه وجد في أفريقيا الاستوائية منذ أزمان سحيقة في القدم، غير أنه كان محصورة داخل مناطق معينة، إذ أن الأسفار والاتصالات في الماضي كانت قليلة أو معدومة أصلا. وكانت طريقة القبائل والعشائر في الاتجار مع المراكز القائمة على شاطئ البحر، هي أن تنقل كل قبيلة سلعها إلى حدود أراضيها. وهنا تسلمها إلى تجار المنطقة المتاخمة لحدودها. ومن إحدى نوافذ مسكنيكنت أرى الموضع، حيث يصب "النعجونج" في نهر "أجووى".

وهو الموضع الذي لا تجرؤ عشائر "الجالوس" على التغلغل إلى ما وراءه. فكل من تعداه وتعمق في الداخل يؤكل لا محالة.

وعندما ظهر الأوربيون على المسرح، كانوا يستخدمون الأهالي في تنقلاتهم من مكان إلى مكان كبحارة لتجديف القوارب، أو كحمالين للقافلة إذا كان السفر عن طريق البر. فإذا كان واحد منهم مصابة بمرض النوم حمل جراثيمه إلى مناطق جديدة. فمنذ ثلاثين عاما لم يكن هذا المرض معروفا في المناطق الواقعة على ضفاف نهر "أجووى" ولكنه وصلها بواسطة الحمالين القادمين من "لوانجو".

وما إن ينتشر هذا المرض في منطقة من المناطق حتى يستشري بصورة فتاكة، وقد يذهب ضحيته ثلث بجموع السكان، ففي أوغندا مثلا نقص عدد السكان في

بحر ست سنوات نتيجة هذا الوباء –من ثلاثمائة ألف إلى مائة ألف نسمة– وأخبرني أحد الضباط بأنه زار ذات مرة قرية من القرى القائمة عند أعلى نهر "أجووى"، وكان عدد سكانها يومئذ ألف نسمة، ولكنه حينما مر بها بعد ذلك التاريخ بعامين وجده لا يزيدون على التسعمائة عدا. إذ كان الباقون قد فتك بهم مرض النوم، وبعد زمن يفقد الوباء قدرته على نفث سمومه الفتاكة لأسباب نعجز عن شرحها حتى الآن، ولكنه يستمر في فتكه بصورة منتظمة وإن قل عدد ضحاياه، وقد يحدث أن يستعيد قوته ونشاطه فيعود سيرته الأولى ويفتك بالخلق فتكاً ذريعاً.

وأول عوارضه نوبات حمي غير منتظمة، فهي حينة خفيفة الوطأة وحينة شديدة، وهي تظهر تارة وتختفي تارة لعدة شهور قد لايستشعر المصاب أثنائها بأنه مريض حقاً. وهناك مصابون يدخلون في مرحلة النوم مباشرة منذ ذلك الحين وهم يبدون أصحاء في الظاهر. ولكنهم في العادة يصابون بصداع شديد أثناء نوبة الحمى. فكم من مريض وفد علي وهو يصرخ مستنجداً بي مما ألم برأسه من صداع، لم يعد يستطيع احتماله أكثر مما احتمل، وأنه يفضل الموت.

وأحياناً يسبق مرحلة النوم أرق شديد مؤلم غاية الألم. وهناك مرضى يصابون في هذه المرحلة باختلال قواه العقلية، بعضهم يستولي عليهم الحزن والكتابة، وبعضهم يسترسل في الهذيان. وكان من بين أوائل المرضى الذين صادفتهم شاب جيء به إلي لأنه كان يرغب في الانتحار.

وفي العادة تكون الحمى مصحوبة بالروماتزم، وجاء في ذات يوم رجل أوروبي من مقاطعة بحيرة "نعجومو" يشكومن "عرق النسا" فما إن فحصته بكل عناية حتى تبين لي بأنه مصاب بحمى مرض النوم في بداية مرحلته الأولى، فأرسلته على الفور إلى معهد "باستير" بباريس حيث يعالج المرضى من الفرنسيين، وأحياناً يفقد المصاب ذاكرته، وكثيرا ما تكون هذه الحالة باكورة الأعراض التي يلاحظها عليه المحيطون به من خلطائه، ولابد إن عاجلا أوآجلا حتى ولو بعد انقضاء عامين أوثلاثة أعوام من تاريخ أول إصابة بالحمى– أن يدخل المريض في مرحلة النوم. فيشعر في مبدأ الأمر

بحاجة ملحة إلى النوم ليس إلا، فتراه يستسلم للنوم كلما جلس وكان يشمله الهدوء، أو بعد الفراغ من وجبة طعام.

وقد حدث من عهد غير بعيد، أن زارني أحد العسكريين البيض برتبة (صول) من "مويلا"، وهي على مسير ستة أيام من هنا، لأنه بينما كان ينظف مسدسه، انطلقت منه رصاصة اخترقت يده اليمنى، وكان قد نزل أثناء إقامته هنا ضيفة على مركز البعثة الرسولية الكاثوليكية، وكان يصحبه كلما حضر لتنظيف الجرح، تابع أسود له، فيقوم بانتظاره خارج العيادة حتى أفرغ من تضميد جرحه، ولكن ما إن يغادر الصول العيادة حتى يطرق سمعي صوته وهو يصخب ويصيح مناديا تابعه، باحثا عنه هنا وهناك، وفي النهاية يبرز تابعه من بعض الجهات وفي عينيه أثر النعاس. وشكا إلى سيده من أنه قد فقده قبل ذلك مرات عديدة بسبب استغراقه في النوم حيثما وجد. فعمدت إلى تحليل دم التابع في الحال فوجدته مصاباً بمرض النوم.

وفي المراحل النهائية يكون نوم المريض أطول وأعرق، ثم لا يلبث أن يتحول إلى غيبوبة، وعندئذ يرقد المريض دون أن يحس أو يعي شيئاً؛ حتى إنه ليقضي حاجته الطبيعة دون أن يشعر بذلك، ومن ثم يأخذ جسمه في الهزال بصورة متواصلة، بينما تنتشر في ظهره وجنبيه "قرح الفرش"، وتنجذب ركبتاه تدريجيا نحورقبته وتصبح هيئته منفرة للغاية. بيد أن انتظار الموت للخلاص من هذا الجحيم كثيرا مايطول أمده، بل قد يحدث أن تتحسن صحة المريض فترة طويلة من الزمن. ففي ديسمبر الماضي كنت أعالج حالة في المرحلة الأخيرة من مراحل هذا الداء، وفي نهاية الأسبوع الرابع أخذه أهله على عجل إلى دارهم ليكون موته على الأقل في قريته وبين أهله وعشيرته. وكنت أعتقد بأن منيته قد حانت، وأنه سيقضي نحبه في وقت قريب جداً. ولكن ترامى إلى سمعي بعد ذلك بأيام قلائل بأنه قد استعاد بعض صحته إلى درجة تسمح له بالأكل والكلام والجلوس وأنه لم يمت إلا في أبريل. وكان السبب المباشر للموت التهاب الرئة كالمعتاد.

ومن أحدث مفاخر الطب انتصاره على مرض النوم، والتعرف على طبيعته

الحقيقية، وفي هذا المضمار تقترن به أسماء "فورد" و"كاستلاني" و"بروس" و"كوخ" و"مارتن" و"لوبيف"، وظهر أول وصف لهذا المرض عام ١٨٠٣ م نتيجة ملاحظة تطوراته بين الأفريقيين من أهالي"سيراليون" ثم درس بعد ذلك في تطوراته بين أفريقيين حملوا من موطنهم في أفريقيا إلى جزائر "الأنتلز والمرتنيك"، والواقع أن ملاحظة هذا المرض ودراسته على نطاق واسع في أفريقيا نفسها، لم يبدأ سوى إبان العقد السادس من القرن التاسع عشر.

وقد أدت هذه الملاحظات والدراسات المستفيضة إلى وصف دقيق لآخر مرحلة من مراحل هذا المرض دون أن يخطر على بال أحد أن هذه المرحلة قد سبقتها مراحل أخرى، أو أن هناك أية صلة بين الداء وبين الحمى التي تنتاب المريض فترة طويلة من الزمن، فأمر هذه الصلة لم يعرف. إلى أن دلت البحوث على أن طبيعة العلتين تنحدر من مصدر واحد.

وبعد ذلك في عام ١٩٠١ لم يجد الطبيبان الانجليزيان "فورد" و"دطن" في أثناء فحصهما دماء المصابين بالحمى تحت المجهر في جامبيا جراثيم حمى الملاريا كما كانا ينتظران، بل مخلوقات صغيرة (جراثيم) دائبة الحركة والنشاط فأطلقا عليها نظرا لما بينها وبين "المثقاب" من شبه اسم "تربيانوسوماتا" أي الجسيمات المنقبة.

وبعد عامين من هذا التاريخ وجد رؤساء البعثة الانجليزية الموفدة إلى منطقة "أوغندا، للبحث في مرض النوم ومسبباته – مخلوقات صغيرة في دماء جميع من خصوهم من المرضى، مماثلة للأولى. ولما كان رؤساء البعثة على علم بما نشره "فورد" و"دطن" بصدد هذا الموضوع، فقد تساءلوا ما إذا لم تكن الجراثيم التي وجدوها في دماء مرضى الحمى بمنطقة "جامبيا" هي من نوع الجراثيم ذاتها التي كشف عنها "فورد" و"دطن"، ثم إنه تبين لهم كذلك في الوقت نفسه من خص مرضاهم بالحمى، أن مصدرها يرجع إلى نفس المصدر الذي ينجم عنه مرض النوم.

ومن هنا استدلوا على أن حمى "الجامبيا" ما هي إلا مرحلة من المراحل الأولى

لمرض النوم. وتنتقل عدوى مرض النوم في الغالب الأعم بوساطة "الجلوسينا بليالس"[1]

وهي نوع من الذباب المعروف باسم تسيسي[2]، لا يطير إلا بالنهار، فإذا ما عضت ذبابة من هذه الفصيلة إنسانا مصابة بمرض النوم، استطاعت نقل العدوى إلى آخرين خلال فترة طويلة، ربما امتدت إلى آخر حياتها، لأن جراثيم والتربيانوم، التي دخلت جوفها عن طريق الدم الذي امتصته يعيش ويتوالد وينتقل من لعابها إلى دم من تعضه.

وكشف التعمق في دراسة مرض النوم، عن إمكان انتقال عدواه بواسطة البعوض،لأن هذه الحشرات إذا ما ملأت فيها من دم إنسان سليم معافى، بعد أن تكون قد عضت مصابة بمرض النوم نقلت إليه العدوى، إذ يكون لعابها قد تلوث بجراثيم والتربيانسومات، وهكذا تواصل جيوش البعوض ليلا ما قام به ذباب "الجلوسينا" نهاراً.. مسكينة أنت يا أفريقيا[3].

ومن خصائص مرض النوم الطبيعية الأساسية التهاب مزمن بالسحايا المخية الشوكية (الحمى النخاعية) وبالمخ نفسه، وهو التهاب ينتهي دائما بموت المصاب. والسبب في هذا هو تسرب جراثيم التربيانسومات من الدم إلى السائل المخي الشوكي، لذلك كان من الضروري لمكافحة الوباء بنجاح، من القضاء على جراثيمه قبل أن تنتقل من الدم، إذ أن عقار أتوكسيل، وهو العقار الوحيد الذي نملكه في الوقت الحاضر، والسلاح الذي يمكن الاعتماد على صلاحيته إلى حد ما، ليس له أثر فعال في الفتك بالجراثيم إلا في حالة وجودها في الدم فقط، أما في النخاع المخي

---

[1] أي ذات (زوائد قرنية) – ذباب ينقل مرض النوم الإنسان – بجراثيم تربيا سوماتا جامبيا ويوجد بإفريقية الاستوائية.

[2] نوع من البعوض.

[3] من الجدير بالذكر أن أضيف بأن البعوضة لاتختزن جراثيم الترنسومات إلى ما لا نهاية. فلما بها لا يكون سامة إلا فترة وجيزة من وقت تلوثه بدم المصاب بمرض النوم.

الشوكي فإن الجراثيم تكون من صولة العقار في مأمن أمين نسبياً. فمن واجب الطبيب إذا أن يتعلم كيف يتعرف على الوباء وهو في مرحلته الأولى أول ما يشعر المصاب بالحمى الناجمة عنه. فإذا ما توصل إلى ذلك كان هناك أمل في شفاء المريض.

ومن هنا كان من العسير معالجة وباء مرض النوم في المناطق النائية، لأن تشخيصه من الأمور المعقدة غاية التعقيد، نظرا لأن كل إصابة بالحمى، أو بالصداع المستمر، يجب أن تحدد طبيعتها عن طريق الفحص بالمجهر أضف إلى ذلك أن عملية فحص الدم بالمجهر ليست –لسوء الحظ– من الأمور البسيطة الهينة بحال من الأحوال، ولكنها عملية تتطلب وقتا طويلا، إذ أن من النادر جداً وجود هذه الطفيليات الباهتة الهزيلة، والتي لا يزيد طولها على جزء من ثمانية عشر ألف جزء من المليمتر في حشود كبيرة بالدم.

وإلى الآن لم أجد إلا في حالة فخص واحدة ثلاث أوأربع جراثيم محتشدة معا. وحتى حينما يكون الوباء موجودة بصورة قاطعة، فإن الإنسان قد يفحص في العادة عدة نقاط من الدم، نقطة بعد أخرى، قبل أن يهتدي إلى اكتشاف جرثومة واحدة من جراثيم التربيانسومات، ولا يخفى أن فحص كل نقطة بدقة يستغرق ما لا يقل عن عشر دقائق. وتبعا لهذا قد أقضي ساعة كاملة في فحص أربع أو خمس نقط من دم إنسان يشتبه في احتمال إصابته بمرض النوم، دون أن أجد أي أثر للطفيليات. وحتى بعد هذا كله لا أبيح لنفسي أن أقطع بعدم وجودها، أو بعدم إصابته بالوباء، إذ لا تزال هناك عملية تحليل طويلة مضنية لابد من إجرائها. وتنحصر هذه العملية في أخذ عشرة سنتيمترات مكعبة من الدم من عرق أو آخر من إحدى ذراعي المريض، ووضع الدم في جهاز لإمخاضه لمدة ساعة من الزمن بواسطة التباعد المركزي، وفقاً لنظام معين متوافق عليه، مع مراعاة كشط حلقات الدم الخارجية، في الفينة بعد الفينة. فمن المفروض أن تتجمع التربيانسومات في نقاط الدم القليلة المتبقية، ثم نفحص هذه النقاط تحت المجهر. وحتى في حالة نتيجة سلبية فليس من الحكمة القول

بأن الوباء غير موجود. فإذا لم أجد أي أثر للتربيانسومات اليوم فقد أجدها بعد عشرة أيام من ذلك التاريخ، وإذا كنت قد كشفت وجود بعضها اليوم فقد لا يوجد لها أثر بعد مضي ثلاثة أيام، وربما لفترة طويلة الأمد بعد ذلك أيضاً، ولقد حدث ذات مرة أن برهنت على وجود تر بيانسومات في دم موظف حكومي من الأوربيين فوضع تحت الملاحظة الطبية في لبرفيل [١]لعدة أسابيع دون أن يكشف أي أثر لوجود الجراثيم في دمه، ولم يقم أي دليل على وجودها مرة أخرى إلاحينما أجرى فحصا في معهد مرض النوم بمدينة برازافيل[٢].

فإذا ما أردت معالجة مثل هؤلاء المرضى، متوخيا الأمانة وإرضاء الضمير لربطني اثنان منهم إلى المجهر طيلة النهار بينما جلس خارج باب العيادة نحو عشرين مريضاً في انتظار الكشف والعلاج قبل حلول ساعة الغداء!

وهناك غيرهم من المصابين بمختلف الجروح وقد أتوا لأضمدها لهم. ولابد أيضاً من تطوير المياه وتقطيرها وتجهيز الدواء وتنظيف القروح وقلع الأسنان. فأمام هذا العمل المتواصل، وسرعة نفاد صبر المرضى كثيرة ما يساورني القلق، وتتوتر أعصابي حتى لا أعرف أي مستقر وقد تلتبس علي الأمور.

وعقار "أتوكسيل" عقار شديد الخطورة. فإذا ترك محلوله لفترة ما معرضاً للضوء تحلل، أي انفصلت الأجزاء المكونة له بعضها عن بعض، وفسد كما هي الحال مع عقار سافرسان[٣] فيصبح مفعوله شبيها بمفعول السم، وحتى في حالة مراعاة منتهى الدقة في تحضيره تحضيراً صحيحاً سليماً فإنه يخشى منه على المريض الذي قد يصاب بالعمى من تأثر أعصاب الإبصار بهذا العقار، ولا يتوقف الأمر على نقص كمية مايحقن به المريض من هذا العقار. إذ أنه يخشى من توزيعه على كميات صغيرة أن

[١]من مدن أفريقية الاستوائية.

[٢]من مدن أفريقية الاستوائية.

[٣]هوالمعروف ب ٦٠٦ "لأرليخ "، و"هاتا" وهودواء زرنيخي لمعالجة "الزهري" وتسميه العامة في العادة (تشويش أفرنجي).

تتعود عليه الجراثيم، فتتولد لديها مناعة ضده، وتصبح في مأمن من تأثيره مهما ضوعفت كميته في الحقنة الواحدة.

وكان المرضى بوباء مرض النوم يأتونني كل خمسة أيام لأحقهم، فكنت دائما أبداً أبادره بالسؤال عن غير قصد أو تعمد، عما إذا كان من بينهم من لاحظ أن قوة إبصاره ليست كالمعتاد؟ ، ولكن لحسن الحظ لم تصادفني غير حالة واحدة فقد فيها المريض قوة إبصاره، وكانت هذه الحالة الرجل في مرحلة متقدمة من المرض. والواقع أن مرض النوم انتشر من ساحل أفريقيا الشرقي إلى ساحلها الغربي، ومن نهر النيجر في شمالها الغربي حتى نهر زمبيزي في جنوبها الشرقي.

أترى أننا سوف نتغلب عليه؟ إن مكافحة هذا الوباء بصورة منظمة في مثل هذه المنطقة البعيدة الأكتاف والأطراف يتطلب عددا كبيرا من الأطباء وأموالا طائلة..... على أنه في الوقت الذي يختال فيه الوباء هنا تباهيا متغطرسا كالفاتحين لا يجد الدول الأوربية تقوم بأكثر من العمل على وقفه بصورة ضعيفة هزيلة، مكتفية باتخاذ بعض الوسائل السخيفة التافهة التي من شأنها أن تفسح المجال أمام الوباء لجني حصاد جديد في أوروبا نفسها.

وأما من ناحية العمليات الجراحية، فمن البديهي أن الطبيب في مثل هذه البيئة، بيئة الغابات والأحراش، لا يمارس منها سوى ما يكون لها نصيب من احتمال النجاح. ومن الجراحات التي طالما اضطررت إلى إجرائها أكثر من غيرها عملية الفتق. فالإصابة بالفتق أكثر انتشارا بين أبناء أفريقيا الوسطى منها بين أبناء أوروبا. ولا نعلم لذلك علة أو سبباً. وهم كذلك يشكون من علة الفتق المختنق أكثر مما يشكو منها الأوربيون. ويترتب على ذلك أن ينتفخ انتفاخا شديدا نتيجة الغازات التي تتكون داخله مما يسبب للمريض آلاما شديدة لا تحتمل. ثم بعد انقضاء عدة أيام يعاني فيها المريض ألوانا من العذاب والبلاء، تحدث الوفاة ما لم يشق البطن ويرد الفتك إلى موضعه.

وليس من شك في أن أسلافنا كانوا على علم بطريقة هذه الميتة المريعة، ولكننا نكاد لا نجد لها أثرة بأوروبا في هذه الأيام. فكل حالة من هذا القبيل تجرى لها جراحة بمجرد تشخيصها.

ومن قول الأساتذة المأثور لطلبة الطب أثناء الدراسة "لا تدعوا الشمس تغرب على –الفتق المختق– ولكن الموت بهذه الصورة في أفريقيا أمر عادي شائع. فمن من الصبيان في أفريقيا لم يشهد في حداثته رجلا يتلوى على الرمال أمام كوخه، ويظل يصرخ من شدة الألم حتى تواتيه منيته، فتخلصه من العذاب والبلاء الشديد؟ أما اليوم فبمجرد أن يشعر الرجل بأن فتقه من النوع المختنق، يتجه من فورا إلى أصدقائه راجياً منهم أن يضعوه في قارب صغير ويحملونه إلي، أما النساء لحالات الفتق بينهن نادرة الحدوث جداً.

كيف أتصور شعوري حينما يحمل إلي رجل يائس في مثل هذه الحالة؟! إلى الشخص الوحيد الذي يستطيع المصاب أن يتوجه إليه لإسعافه، في كل هذه المنطقة، وقد يقطع مئات الأميال ليصل إلى مقر عملي بالمستشفى.

فبسبب وجودي هنا، ولأن لي أصدقاء يمدوني بالوسائل الضرورية لمواصلة رسالتي، قدر للرجل أن تنقذ حياته كما أنقذت حياة من جاءوا قبله، وكما سوف تنقذ حياة من يجيئون بعده، ولولا هذا لذهب ضحية آلامه المريرة. وليس معنى هذا أن المسألة مجرد إنقاذ حياة. فكلنا لابد أن نموت. ولكن الذي استطيعه، إنقاذه من جحم عذاب وآلام ربما طالت بها الأيام. وهذا ما يجعلني أشعر بفخر يتجدد كل يوم، فالألم سلطان أشد وطأة على البشر من الموت نفسه.

وهكذا عندما حضر إلى مخلوق بائس يتلوى من شدة الألم، وضعت يدي على جبينه وقلت له: "لاتخش بأساً! فبعد ساعة سوف تستغرق في النوم، وعندما تستيقظ يكون الألم قد فارقك، وما هي إلا لحظات حتى أكون قد حقنته بمادة "أمنيبون، (مخدر مبدئي)، وحتى تكون زوجتي قد استدعيت إلى المستشفى لتعد –بمساعدة

يوسف– كل ما يلزم للجراحة من أدوات. وعند بدء العملية تباشر زوجتي عملية التخدير. بينما يقوم يوسف بمهمة المساعد بعد أن يكون قد لبس القفازات الطويلة المصنوعة من المطاط.

فإذا انتهت الجراحة مكثت بجوار المريض في العنبر الخافت الإضاءة مترقبة إفاقته. وما إن يخرج من تحت تأثير البنج حتى يشخص ببصره محدقا فيما حوله ثم يظل يردد مراراً وتكراراً "لا أشعر بعد بألم! لا أشعر بألم" وامتدت يده تتحسس يدي، ثم لا يدعها من قبضته، فأشرع في القول له ولغيره من الموجودين في العنبر بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمر الطبيب وزوجه بالمجيء إلى "أجووى"، وبأن أهل أوروبا البيض هم الذين يعطونهما المال اللازم؛ ليقيما هنا ويعالجا المرضى من السود.

ولا أجد بداً بعد ذلك من الإجابة على الكثير من الأسئلة، مثال ذلك من هم أولئك البيض؟ وأين يقيمون؟ وكيف عرفوا بأن الأهالي يعانون الشيء الكثير من الأمراض؟ إن شمس أفريقيا تسطع في الأكواخ المظلمة من خلال أشجار البن، ولكننا نحن السود والبيض نجلس جنبا إلى جنب، ونشعر بأننا نعرف بفضل تجاربنا معنى هذه الكلمات: "وأنتم جميعاً إخوة".

كم وددت أن أصدقائي الكرماء في أوروبا قدموا إلينا وعاشوا بيننا ساعة من هذه الساعات.

القارب المكشوف

سيرارنست شاكلتون

"بعد أن قهر أمندسون القطب الجنوبي بالوصول إليه، لم يبق للرحلات إلى القطب الجنوبي سوى هدف رئيسي واحد، هو عبور القارة القطبية الجنوبية من البحر إلى البحر". هذا ما كتبه "سير إرنست شاكانتون" في تقديمه لكتابه (الجنوب) الذي منه اقتبست القصة التي سأرويها فيما بعد. لقد حاول "شاكلتون"، وهو من أعظم الرحالة المستكشفين المعاصرين، أن يعبر القارة، ولكنه مني بالفشل في محاولته. بيد أن فشله كان من عدة وجوه –كما كانت الحال مع "سكوت" من قبل– مجداً وانتصاراً، ففيه تغلب روح المخاطرة على ما يعترضه من عوائق وعقبات جسام.

أبحر شاكلتون شطر القطب الجنوبي عام ١٩١٤، غير أن سفينته "إنديورنس"[١] أحاطت بها الثلوج آخر الأمر وسحقتها، وظل هو ورجاله ضالين مشردين فوق مياه البحر المتجمدة التي جرفتهم شمالا عدة شهور حتى هبطوا في النهاية شاطئ جزيرة (الفيل). ومن هناك أبحر شاكلتون مع بضع من رجاله في قارب مكشوف التماسا للنجدة، فقطع فوق مياه القطب الجنوبي مسافة ثمانمائة ميل إلى أن وصل إحدى المحطات الترويجية لصيد الحيتان في جورجيا الجنوبية. وبذلك تم له الحصول على النجدة التي كان ينشدها، فاستطاع إنقاذ بقية بحارته من موقفهم العصيب، والحق أن رحلة شاكلتون هذه تعتبر من أعظم الرحلات وأشهرها التي قام بها الإنسان في قارب مكشوف.

***

---

[١]ومعناها "قوة الاحتمال أوالجلد".

اضطررنا أمام تزايد مياه البحر إلى سحب قواربنا من الشاطئ إلى موضع أكثر بعدة من ساحل البحر. وهو عمل شاق تطلب اشتراكنا جميعاً فيه. وبعد جهد جهيد تمكننا من سحبها إلى مكان أمين بين الصخور وشددناها إلى أضخمها. وما إن فرغنا من هذه العملية حتى شرعت أناقش دويلد، ودوورسلي، في أمر الرحيل إلى "جورجيا الجنوبية"، ومدى نصيب مثل هذه الرحلة من النجاح قبل أن يدهمنا الشتاء ويسد جميع المنافذ البحرية في وجهنا. وكان لابد من بذل بعض الجهود للحصول على نجدة تنقدنا من موقفنا هذا. فالحرمان والتعرض للبرد الشديد قد أنهكا قوى الرجال إلى درجة ساءت معها حالة بعضهم الصحية والمعنوية بصورة تبعث على القلق الشديد. فمثلاً "بلاكبرو" الذي كان قد أصيب بخصر في قدميه من شدة البرد أثناء الرحلة في القارب، تدهورت حالته إلى حد خشي معه الطبيبان ألا يجداً مناصا من بتر أصابع قدميه ما لم يسترد حيويته في مدة وجيزة.

وكان من بين الاعتبارات الحيوية أيضاً مسألة التموين الغذائي، في أول مخيم لنا بالجزيرة تركنا عشرة صناديق ملأى بالمئونة بين شقوق الصخور، وقد تبين لي من خص مخزوننا، أنه ما يزال لدينا حصص كاملة لكل رجل من رجال الحملة تكفي لمدة خمسة أسابيع. على أنه من المستطاع أن نجعلها تكفي لثلاثة أشهر إذا نحن أنقصنا حصة كل فرد منا. ومن المحتمل أن يضاف إليها بعض لحوم العجول والفيلة البحرية إذا ما قدر لنا اصطياد شيء منها. بيد أني لم آنس من نفسي الجرأة الكافية على افتراض وجود مثل هذا اللحم الإضافي في شيء من الثقة واليقين. فقد كان يبدو لي كما لو أن هذه الحيوانات قد هجرت الشاطئ إلى غير رجعة بنها كان فصل الشتاء يقترب منا بخطى حثيثة.

كان من بين محتويات تموييننا ثلاثة من مجول البحر وجلود مجلين ونصف معجل، ومعها شحمها، وكان جل اعتمادنا على هذا الشحم لكل ما يلزمنا من وقود. وبعد أن استعرضت الموقف مبدئية، استقر رأيي على أن يحدد غذاؤنا اليومي بوجبة ساخنة واحدة لكل منا.

ولم يكن ثمة مناص من القيام برحلة في أحد القوارب طلبا للنجدة،بل لم أجد من ذلك مفرا. وكانت ميناء ستانلى بجزائر "فوكلاند" أقرب ميناء يمكن الاستنجاد بها، وهي تقع على بعد خمسمائة وأربعين ميلا من مركزنا. على أن الأمل في إمكان بلوغها –مع شدة الرياح الشمالية الغربية، وفي مثل قاربنا الهزيل المرهق بأشرعته الضعيفة– كان ضئيلا جداً. وأما "جورجيا الجنوبية" فتقع على بعد ثمانمائة ميل أو يزيد، إلا أنها تقوم في منطقة الرياح الغربية. وكان من المحتمل جداً أن أجد في الطريق إليها بعض صيادي الحيتان في محطات الصيد المنتشرة على الشاطئ الشرقي. وقد يكون في استطاعة فريق من البحارة أن يقطعوا المسافة ويعودوا بالنجدة المنشودة في بحر شهر واحد، إذا خلا البحر من العوائق الثلجية، واستطاع القارب الصمود في مخوره وسط المحيطات العظيمة، ولم يكن من العسير تفضيل "جورجيا الجنوبية" واستقرار الرأي على أن تكون الهدف المنشود. ومن ثم شرعت في وضع الخطة اللازمة وإعداد العدة لذلك. وغني عن البيان أن قطع ثمانمائة ميل في قارب وسط عواصف المحيط المتجمد الجنوبي وتياراته مجازفة محفوفة بالمخاطر، ولكنني قدرت أن المغامرة – على أسوأ الفروض– لن تزيد من حرج الموقف، ولما قد يتعرض له من تركنا وراءنا بالجزيرة من أخطار جسام ومهما يكن من أمر فسوف يقل عدد الآكلين خلال الشتاء، ولن نكون في حاجة إلى حمل أكثر من مئونة شهر واحد في القارب لستة رجال، لأننا إذا لم نتمكن من بلوغ "جورجيا الجنوبية" في بحر هذا الشهر غرقنا لامحالة، ومن بين الاعتبارات الأخرى التي حفزتني للقيام بهذه الرحلة ثقتي بأن أحداً لن يبحث عنا في جزيرة "الفانت" هذه.

كان الأمر يتطلب التشاور والتباحث في شيء من التفاصيل، إذ كان جميع الرجال يعلمون علم اليقين مبلغ الخطر البالغ الذي يحدق بالرحلة المعتزمة، التي لم يكن ثمة ما يبرر المجازفة بها سوى حاجتنا الماسة لطلب النجدة والمعونة، فمن المسلم به أن ذلك الجزء من المحيط الواقع إلى جنوب "رأس هورن" تكتسحه في أواسط شهر مايو زوابع وأعاصير أشد عتوا منها في أي منطقة أخرى من بحار العالم. وفي ذلك

الوقت يكون الجو كثير التقلب، والسماء قائمة متلبدة بالغيوم، والعواصف لا تهدأ ولا تنقطع. وكان علينا أن نواجه جميع هذه الظروف في قارب صغير سيبلى من هبوب العواصف وكثرة الاستعمال طيلة الأشهر الطويلة الماضية.

وأدرك. "وورسلى" و"ويلد" بأن المحاولة أمر لا محيد عنها، فطلب إلي كلاهما أن آذن لهما في مرافقتي، ولكني أخبرت " ويلد " من فورى بأن عليه أن يبقى مع الرجال بالجزيرة أثناء غيابي لرعايتهم، كما أن عليه بذل كل ما في وسعه للوصول بهم إلى جزيرة "ديسيش"[1] عند حلول الربيع، إذا ما أخفقنا في العودة إليهم ومعنا النجدة اللازمة. وأما "وورسلي" فقررت اصطحابه معي لأني كنت أقدر كفاءته حق قدرها، وأعرف مبلغ دقته وسرعته في شئون الملاحة، وعلى الأخص في تحديد مركز السفينة من البحر، وعمل الخرائط الموضحة لذلك حتى في أشد الظروف جرجا. أضف إلى ذلك أن هذه الرحلة قد زادت من قدره في نظري، وكان يلزمنا أربعة رجال آخرين، فاعتزمت دعوة أفرادالحملة للتطوع، وإن كنت في الواقع قد تغيرت فيما بيني وبين نفسي ،فاستقر رأيي سلفاً على اصطحابهم معي. كان كرين، من بين الذين اعتزمت تركهم بالجزيرة ليكون ذراع "ويلد" اليمنى، ولكنه طلب إلى في إلحاح شديد أن أسمح له بمرافقتنا في القارب فوعدته بذلك بعد التشاور مع "ويلد" في أمره. ثم جمعت كل رجال الحملة وشرحت لهم خطي ودعوتهم إلى التطوع لمرافقتي. فتقدم عدد كبير منهم على الفور. غير أن طائفة منهم كانوا في حالة لا تسمح لهم بالقيام بمثل هذه الرحلة الشاقة وما تتطلبه من عمل وجهد. وكان من بين الباقين من لا يصلح قطعا للخدمة في القارب على الوجه الأكمل، إذ أن معرفتهم بشئون الملاحة لم تكن قد بلغت بعد مستوى النضوج، وإن يكن ما عانوه في الأشهر الأخيرة قد أكسبهم من الخبرة ما يكفي لاعتبارهم من مهرة الملاحين. وأبدى الطبيبان "ماك ألورى" و"ما كاين" رغبة شديدة في الذهاب معنا، ولكنهما أيقنا بأن واجبهما يقضى عليهما بالتخلف لرعاية المرضى والعناية بهم، إلا أنهما اقترحا علي حمل "بلا كبورو" معي، عله يجد مأوى مريحا

[1] ومعناها – النفاق والخداع.

ودفئا منعشا في أقرب وقت ممكن، غير أني لم أجد مناصاً من رفض اقتراحهما. ولا غرو، فالحياة في القارب سوف تكون شاقة مضنية بالنسبة للأصحاء، فكيف بعليل عاجز ملقى في قاعة؟ وهل يستطيع أن يعيش وسط العواصف العاتية والأنواء التي لم أكن أشك في أننا سوف نتعرض لها أثناء الطريق؟ وفي النهاية وقع اختياري على "ماكنيش" و"ماكرثي" و"فنسنت، بالإضافة إلى "وورسلى" و"كرين". والحق أنهم كانوا جميعاً رجالا أقوياء أشداء، فما إن تفرست فيهم مليا حتى شعرت بمزيد من الثقة.

وإذ فرغت من مهمة الاختيار أخذت طريق، ومعى "وورسلي" و"ويلد، لفحص القارب "جيمز كيرد" الذي لم يكن يزيد طوله على عشرين قدما. لم يبد القارب كبير الحجم في أي وقت من الأوقات، ولكنه تراءى إلى الآن – وأنا أفحصه على ضوء رحلتنا المعتزمة– كما لو كان قد انكمش بعض الانكماش بطريقة غامضة. كان قارباً عادية من القوارب التي تحملها السفن الخاصة بصيد الحيتان، متين البناء، ولكنه بلى بعض الشيء نتيجة الاستعمال وعصف الأمواج به بعد تحطم السفينة "إنديورنس"، ومن حسن الحظ أن الصدع الذي أصابه عند انفصاله من مربطه بالسفينة كان فوق مستوى ارتفاع ماء البحر، ولم يكن رأبه بالأمر العسير. ولاحت منا التفاتة ونحن بجانب القارب إلى سيف البحر الصاخب المزبد، وقد اكتسحته الزوابع والعواصف، فأيقنا بأن رحلتنا سوف تكون إحدى المغامرات الكبرى.

أرسلت بعد ذلك في إحضار النجار وسألته ما إذا كان في مقدوره أن يجعل القارب أكثر صلاحية الرحلة في البحر، ولكنه قبل أن يجيب سألني عما إذا كان سيرافق البعثة، وقد سر كثيرة لردي بالإيجاب.كان هذا النجار قد قارب على الخمسين من عمره، ولم يكن قوي البنية بمعنى الكلمة، ولكنه كان خبيرا بشئون قوارب الملاحة، وسريعا جداً في مهمة إصلاحها، وأفضى إلي "ماكرثي" بأنه ربما استطاع صنع سقيفة أوما يشبه ذلك للقارب ليظلهم إذا سمح له باستعمال أغطية الصناديق الخشبية والزحافات الأربع التي كنا وضعناها في قاع القارب لاستخدامها، إذا ما تصادف أن نزلنا إلى البر في مرسى "جراهام" بخليج "ولهلمينا" فقد كنا نهدف

إلى النزول بهذا الخليج في مبدأ الأمر، لولا أن التيار جرفنا بعيدا عنه، وما تزال هذه الزحافات باقية لدينا. واقترح النجار استكمال السقيفة ببعض المتوفر لدينا من القنب أو المشمع، ثم شرع لتوه يرسم خطته ويتخذ العدة لذلك.

مضت ساعة الظهيرة وازدادت الزوبعة شدة، والريح سرعة، من ذي قبل، فلم نستطع مواصلة العمل فيها استقر الرأي على إعداده بقية يومنا هذا، وكانت الرياح تعبث بمخيمنا وتعصف به عصفاً شديداً، وهاج البحر وماج، فأخذنا نتجه صوب المنحدر الثلجي، عند نهاية الخليج الصغير في مواجهة الشاطئ، معتزمين حفر جابية في الثلج تتسع لإيواء جميع رجال الفرقة. وكانت فكرتي الأساسية إعداد مخيم "لويلد" ومن معه من الرجال أثناء غيابي؛ نظراً لأن جميع الشواهد كانت تشير إلى استحالة الاحتفاظ بالخيام سليمة أمام هذه الرياح العاتية وعصفها بها. على أننا لم نكد نفحص المكان في شيء من الدقة، حتى تبين لنا أن أية حفرة مهما يبلغ عبقها ستكون عرضة للامتلاء بالمياه التي تبخرت مع التيار. وما إن هبط الظلام حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر حتى أوينا جميعاً إلى الفراش بعد عشاء مكون من قدح من اللبن الساخن، وبسكوتة من بسكوتنا الغالي (لقلته) وفخد بطريق واحدة لكل رجل.

زادت الزوبعة في صباح اليوم التالي شدة لم نعهد لها مثيلا من قبل، حالت دون قيامنا بأي عمل مما كنا قد اعتزمنا القيام به. فلم يكن هناك سوى زوابع وثلوج. ثم فترات هدوء قصيرة تعود بعدها الزوابع إلى ما كانت عليه عتوا أو أشد. وكنا في فترات هدوئها نلمح وراء الأفق، إلى الناحية الشمالية الشرقية جبال الثلوج العائمة من مختلف الأحجام والأشكال، تدفعها الرياح العاصفة العاتية، حمدنا الله أمام منظر هذه الكتل المرعبة الرهيبة وهي تتحرك بمثل هذه السرعة المزعجة، إننا لم نكن فوق العباب بعد نصطرع مع الزوابع وسط هذه الثلوج العائمة، وأنا المنزل حيث كنا، ليس أمامنا ما نقاومه سوى ما ينحرف إلينا من الجبال الجليدية والهضاب المرتفعة في الداخل. صحيح أن الزوابع ربما أمالت توازننا واقتلعتنا من أقدامنا ولكنا –على الأقل– كنا ما نزال فوق أرض صلبة ثابتة، لا فرق كتل من الجليد الساعة في العمر.

وفي ذات يوم طلع إلى الشاطئ عجلان من عجول البحر، وكان أحدهما لا يبعد من خيمتي أكثر من عشر ياردات. وكنا يومئذ في أمس الحاجة إلى كل ما نستطيع الحصول عليه من مواد الغذاء والشحم، فأهبت بجميع الرجال ونظمتهم لمطاردة العجل بدلا من مجرد الذهاب إليه وضربه على أنفه. بيد أننا كنا على أتم استعداد للهجوم عليه جميعاً في آن واحد والقضاء عليه، إذا ما حاول الهرب. أنجزنا عملية القتل بمحفار كان معنا، وبذلك حصلنا في بضع دقائق على طعام يكفينا لخمسة أيام، وعلى وقود لستة أيام، خزناه في مكان ما بين الصخور الضخمة فوق مستوى ارتفاع الماء. وحدث أثناء هذا اليوم أن الطاهي –الذي أدى عمله على أحسن وجه ونحن نمخر في اليم بين كتل الجليد طيلة الرحلة– وقع فجأة مغشيا عليه. واتفق وجودي بالمطبخ في هذه اللحظة فرأيته وهو يقع، فسحبته من فوق المنحدر، حتى خيمته، ودفعته إلى داخلها، مشدداً على زملائه الأوامر بوضعه داخل كيس نومه والاحتفاظ به فيه إلى أن أسمح له بمغادرته، أو إلى أن يعلن أحد الطبيبين بأنه قد استرد قواه. ومن الجدير بالذكر أنه كان من بين أولئك الذين عبروا عن رغبتهم في الرقاد إلى أن يأتيهم الموت فيخلصهم مما هم فيه من عذاب.

وكانت عملية الاحتفاظ بالنار موقدة في المطبخ عملية عسيرة وشاقة مما شغله – أي الطاهي– عن التفكير في احتمال التخلص من الحياة. والواقع إنني وجدته بعد ذلك بقليل، مشغول الفكر جداً بموضوع تجفيف زوج من الجوارب، هما أبعد من أن يوصفا بالنظافة. وقد علقا غير بعيد من اللبن المعد لشربنا في المساء. فانهماكه في العمل قد رد أفكاره إلى شئون الحياة العادية ومشاغلها.

تحسن الجو لفترة ما في اليوم الواحد والعشرين من شهر أبريل، فأخذ النجار يحشد ما يلزمه لتسطيح القارب "جيمز كيرد"، فانتزع من القارب "ستانكومب ولز" ساريتيها الأمامية والخلفية، وثبتهما في القارب "جيمز كيرد" لتقوية قاعدته السفلى الأساسية (الصبورة)؛ حتى لا يتأرجح فوق الأمواج أثناء هياج البحر. ولم يكن لديه من الخشب ما يكفي لعمل سقف كامل لها (تندة). ولكنه استعان بالزحافات الثلجية

وبأغطية صناديق المؤن الخشبية، فاستطاع أن يصنع منها هيكلا للسقف يمتد من مقدمة القارب إلى صحنه. على أن العملية لم تكن في الحقيقة وواقع الأمر سوى عملية رتق وترقيع لا أكثر ولا أقل. ولكنها زودت القارب بقاعدة لنشر غطاء (المشمع) فوقها يظل القارب من الأمطار والأنواء. وكان لدينا مقطع من (مشمع) تخشب من شدة البرد والجليد، فاضطررنا إلى تقطيعه قدماً قدماً. ثم إذابة ما تراكم عليه من الجليد فوق نار موقد من تلك المواقد التي تشعل بشحم الحيتان، لكي نستطيع حياكة القطع على هيئة غطاء. وما إن فرغ النجار من تركيب الغطاء وتثبيته بالمسامير في موضعه حتى أضفى على القارب ما جعله يبدو للعيان مركباً أميناً، وإن يكن قد خامرني الشعور بأنه لايختلف كثيرا عن تلك المناظر التي تقام على خشبات المسارح. فهي والتي تبدو منها الجدران للنظارة كأنها من الجرانيت، إلا أنها لم تكن في الحقيقة سوى بعض قطع المشمع والخشب الرقيق، بيد أن مجرى الحوادث قد برهن فيما بعد على أن هذا السقف -غير المتين- قد حقق الغرض من إنشائه بصورة مرضية، ولولاه لقضي علينا أثناء الرحلة.

هبت زوبعة شديدة أخرى في الثاني والعشرين من أبريل حالت دون مواصلتنا العمل لإتمام العدة للرحيل، وجرفت معها موقد طهو الطعام من الخيمة الخامسة، فراح يتدحرج فوق الجليد، فجرينا وراءه حتى سيف البحر، ولكنه كان قد اختفى عنا إلى الأبد. ثم إن "بلاكبرو" ازداد ألمه من علة قدميه حتى إن الطبيبين "ماك إلورى" و"ماكلي"، فكرا في ضرورة بترهما في أقرب وقت، إلا أنهما اعتقدا عدم وجود شيء من الكلوروفورم معهما. ولكنهما عثرا على هذه المادة في صندوق الإسعاف بعد رحيلنا. وكان من أحداث هذا اليوم أيضاً إنقاذ بعض الصناديق المحتوية على مؤننا، وهي التي كنا قد تركناها يوم وصولنا الجزيرة فوق إحدى الصخور عند مدخل الخليج. شرعنا بعد ذلك نضع جانبا مقادير المؤن اللازمة لرحلتنا ونختار من بين القليل مما لدينا ما لاغنى عنه خلال رحلتنا المعتزمة. وكان لابد من ملء عسين[1] ضخمين

---

[1] العس: القدح الضخم والآنية الكبيرة، وهي من الخشب، والجمع عساس.

(جمدانتين) بالماء المذاب من الثلج الذي شرعنا في جمعه عند سفح الهضبة الثلجية. وهي عملية بطيئة اقتضت إشعال الموقد بشحم الحوت طيلة الليل بينها أخذ الرجلان القائمان على الحراسة تفريغ الماء من القران الذي أذيب فيه إلى العسين، وفي الوقت نفسه شرع بعض الرجال في حفر حفرة فوق المنحدر الثلجي على ارتفاع نحو أربعين قدما من سطح البحر بقصد تمهيد مكان ملائم لخيمة تنصب فيه. وقد كلل عملهم بالنجاح في مبدأ الأمر، ولكن سرعان ما انحدرت عليهم الثلوج من عل بصورة مستمرة حالت بينهم وبين تمام ما كانوا يقصدون.

كان اليوم صحوا، وفي اليوم نفسه استقر رأيي نهائيا على أن يتألف رجال القارب "حيمز كيرد" من "وورسلى" و"كرين" و"ماكنيش " و"ما كرتى" و"فنسنت وأنا. وفي الظهر أو نحو ذلك هبت عاصفة ثلجية عنيفة، كانت تهدأ أحياناً لفترات لا تزيد على بضع دقائق، كنا نتبين خلالها خطا من كتل الثلوج العائمة على مسافة خمسة أميال في البحر تندفع من الغرب إلى الشرق. ضاعف هذا المنظر من رغبتي في الرحيل بأسرع ما يستطاع. فالشتاء كان يقترب بخطى حثيثة وقد تحاصر الكتل الثلجية العامة –عما قريب– الجزيرة من جميع نواحيها، وتسد علينا المنافذ إلى البحر فتحول بيننا وبين الرحيل لأيام أو حتى الأسابيع. ولم أكن أتوقع أن تبقى الثلوج حول جزيرة "إليفانت" طيلة فصل الشتاء بصورة مستديمة، نظرا لكثرة هبوب الرياح العنيفة الشديدة، فهي كفيلة بدفعها وجعلها دائمة الحركة. ولمحنا كذلك جبالا عائمة تسبح في البحر بسرعة أربع عقد أوخمس في الساعة. وتراكمت مقادير من الثلوج في نهاية خليج الجزيرة، ولكن الموضع الذي كنا نعتزم إنزال القارب فيه إلى البحر كان هادئاً.

تسلق معى "وورسلى" و"ويلد" إلى ظهر الصخور المطلة على البحر لفحص حالة الثلوج فيه من موقع أفضل من الشاطئ لهذا الغرض، وهناك قررت من فوري أنه من الأصلح لنا أن نبدأ الرحلة على ظهر القارب "جيمز كيرد" في اليوم التالي ما لم تحل الظروف دون تنفيذ هذا القرار. فمن المسلم به أن الكتل الثلجية قد تحاصر الجزيرة في أي وقت. وما إن استقر رأينا على ما اعتزمناه، حتى قضيت بقية النهار في

فحص القارب والمعدات والمؤن، وفي بحث خطة الرحلة مع "وورسل" و"ويلد ".

قضينا ليلتنا الأخيرة فوق أرض جزيرة "إليفانت" نتلوى من شدة الزمهرير. وما إن انبثق الفجر حتى غادرنا الفراش وتناولنا وجبة الصباح، وبعد ذلك أنزلنا القارب "ستانكومب ولز" إلى البحر بعد تزويده بالمؤن والمعدات و"بالأثقال" التي سوف تنقل فيما بعد إلى القارب الأكبر "جيمز كيرد" بعد إنزاله إلى الماء. أما الأثقال فكانت عبارة عن أكياس اتخذناها من البطاطين وملأناها برمال لا يقل وزنها عن ألف رطل، تضاف إليها مجموعة من الأحجار المستديرة، ونحو مائتين وخمسين رطلا من الثلج لتعزيز ما حملناه معنا من الماء في "الجمدانتين". وكان ما حملناه معنا في القارب "جيمز كيرد" لتموين ستة أشخاص مدة شهر كالآتي:

ثلاثون علبة من الكبريت

ستة جالونات ونصف من البنزين

صفيحة من الكحول غير النقي "سبرتو"

عشر علب من مشعلات اللهب

علبة من الأنوار الزرقاء

موقدان "بريموس" وبعض قطع الغيار والإبر

فرن من الألومنيوم لطهو الطعام ماركة (نانش)

ستة أكياس للنوم

بعض جوارب للطوارئ

بعض الشموع وبعض شحم الحوت (في كيس خاص)

المأكولات:

ثلاثة صناديق من الأطعمة الخفيفة – ثلاثمائة حصة

صندوقان من الأطعمة النقلية[١] – مائتي حصة

صندوقان من البسكوت يحتويان على ستمائة بسكوتة

صندوق من قطع السكر[٢]

صفيحة مكعبات البوفرل[٣]

ثلاثون علبة من اللبن المجفف (ماركة ترومل‍ك)

صفيحة ملح ناعم (ماركة سربيوس)

ستة وثلاثون جالونا [٤] من الماء

اثنا عشر ومائة رطل من الثلج

الألات:

سكستانت [٥]

منظر مكبر

بوصلة

هلب

خرائط

مقياس الضغط الجو

أنزلنا إلى الماء في مبدأ الأمر القارب "ستانكومب ولز" –وهو أصغر القاربين–

---

[١] أطعمة مصنوعة من النقل.

[٢] وهوما يسميه العامة (سكر ماكينة).

[٣] خلاصة اللحم، ويعمل منه حساء ساخن، بإذابة المكعبات في الماء المغلي وقد يضاف إليه بعض الخضر والمواد النشوية.

[٤] الجالون يساوي أربعه لترات ونصف لتر تقريبا.

[٥] آلة يستعملها الملاحون القياس زاوية نجم القطب لتحديد موقع السفينة من البحر.

دون صعوبة تذكر، إذ لم يرتفع الماء إلا بقدر طفيف ولكن حينما أنزلنا القارب "جيمز كيرد"، وبعد ذلك بنصف ساعة، ارتفع الماء فجأة، ومرجع هذا، على ما بدا لنا، حدوث خوة في الطبقة الثلجية الرقيقة فوق سطح البحر، خارج الخليج فانثقب منها الماء دون أن يكون هنالك من الكتل الثلجية ما يمنع وصوله إلينا. فتعقدت الأمور من طغيان الماء، وابتلت ملابس غالبيتنا عند حضورنا في أثناء سحبنا القارب من الماء، وهو أمر جد خطير في مثل هذا المناخ. وما إن عومنا القارب "جيمز كيرد" فوق ماء الحيز المحصور بين الشاطئ والصخور القريبة منه، حتى كاد ينقلب بين تلك الصخور قبل أن نتمكن من الابتعاد به عنها، وسقط فنسنت والبحار لسوء الحظ من فوق ظهر القارب في الماء، وهو أمر يرثي له أشد الرثاء إذ ليس التجفيف ملابسهما من وسيلة متى أقلعنا عن الشاطئ. ولم تفت "هيرلي" المولع بتصوير الأحداث كأحسن ما يكون المحترف مهارة، أن يلتقط بسرعة البرق، صورة للكارثة، عن كثب. بيد أننا أسرعنا إلى نجدتهما وانتشالهما من الماء غير آبهين بشعوره أو هوايته.

وما هي إلا فترة قصيرة من الوقت، حتى كان القارب "جيمز كيرد" بمنأى عن عبث الأمواج، وجاء القارب "ستانكومب ولز" إلى جانبه لينقل إليه شحنته، ثم عاد إلى الشاطئ لإحضار شحنة أخرى. ولكن ما كاد يسحب إلى جوار الشاطىء حتى طغى البحر على مؤخرته فامتلأ إلى منتصفه بالماء، مما اضطرنا إلى أن نكفأه لإفراغ الماء قبل شحنه وعودته للقارب الآخر. وكان من جراء هذا الحادث أن ابتل جميع بحارته من أخص القدم إلى قمة الرأس. وفي طريق العودة إلى حيث القارب الأكبر، شد العسان بما فيهما من الماء إلى مؤخرة القارب "ستانكومب ولز" في رحلته بشحنته الثانية ولكن طغيان البحر –كان قد أخذ يتزايد سريعا– دفع بالقارب على الصخور مما ترتب عليه أن اصطدم أحد الحسين بعضهما فانشرخ جانبه وقد تبين لنا فيما بعد أن الحادث كان جد خطير، لأن الماء المالح تسرب إليه فأفسد ما به من ماء عذب.

وما إن انتصف النهار حتى كنا قد فرغنا من إعداد القارب "جيمز كيرد" للرحلة. ووفق "فنسنت" والنجار في الحصول على بعض الملابس غير المبتلة عن

طريق المقايضة مع بعض زملائهم من رجال الفرقة المتخلفين بالشاطئ .

وما وافت الساعة الرابعة بعد الظهر حتى تبين لنا أن الخليج أضيق مما تراءى لنا في الصباح وإن كانت عملية السير فيه ما برحت ميسورة، فطوينا الأشرعة وأعملنا المجاديف دون أن تمس الثلوج في أي مكان منه.

وما انتصفت الساعة السادسة بعد الظهر حتى كنا قد خرجنا من منطقة الكتل الجليدية، وترامى البحر أمامنا رحبا فسيحا مفتوحا. على أننا مررنا بقطعة أخرى من الثلج في الظلام بعد ساعة من الزمن، ولكن منطقة الكتل كانت قد أصبحت وراءنا نهائيا، وملأت الرياح أشرعتنا المنشورة فواصلنا مخورنا بقاربنا الصغير فوق العباب طيلة الليل وآمالنا معقودة على المكان البعيد الذي نستهدف الوصول إليه.

أخذت مياه البحر تتلاطم بشدة الآن، حتى إنه عندما حان وقت طهو أول وجبة لنا في هذا المساء وجدنا من العسير الاحتفاظ بالموقد (البريموس) مشتعلا، ومنع القدر الذي كنا بسبيل إنضاج الطعام فيه من الرشاش، وقد اقتضت عملية الطهو قيام ثلاثة رجال بها، واحد لحمل المصباح، واثنين للعناية بالقدر (المصنوع من الألومنيوم)، ورفعه من على الموقد كلما أنذر اهتزاز القارب باحتمال وقوع كارثة ما. ثم كان لابد من وقاية المصباح كذلك من الماء، فرشاش الأمواج كان يغمر سطح القارب، ولم يكن السقف الرفيع الذي صنعناه يمنع تسرب بعض هذا الرشاش إلينا.

وغني عن القول إن جميع هذه العمليات كانت تجرى في الحيز المحدود تحت سطح القارب، حيث اضطجع الرجال أوركعوا على ركبهم حيثما اتفق طلبا للراحة، متخذين من الصناديق والأثقال ما يدرأ عنهم برودة البحر ورشاش الأمواج. لم يكن الوضع مريحاً بحال من الأحوال، ولكن كان عزاؤنا الوحيد، هو أنه لولا وجود السقف الممدود فوقنا لما استطعنا أبداً استعمال الموقد لطهو الطعام. أما قصة الأيام الستة عشر التالية فقصة كفاح وسط مياه الغمر المتضخمة دونه كل كفاح. فالمحيط المتجمد الجنوبي قد برهن على جدارة ما ينسب إليه من سمعة رهيبة، وأمام هذا الظرف لم أجد

بدأ من الخور شمالا لمدة يومين على الأقل منتهزاً فرصة مساعدة الرياح على سلوك هذا الاتجاه، وبذلك أكون قد تحولت إلى منطقة دافئة المناخ نسبية، قبل الاتجاه بالقارب شرقا، التماسا لطريق ننتهجها شطر "جورجيا الجنوبية".

كنا نتناوب إدارة (الدفة) وتمتد كل نوبة لمدة ساعتين من الزمن، وكان الذين تنتهي نوباتهم يزحفون داخل أكياس النوم المشبعة بالبلل محاولين نسيان ما هم فيه من هم وكرب لفترة من الوقت، ولكن الراحة كانت معدومة في هذا القارب. وكأن الزكائب والصناديق قد أبت إلا أن تقض علينا مضاجعنا، وألا تمنحنا من الأوضاع سوى ما يزيد من ألم أجسامها التي تتلمس جاهدة وضع مريحا يخفف عنها بعض ما نالها من تعب ووصب. فكثيرا ما كان يتخيل الواحد منا في لحظة من اللحظات أنه قد وجد وضعا مريحا لجسمه وأعصابه، ولكن سرعان ما يتبين أنه قد وقع على ما يحطم العظام وتئن منه العضلات.

كانت أولى ليالينا في القارب ليلة شاقة مضنية لنا جميعاً إلى حد بعيد، فلم يكد ينشق الفجر حتى استقبلناه بقلوب مفعمة بالحبور، وأخذنا من فورنا بعد ما يصلح لوجبة فطور ساخنة.

اعتمدت في تسجيل قصة هذه الرحلة إلى "جورجيا الجنوبية" على المذكرات القصيرة القليلة التي كنت أدونها يوميا. على أن هذه المذكرات كانت عادة لا تتعلق بغير الأمور الواقعية الأبعاد، وموضعنا في البحر، ودرجة حرارة الجو وما إلى ذلك. أما الأحداث الأخرى، أحداث تلك الأيام الماضية فقد وعتها الذاكرة بصورة لا تمحى ولا تنسى. مخرت شمالاً طيلة اليومين الأولين طمعا في الوصول إلى منطقة يكون الجوفيها أكثر دفئاً، أو بتعبير أصح أقل برودة. وكان هناك غرض آخر وهو تجنب أي كتل جليدية قد تكون متصلة الامتداد وراء اللجة الكبرى من المحيط، فغني عن القول إننا كنا بحاجة إلى كل ما يمكن الاستفادة منه من الرياح المتعالية عن سطح البحر ونحن نخر فوق دائرة المحيط الكبرى، بيد أنه كان علينا في الوقت نفسه أن نكون على حذر مما قد يعترضنا من ممرات ومسالك ثلجية، ولقد عانينا الأمرين طيلة الرحلة،

ونحن في مأوانا الضيق، من برودة الجو، وتقلص عضلاتنا، وما أصابنا من البلل نتيجة رشاش الماء المتواصل. فكم كافحنا البحار والرياح، وكم جاهدنا في نفس الوقت يوما بعد يوم، للاحتفاظ بحيويتنا ولنبقى على قيد الحياة، وكم من مرة أحاقت بنا الأخطار والأهوال، ولم يشد من عزائمنا ويمسك علينا تجلدنا سوى علمنا بأننا سائرون قدما نحو الأرض التي ننشد الوصول إليها. وإن يكن قد مرت بنا أيام وليال اضطررنا فيها إلى الميل بحيزوم القارب في اتجاه مضاد للريح، وهو يضطرب فوق رؤوس الأمواج البيضاء التي أثارتها الزوابع العاصفة والأعاصير العاتية، وقد شخصت منا العيون، تعجبا لا خوفا، لمنظر تلك الآكام المائية، تقذفها الطبيعة هنا وهناك وهي تدل بقوتها وتتيه بجبروتها.

وما كان أعمق تلك الوديان التي كنا نهبط إليها عندما تنحسر الأمواج، وما كان أعلى تلك التلال التي كنا نرتفع إلى قممها لحظات قصيرة فوق رءوس الأمواج الجبارة المتمردة. لقد كانت الزوابع تتلاحق حتى ما تكاد ينقطع تدفقها. وما كان أصغر قاربنا وسط تلك البحار الواسعة المترامية الأكناف، حتى إن أشرعته كثيرا ما كانت تخفق وئيدة وسط ما يعرض من الهدوء بين زبد موجتين من الأمواج، ثم لا تلبث أن ترتفع فوق ذروة موجة أخرى، فتتلقى الزوبعة الجامحة في أشد أطوارها قسوة وعنفا، حيث يتناثر من حولنا زيد الأمواج المتكسرة ناصعا كالعين المنفوش، على أنه كانت لنا أوقات لم نتمالك فيها أنفسنا من الضحك. صحيح كانت نادرة.

ولكننا نعمنا بالضحك فيها ما وسعنا الضحك. عندما كانت تأبى علينا شفاهنا المتشققة، وأفواهنا المتورمة، أن نبدي ما ينم عن علائم المرح الخارجية الملموسة، فلم نكن نغفل عن النكتة الطريفة البدائية. فروح الفكاهة في الرجل من السهل جداً أن يثيرها ما حل بجاره أو زميله من المنغصات البسيطة، ولا أنسى "وورسلى" وهو يحاول عبثا في إحدى المناسبات وضع (قرص الألومنيوم المتوهج) فوق موقد (البريموس) وكان قد وقع من شدة تأرجح القارب، فالتقطه بأصابعه المتجمدة من شدة البرد فسقط منه، ثم عاد فالتقطه وهو يقلبه بين يديه بخفة وحذر كما لو كان غلالة رقيقة

مما تلبسه السيدات. لقد ضحكنا يومئذ، أو على الأصح قهقهنا ضحكا.

هبت الريح علينا في يومنا الثالث بالبحر من الناحية الشمالية الغربية شديدة، ولم تلبث أن تحولت صرصراً عاتية. على أن مياه البحر المتضخمة، سرعان ما اكتشفت موضع الضعف من سقف قاربنا، وتوالت لطمات الماء بصورة متواصلة، ثم امتدت إلى الجزء المصنوع من أغطية الصناديق ومن الزحافات، وتجمعت المياه فوق المشمع فتراخي تحت ثقلها. ثم أخذت نقاط ثلجية تتساقط فوق القارب من مقدمته إلى مؤخرته، وهي تختلف كل الاختلاف عن الرشاش المندفع. وكانت المسامير التي انتزعها النجار من الصناديق في جزيرة "اليفانت"؛ لتثبيت الألواح التي صنع منها السقف قصيرة لا تفي بالغرض منها على الوجه الأكمل، ولكننا لم نأل جهداً في تثبيته وتقويته على الرغم من أن ما لدينا من الوسائل لذلك كانت محدودة للغاية، وظلت المياه تتسرب إلى القارب من جهات مختلفة لاتقل عن الاثنتي عشرة عداً. وقد اقتضى الأمر تصليب السقف في عدة مواضع، بيد أننا لم نستطع – على كثرة ما بذلنا من جهود– منع ما بالقارب من مؤن وأدوات من البلل.

والواقع أن المياه المتدفقة كالجداول الصغيرة من خلال مشمع السقف كانت أشد بلاء علينا مما كان يفاجئنا به رشاش ماء البحر. وكنا نتمدد أثناء نوبات المراقبة تحت مقاعد التجديف، محاولة منا لتجنب تساقط المياه فوقنا، ولكن عبثا حاولنا، فلم يكن بالقارب موضع خال من البلل، وفي النهاية لم نجد بدا من تغطية رؤوسنا بمعاطفنا الواقية من المطر، وصبرنا على ما يبطل فوقنا من الماء المتدفق من كل مكان. فلم نكن نكف عن تفريغ الماء الذي تجمع داخل القارب في البحر بالدلاء، وكان ذلك ضمن عمل الرجال أثناء المراقبة، والواقع أننا لم ننعم أبداً بشيء من الراحة. فحركة القارب المتواصلة جعلت مسألة الراحة ضربا من المحال، أضف إلى ذلك ما كنا نعانيه من وطأة البرد وتورم أطرافنا واستبداد القلق بنا، فكنا إذا تحركنا بالنهار في القارب، تحركنا على أيدينا وركبنا معا تحت المشمع ونحن في شبه ظلام الليل، فما إن تحين الساعة السادسة مساء حتى تكون العتمة قد اكتنفتنا تماماً، ولم يكن في استطاعتنا أن

يتبين أحدنا الآخر تحت مقاعد التجديف حتى الساعة السابعة نهارا. صحيح كان لدينا بعض قطع من الشمع، ولكننا كنا نحرص عليها بكل عناية للاستضاءة بها في أوقات تناول الطعام. على أنه كان بالقارب موضع واحد يتمتع بنصيب لا بأس به من الجفاف، وذلك تحت ظهره الحقيق الأصلي المتين، عند مقدمته، حيث احتفظنا فيه بذخيرتنا من البسكوت لنقيه مضرة الماء المالح، وإن كنت أشك في أن أحدا منا خلص فيه من طعم الماء المالح طيلة الرحلة.

ولولا ما كنا نقاسيه في كل حركة بالقارب جيئة وذهاباً من أوجاع وآلام جسمانية، لكان لتحركنا جانبه الفكاهي الهزلي. فقد كان علينا أن نزحف تحت مقاعد المجدفين كلما أردنا الانتقال من موضع إلى آخر من القارب، حتى آلمتنا ركبنا ألما شديداً. وكان على كلما حان وقت استبدال نوبة المراقبة أن أوجه كل واحد منهم إلى مكانه، وإلى طريق الوصول إليه مناديا إياه باسمه، فلو أنهم زحفوا معا وفي وقت واحد تحت مقاعد التجديف لعمت الفوضى من جراء اصطدام بعضهم ببعض فيصيبهم بعض ما يكرهون من الأذى. ثم كان لابد أيضاً من العناية بنظافة القارب ومراعاة النظام فيه، وهما من الأمور التي لها اعتبارها وأهميتها. أما نظام فترات التناوب والمراقبة فكانت أربع ساعات للعمل ومثلها للراحة على التعاقب والترتيب. ويشترك في كل نوبة ثلاثة من الرجال، واحد لحبال الدفة، والثاني للشراع، والثالث لتفريغ المياه التي تتجمع في القارب بكل ما يستطيع من همة ونشاط، وكنا أحياناً –متى انخفض مستوى الماء المتسرب إلى القارب إلى درجة معقولة– نلجأ إلى استعمال المضخة في نزح الماء، وهي مضخة مجدية صالحة كان قد صنعها "هيرلي" من بقايا أخشاب الصندوق المنكسر الذي كان يغلف بوصلة سفينتنا المتحطمة، إلا أن طاقتها لم تكن شيئاً مذكورة، وكان في مقدور البحار الموكل إليه أمر العناية بالشراع أن ينزح الماء بالمضخة من القارب إلى قدر الطهو الكبير، حتى إذا امتلأ رفعه وألقى ما به في اليم، وكنا إلى جانب هذا قد ابتكرنا طريقة تلقي بها المضخة ما تنزحه من الماء في البحر مباشرة، عن طريق ثقب في الحافة العليا من جانب القارب، بيد أننا اضطررنا إلى سد

النقب في مرحلة مبكرة من الرحلة نظرا لتسرب ماء البحر إلى القارب منه كلما تأرجح وتمايل فوق العباب.

وبينما كان البحارة الذين حل موعد نوبتهم في الحراسة يرعدون من برودة الجو ورشاش الماء المتهاطل، يهرع أولئك الذين انتهت نوبتهم بسرعة البرق إلى أكياس النوم التي أخلاها زملاؤهم، محاولة منهم في الاستمتاع بشيء من الدفء المتولد من أجسام من احتلوها قبلهم. وحتى هذا القدر اليسير من الراحة لم يتوفر لنا عند الانتهاء من نوبة الحراسة إلا فيما ندر. فقد كان إلزاما علينا أن ننقل الأحجار الضخمة –التي حملناها معنا في القارب لحفظ توازنه– من موضع إلى موضع، بصورة متواصلة لنتمكن من تنظيف القارب وإخلاء الطريق أمام المضخة لنزح الماء. وكم من مرة تعطلت فيها المضخة، وسدت فوهتها وقناتها نتيجة الشعر المتساقط من أكياس النوم الأربعة، ومن ريش الطيور المبطنة به معاطفنا الخارجية، كذلك تساقط الشعر بكثرة من جلود الوعول الأربعة لكثرة ما أصابها من البلل.

أما الأحجار الضخمة فكان نقلها من مكان إلى مكان من أشق الأمور وأكثرها إجهادا، حتى أصبحنا نعرف كل واحد منها بمجرد رؤيتها أو لمسها، وإني لا أزال أحتفظ في ذاكرتي حتى اليوم بمعالمها وخصائص زوايا كل منها، ولعلها من النوع الذي ربما استرعى نظر عالم من علماء الجيولوجيا، وأثار الشيء الكثير عن اهتمامه من الناحية العلمية في ظروف أكثر ملاءمة، وهي كأثقال لحفظ توازن القارب، كانت جمة النفع، وأما من حيث هي أثقال تحرك من مكان إلى مكان في حيز ضيق لا يكاد يتسع لحركة أعضاء الجسم، فكانت من أشق الأمور وأكثرها إجهادا لعضلات أجسامنا المنهوكة القوي.

ومن مصائبنا التي تستحق الذكر أيضاً التهاب جلد سيقاننا نتيجة بلل ثيابنا التي لم نخلعها عن أجسامنا منذ ارتديناها من سبعة أشهر خلت، فأدى طول الاحتكاك إلى هذه المضايقة. ولم يكن لدينا في صندوق الإسعاف سوى أنبوبة واحدة من كريم فازلين لا يكفي ما فيها التخفيف ما نعانيه جميعاً من الألم لقلته. ومما زاد

الطين بلة أن لسعة الماء المالح كانت تضاعف الالتهاب وتهيجه، حتى لقد خيل إلينا في ذلك الحين أننا لم نذق للنوم طعماً. ولكن الواقع هو أننا متى عهدنا إلى النوم في مضاجعنا غير المريحة، ينغص علينا تلك الراحة الهزيلة بعض ما ينتابنا من ألم جديد مستحدث، أو نداء عاجل لبذل مزيد من الجهود، ومما زاد من نصيبي في هذه المتاعب والمنغصات بوجه عام عودة آلام عرق النسا. وقد كان أول عهدي بها في الأصل، من عدة شهور خلت بينما كنت أتنقل فوق كتل الجليد.

أما وجبات الطعام فكنا نحرص أشد الحرص على تناولها بانتظام في أوقات محددة، نظرا لأن ظروف الرحلة القاسية كانت تستنفد الشيء الكثير من حيويتنا بصورة متواصلة متزايدة، فكنا نتناول في الساعة الثامنة صباحاً فطوراً مكونا من مقدار كوز من حساء البوفرل المركزة، وبسكويتين وبعض قطع من السكر. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر نتناول غذاء يحتوي على مكعبات من البوفرل نأكلها نيئة، وكوز من اللبن الساخن لكل فرد، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر نكرر ما تناولناه في الغداء. وفي أثناء الليل كنا نتناول شرابا ساخنا، وهو في الأغلب الأعم من اللبن، كانت هذه الوجبات بمثابة أشعة النور المشرقة في حياتنا، خلال تلك الأيام الباردة العاصفة، الشعور بالدفء والارتياح المتولد من المأكل والمشرب جعلتنا جميعاً نستبشر بالخير ونتفاءل بالتوفيق.

وكان لدينا صفيحتان من الشمار[1] كنا ندخرهما لحين مساس الحاجة. بيد أننا احتجنا لواحدة منهما لتحويلها إلى سراج يضاء بزيت الوقود فيعزز ما لدينا من الشمع، فأفرغنا إحدى الصفحتين من المادة الصمغية التي تحتوي عليها، وقطعنا شريطة من المشمع اتخذنا منها ذبالة ثم ملأنا الصفيحة بالزيت، فتم لنا ما أردنا، وأصبح لنا سراج يشع مقدار من الضوء لا بأس به، وهو وإن أطفأته الرياح بسهولة كلما هبت عليه، إلا أنه كان ذا نفع عظم، وخير عون لنا دون أن نخشى نفاد الوقود،

---

[1] الشمر والشمار (عن ابن البيطار) هوالمعروف في مصر والشام بالرازيانج (نبات من الفصيلة الخيمية).

إذ كان لدينا ستة جالونات ونصف من البنزين. وفي يومنا الرابع في البحر هبت علينا رياح جنوبية غربية هوجاء، اضطررنا معها إلى الاستدارة بالقارب، وجعل مقدمته في مواجهة الرياح والكف عن الحركة، ولو أنني كنت أفضل في الواقع المخور أمام الرياح، ولكن البحر كان طاغيا عاليا إلى حد يخشى معه من جنوح القارب وغرقه. ضايقنا هذا التأخير، إذ كنا حتى ذاك الحين نقطع نحو ستين أو سبعين ميلاً في اليوم، ولم يكن هذا بالهين اليسير نظراً لمساحة أشرعتنا المحدودة. لبثنا على هذا الوضع، بعد أن حولنا القارب إلى اتجاه مضاد، وطوينا جانبا من شراعنا الرئيسي المزدوج بالمقدمة، منتظرين انتهاء العاصفة.

وفي أثناء عصر ذلك اليوم شاهدنا بعض الشظايا طافية فوق الماء، ولعلها كانت بقايا حطام سفينة عاثرة الحظ عجزت عن الصمود أمام العواصف التي كثيرا ما تهب شديدة عاتية فوق المنطقة الواقعة إلى جنوب رأس هورن. لم تتحسن حالة الجو، وازدادت العاصفة شدة في اليوم الخامس إلى حد لم نجد معه بدا من طي الشراع الرئيسي المزدوج، والاستعاضة عنه بقلاع المؤخرة الأصغر. وألقينا في البحر هلبا ليحفظ رأس القارب مرتفعا فوق البحر. وكان هذا الهلب عبارة عن حقيبة من المشمع مثلثة الزوايا شدت إلى طرف الحبل المثبت في مقدمة القارب. ومن ثم ترك يسبح في الماء من ناحية المقدمة، وكان القارب من الارتفاع بحيث يتلقى صدمة الرياح، فانحرف أمامها وفي اتجاه هبوبها، بينما كان الهلب يجذب رأسه ليكون مواجها لها.

وبدا لنا ألف مرة بأنه لا مفر للقارب من الغرق، ولكن القارب صمد ونجا. كان مولد هذه العاصفة الجنوبية الغربية في سماء القارة القطبية الجنوبية وقد هبطت بدرجة الحرارة إلى ما يقرب من مستوى الصفر، وكان رشاش الماء يتجمد فوق القارب، فكسا مقدمته وجانبيه وسقفه درعا كثيفا من الجليد نجم عن كثرة تراكمه نقص ظاهر في طاقة طفوه، فكان في هذا الوضع خطرا جديدا أضيف إلى ما يحف بنا من الأخطار الأخرى. على أنه كان لهذا الوضع ميزة بارزة من ناحية أخرى وهي كف الماء عن الانهمار فوقنا، والتسرب إلينا من ثنايا المشمع، كما حدت برودة الجو من سرعة

رشاش الماء فصار ينحدر إلى جوف القارب في ناحية مؤخرته بطيئا متمهلا. وبديهي أننا لم نكن نسمح للثلج أن يتراكم إلى أبعد من مستوى معين فشرعنا تزحف حول السقف متناوبين تحطيمه، وإزالة شطر منه بما لدينا من الآلات التي تصلح لذلك.

وعندما سطع ضوء النهار في اليوم السادس من رحلتنا، وجدنا أن القارب قد فقد مرونته. فلم يكن يرتفع مع قدوم الأمواج، وتحققنا من أنه ينتقل الثلوج التي تراكمت داخله وفوقه أثناء الليل بصورة ملحوظة قد أصبح وكأنه إلى قطعة من الخشب أقرب منه إلى سفينة. كان الموقف يتطلب معالجته على وجه السرعة، عدنا أول كل شيء إلى المجاديف الاحتياطية وكانت قد تغلفت بالثلوج أثناء الليل، والتصقت متجمدة بجانبي القارب، فألقينا بها في اليم اكتفاء بمجدافين اثنين للاستعمال عند الاقتراب من الشواطئ، وألقينا إلى اليم كذلك بزوج من أكياس النوم المتخذة من الفراء فقد كانا مشبعين بالماء إلى حد كبير، حتى أصبحت زنة كل منهما لا تقل عن أربعين رطلا أوقريبا من ذلك، وكانا قد تجمدا وتصلبا تماما أثناء الليل. وبما أن نوبة الحراسة كان يقوم بها ثلاثة رجال في كل فترة فقد كان من الأوفق لهم بعد الفراغ من نوبتهم أن يجدوا أكياس النوم – رغم مما بها من البلل– دافئة من حرارة أجسام من احتلوها قبلهم وأوشكوا على إخلائها، بدلا من إذابة ما على الأكياس التي لم تحتل من جليد، بحرارة أجسادهم المقرورة. وعلى هذا لم يبق لنا سوى أربعة أكياس، ثلاثة منها للاستعمال المستمر، والرابع للطوارئ في حالة اعتلال أحد الرجال بصورة مستديمة. خفف إنقاص الوزن ما ناء به القارب من الثقل إلى حد ما، أما الشطر الآخر من العملية فقد كفله ما بذلناه من جهد ونشاط في كشط بعض طبقات الجليد. وكنا نتوخى منتهى الحذر ونحن نزحف فوق السقف لإزالة ما عليه من الجليد، ونحن لا نجرؤ على استعمال الفأس أوالمدية خشية تدهور "المشمع، المتجمد، ولكننا وفقنا على الرغم من كل هذا إلى إزالة جانب كبير مما غشيه من الثلوج تدريجياً، وما إن فرغنا من هذه العملية حتى طفر "جيمز كيرد" ليتلقى الأمواج التي لا ينقطع لها سيل، كما لو كان قد بعث من جديد.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحا هبط القارب فجأة بين فجوات الأمواج، وأنبت الحبل، وراح في الماء ومعه الهلب. فأصبح الموقف جد خطير. وانحرف القارب إلى جهة الريح فلم يعد لنا أمل في انتشال الهلب، الذي كان أداتنا الوحيدة للاحتفاظ برأس القارب مرتفعا فوق الغمر دون حاجة إلى المجازفة بنشر القلع في أثناء هبوب العاصفة.

وبينما كان القارب يتقلب بعنف بين خوات الأمواج عكفنا على سقفه نحطم ما تراكم فوقه من الجليد حتى أزلنا معظمه، ثم نشرنا القلع بعد ذلك، ولم يكن الأمر بالهين اليسير لتصلبه من الجليد، وكأنه كان يحتج على استخدامه في مثل هذه الظروف. على أن قاربنا الصغير ما لبث بعد اصطراعه مع الأنواء ومقاومتها أن تحول إلى مواجهة الريح مرة ثانية، فتنفسنا الصعداء، على أن البرد الشديد كان قد عضنا بنا به فأصابنا منه عنت شديد ظهرت آثاره على أيدينا وأصابعنا في صورة تسلخ والتهابات لا يلبث الجلد أن ينفجر بعدها فيلحقنا ضرر بالغ من شدة البرد.

وسوف أحمل فوق يدي اليسرى، طوال حياتي، ندبة من تلك الندوب لنفخة من عضة البرد انفجرت بعد أن التهب الجلد التهاباً شديداً.

استطعنا الاحتفاظ بالقارب طيلة ذلك اليوم في الوضع المواجه للريح متحملين في سبيل ذلك كثيرا من المضايقة التي بلغت حد الألم. وكان القارب لا ينفك يتلاطم فوق الأمواج صعودا وهبوطا بصورة متواصلة تحت سماء قائمة متوعدة، فلم يمتد بنا الفكر إلى أبعد ما يكتنفنا من المطالب الضرورية للساعة التي نعيش فيها، إذ كانت كل خلجة من خلجات البحر بمثابة عدو يجب التيقظ له ومداراته فكنا نأكل وجباتنا الهزيلة، ونعالج ما بأيدينا وأصابعنا من التهابات ونفاخات. ونحن نرجوأن يأتينا الغد بجو أقل أنواء وأهدأ حالاً.

هبط الليل مبكرا وخفف من كربنا ما لاحظناه من تحسن في حالة الجو كلما تقدمت بنا سدفة الظلمة، وتصرمت ساعاته المتباطئة. ففترت حدة الرياح وقلت

فترات سقوط الثلوج وسكن البحر بعض السكون، حتى إنه حينما طلع علينا نهار اليوم السابع لم يكن هبوب الريح بالشيء المذكور ونشرنا الجزء المطوي من الشراع وولينا وجهنا صوب "جورجيا الجنوبية" من جديد، وخرجت الشمس من خدرها مشرقة واضحة، فعمد "وورسلي" من توه إلى قياس خط الطول، ووددنا لو استمر إشراق الشمس إلى ساعة الظهر، كي يتسنى لنا قياس خط العرض، فقد مضى على وجودنا في البحر ستة أيام دون أن تتمكن من تحديد موقعنا إلا حدساً وافتراضاً، وهو ما لا يمكن الاعتماد عليه بصورة قاطعة. ولابد أن منظر القارب في ذلك كان محببا، إذ راح جميع الرجال يتشمسون ويستمتعون بالأشعة الدافئة.

وقد علقنا على الصاري أكياس النوم، وبسطنا جواربنا، وجميع ما يحتاج إلى التجفيف من المتاع والأدوات فوق ظهر القارب في الشمس، وكانت بعض الثلوج المتراكمة فوق القارب وحوله قد بدأت في الذوبان منذ ساعة مبكرة من الصباح، بعد أن فترت حدة العاصفة، وظهرت فوق ظهر القارب بعض الرقع الجافة، وهرعت إلينا الدلافين تدور حول القارب، وحمام رأس هورن تحوم فرقنا على ارتفاع بضعة أقدام بريشها الأبيض والأسود.

وتبدو هذه الحمائم ميالة للتودد على نقيض البجعة الكثيرة الدوران. وكانت هذه الحمائم تبدو لنا قائمة اللون أثناء العاصفة، وهي تحوم فوق رؤوسنا وترسل هديرها الحزين كما لوكانت ترثي لنا لما نلاقيه من عنت وبلاء شديد. أما الحواصل[1]. وهي من الفصيلة السوداء أو القاتمة، فكانت تبدو وهي تراقبنا بعيونها الحادة اللامعة البراقة غير مكترثة بصراعنا، وما نبذله من جهد جيد لنبقى فوق سطح البحر الثائر المتلاطم الأمواج. وإلى جانب حمائم رأس هورن، كانت تمرق فوقنا مروق السهم في الفينة بعد الفينة، إحدى طير النوء. ثم كان هناك أيضاً عصفورة من نوع صغير الحجم، لا أعرف له اسما ولا للفصيلة التي ينتمي إليها، ولكنها كانت دائبة الحركة

[1] الحواصل هي التي تعرف في مصر بالبجع، طير ماي يتبع السفن الواحد منها حوصل وهوصنفان أسود وأبيض. ويعرف كذلك بجمل الماء.

كثيرة الدوران لا يتفق منظرها مع طبيعة البيئة المحيطة بنا وبها. وكان وجودها يضايقني، وهي تكاد لا يكون لها ذنب أصلا. وكانت تحلق هنا وهناك كأنها في حيرة ودهشة أو كأنها تبحث عن هذا العضو المفقود (ذيلها). وكثيراً ما كنت أجد نفسي متمنيا لها العثور على ذيلها حتى تقلع عن هذا التحويم السخيف.

نعمنا بمتعة الدفء الذي غمرتنا به شمس ذلك اليوم. وإذا فالحياة ليست متاعب كلها ونصبا. فقد شعرنا في ذلك اليوم بأننا ماضون في طريقنا مضيا. وها هي ذي ملابسنا وأدواتنا في طريقها إلى الجفاف. وها نحن قد تهيأ لنا من الظروف ما يسمح بتناول وجبة ساخنة في شيء من الراحة، صحيح أن البحر لا يزال ماؤه مرتفعا ثقيلا ولكنه لا ينكسر ولا يتقطع. وها هو ذا القارب يسبح فوقه في سهولة ويسر.

وعندما حانت ساعة الظهر وقف "وورسلى" فوق حافة القارب في الناحية العليا منه وأمسك الصاري بإحدى يديه ليحتفظ بتوازنه، فاستطاع أن يرصد الشمس. وعلمنا منه أننا قد قطعنا مسافة تزيد على ثلاثمائة وثمانين ميلا، وبذلك نكون قد أوشكنا على انتصاف الطريق إلى "جورجيا الجنوبية". وبدا الأمل كبيراً في احتمال الوصول إليها.

تحولت الريح خلال فترة العصر إلى نسيم قوي، فانطلق القارب يتقدم بنا تقدما مرضيا. ولم أكن حتى الآن، قبل أن يغمرنا ضوء الشمس، قد أدركت ضآلة حجم قاربنا "جيمز كيرد" حق الإدراك. لقد كان للنور وللدفء بعض التأثير في نفوسنا، وبعض التلميح إلى أيام كنا فيها أكثر سعادة، فأهاج ذلك ذكريات لرحلات سابقة كنا نقف فيها فوق ظهور سفن صلبة متينة، وتحت تصرفنا مقادير غير محدودة من الطعام، ولنا غرف مريحة تشرح الصدور. أما الآن فها نحن نعتصم بقارب عتيق متصدع، فوق بحر خضم بعيد الأكتاف والأطراف، وقد كنا نهبط في الماء حينا حتى لتحجب أمواجه الصاخبة المتلاحقة عن أعيننا خط الأفق. أجل. كنا وحدنا، ذرة صغيرة فوق الغمر الفسيح العريض، المحيط المفتوح للجميع، والذي لا يرحم أحدا، المحيط المتوعد دائما أبداً، حتى حينما يبدو مستسلمة سلس القياد والمحيط الذي لا

تأخذه بالمستضعف شفقة ولا يعرف للرفق معنى! فكم من لحظة مرت بنا كنا نشعر فيها شعورا عميقا أمام هذه الأنواء المتراصة ضدنا بأننا لابد مغلوبون على أمرنا؟ وفي اللحظة الثانية يطفر القارب من جديد ويصمد أمام الموجة العاتية تتكسر على صدره وتتناثر رذاذ كما يتناثر رذاذ مساقط المياه عند أقدامها شفافة في شتى الألوان والأطياف، فينبعث في نفوسنا بصيص من الأمل ويغمرنا شعور بالثقة جديد.

وكانت بندقيتي ذات الماسورة المزدوجة موضوعة مع مقدار من الخرطوش، في مكان أمين من القارب، لاستعمالها في حالة الطوارئ إذا ما نفد طعامنا واحتجنا إلى شيء من اللحوم، ولكن نفوسنا لم يكن ليطيب لها الفتك بجيراننا الصغار، حمائم "رأس هورن"، حتى للحصول على لحم طازج ولو مسنا الضر. وقد نكون إلى صيد الحوصل أميل، ولكن هذا الطائر، ملك البحور المتجول كان يثير في نفوسنا شيئاً من الشعور الذي غمر "الملاح القديم"، ولكن بعد فوات الفرصة، وذلك بقيت البندقية مطوية في مكانها بين المؤن وأكياس النوم في موضعها الضيق تحت السقف المتشقق، وراحت الطيور تتبع قاربنا آمنة مطمئنة. مرت الأيام الثلاثة المتعاقبة، الثامن والتاسع والعاشر من أيام الرحلة دون أن يكون لها من المعالم مايستحق الذكر سوى النزر اليسير، على أن الرياح لم تفتأ تهب علينا فيها شديدة مما جعل جهودها لتسيير القارب متواصلة ، ولكننا كنا بالرغم من ذلك كله نتقدم دائما نحو هدفنا، ولم يظهر في أفقنا شيء من الجبال الثلجية، فأيقنا أننا قد أصبحنا خارج منطقة حقول الثلج، ولكن ما من يوم يمر بنا إلا وفي أعقابه سلسلة من المتاعب الصغيرة التي يحملها إلينا. بيد أننا كنا نجد في الغذاء وفي الأمل المتزايد ما يعوضنا عنها خيرا، فقد شعرنا بأن التوفيق سوف يكون حليفنا، كانت كفة الظروف المعاكسة شديدة الرجحان، ولكننا كنا على الرغم من ذلك كله بسبيل النجاح. كان البرد قد نالنا منه بلاء شديد، ودرجة حرارة الطقس وإن تكن قد أخذت ترتفع قليلا، إلا أن حيويتنا كانت آخذة في التدهور بسبب قلة التغذية، والتعرض المستمر للطبيعة القاسية، ولعدم وجود الحيز الكفيل بتمهيد المقعدو المضجع المريح ليلا أو نهاراً، لذلك وجدت من الضروري توزيع مقدار من

اللبن الساخن على الرجال أثناء الليل لينعشهم ويساعدهم على الاحتفاظ بحيوتهم حتى انبثاق الفجر. ومعنى هذا إشعال الموقد (بريموس) في العتمة. وهو أمر يتطلب استهلاك عيدان النقاب العزيز الغالي لقلة ما كنا نمتلك منه. فقد كان النظام المتبع الاكتفاء بعود ثقاب واحد لإشعال الموقد، ولم يكن لدينا سراج للبوصلة، فكنا في الأيام الأولى من الرحلة نشعل عود ثقاب كلما رغبنا التحقق من الطريق أثناء الليل، ولكن سرعان ما اضطررنا إلى أخذ أنفسنا بالاقتصاد الصارم في هذه الناحية فتحاشينا استعمال الثقاب ليلا، ولا غرو، فما كان لدينا سوى علبة واحدة من الثقاب مصنوعة من القصدير بصورة تكفل عدم تسرب الماء إليها، وكنت قد احتفظت في جيب من جيوبي بعدسة من تلسكوب[1] لاستخدامها في الأيام المشمسة. ولكنها كانت عديمة الجدوى أثناء الرحلة إذ لم تشرق علينا الشمس إلا ما ندر. وفي ذات ليله تحطمت زجاجة البوصلة فعالجنا الكسور بشريط لاصق استخرجناه من صندوق الإسعاف.

ومن الذكريات التي تمر بخاطري لحوادث تلك الأيام، انصراف "كرين" للغناء، فقد كان دائم الغناء كلما قام بنوبته على الدفة، إلا أن أحدا منا لم يستطع فهم الأغنية أو التعرف عليها. فقد كانت خالية من النغم، مملة كتراتيل رهبان البوذيين أثناء صلاتهم، ولكنها بالرغم من ذلك كله كانت منعشة، مروحة عن النفس، وأحياناً في بعض لحظات التجلي كان "كرين" يحاول غناء "ارتداء اللباس الأخضر".

وفي الليلة العاشرة تقلصت عضلات "وورسلي" عقب نوبته على الدفة حتى عجز عن الوقوف منتصب القامة، فاضطررنا إلى جره من تحت مقاعد المجاديف وتدليك جسمه إلى أن استطاع أن يقف، وأن يأوي إلى كيس من أكياس النوم.

وفي اليوم الحادي عشر من وجودنا في البحر (الخامس من شهر مايو) هبت علينا عاصفة شمالية غربية، لم تلبث أن تحولت بعد العصر إلى الناحية الجنوبية الغربية.

---

[1] تلسكوب "منظار مكبر".

وكانت السماء متلبدة بالغيوم، ثم هبت علينا عواصف ثلجية شديدة عنيفة في الفينة بعد الفينة، مضيفة إلى ما نلاقيه من عنت البحر وسورة غضبه هما إلى هم، ووصبا إلى وصب. ولا أظن أننا ابتلينا ببحر أشد هياجا مما ابتلينا به حينئذ منذ بدء الرحلة، ولا بزوابع أشد عنفا. وبينما كنت أقوم على الدفة في منتصف الليل، وإذا بي ألمح فجأة في السماء خطاً صافياً بين الجنوب والجنوب الغربي. فأهبت بالرجال بأن السحب قد أخذت تنقشع، ولكنني ما لبثت أن أدركت في اللحظة التالية بأن الذي رأيت لم يكن تمزقا وتهتكا في السحب، وإنما زبد موجة عملاقة جبارة لم أصادف لها مثيلا طوال السنوات الست والعشرين التي ركبت فيها البحر وخبرته في جميع أطواره وتقلبانه. إنها كانت فورة من فوران الأعراق، طائشة جامحة، تختلف كل الاختلاف عن أمواج البحر المزبد، بلغت ما بلغت من الجبروت والعتو، تلك الأمواج التي ناصبتنا العداء طيلة تلك الأيام التي مرت بنا منذ بدء الرحلة. صحت في الرجال: " تماسكوا بحق الرحمن، إنها باطشة بنا" !! وأعقب ذلك لحظة ترقب وحيرة خلناها امتدت إلى ساعات طوال. وإذا بزبد البحر المتكسر قد أحاط بنا، وإذا بنا نشعر بالقارب يرفع ويقذف به إلى الأمام كما لو كان سدادة من الفلين، يتخبط بين الأذى الناصع المتمرد، وسط أمواج تتعذب وتشقى من فوران هذه الفوضى. ولكن أيا كان الأمر فقد صمد القارب طول الساعة، وبقي على سطح الماء، وإن يكن قد امتلأ به إلى نصفه وأخذ ينوء بثقله المصمت، وبعد أثر اللطمة الجبارة. بادرنا إلى نزح الماء بنشاط من يصطرع ليبقى على قيد الحياة، فلم نترك شيئاً يصلح لنزح الماء إلا اختطفناه، وما انقضت عشر دقائق على ذلك –ونحن في شك من مصيرنا– حتى شعرنا تحت أقدامنا بدبيب الحياة في صلب القارب من جديد. فطفر إلى سطح الماء مرة أخرى وكف عن تهديدنا، فقد كان يتمايل كالسكران مذهولا من هول الصدمة والمفاجأة. وضرعنا إلى الله بقلوب خاشعة أن يكفينا ملاقاة مثل هذه الموجة العاتية.

كانت الظروف المحيطة بنا في القارب قبل اليوم، أبعد من أن تكون مريحة بحال من الأحوال ولكنها الآن، بعد ما أصابنا من ذلك الطوفان أصبحت أشد مضايقة

وأسوأ مصيراً. ابتلت جميع أمتعتنا وأدواتنا مرة أخرى، وراح موقدنا يسبح في الماء أسفل القارب. كما تسرب ما بقي من ماء الوجبة السابقة إلى كل شيء في كل مكان. تمكننا بعد لأي، وبعد أن لقينا من وطأة البرد فوق ما نطيق، من إصلاح الموقد وإشعاله لتحضير شراب ساخن يبعث شيئاً من الحرارة في أجسادنا، وكان النجار يشكو من البرد والإعياء بنوع خاص، ولكنه أبدى الشيء الكثير المحمود من الجلد والروح الطيبة.

أما "فنسنت"، فكان قد كف عن العمل منذ أسبوع بسبب ما أصابه من إعياء. والحق أنني كنت في حيرة من أمر انهياره. فهو من ناحية البناء الجسمي يعتبر من أصلب رجال القارب عودا، وأشدهم فتوة، وهو بعد رجل في مقتبل العمر مكتمل الفتوة، زاول الملاحة في طائفة من سفن الصيد بحر الشمال، فهو جدير بتحمل الصعاب والثبات في وجه الشدائد أكثر مما يستطيع "ماكرثي" الذي لا يتمتع بمثل ما له من قوة، وهو على الرغم من هذا لا يرى إلا طيب النفس منشرح الصدر.

تحسنت حالة الجوفي اليوم التالي (السادس من مايو) فاستطعنا رؤية الشمس، واستطاع "وورسلي" أن يقوم بعملية الرصد، فعلمنا منه بأنا على مسافة مائة ميل من الركن الشمالي "لجورجيا الجنوبية"، وبذلك لم يكن يفصل بينها وبيننا سوى مسير يومين إن أسعفتنا رياح مواتية. يومين اثنين وتلوح بعدها أرض المعاد. وكنت أرجو ألا نصادف منذ اليوم ما يعوق مسيرنا، إذ أن ما معنا من الماء قد أخذ يتناقص مقداره بصورة مزعجة. وبما أن تناول شراب ساخن بالليل كان من أمس الضرورات؛ لذلك قررت تحديد حصة كل رجل من الماء لليوم الواحد بربع لتر تقريباً، فقد كانت قطع الثلج التي حملناها معنا قد تلاشت منذ أيام. لذلك كان جل اعتمادنا على الماء الذي أتينا به من جزيرة "إليفانت". بيد أن شعورنا بالظمأ كان قد تضاعف الآن، نظرا لأننا صرنا نرتوي من ماء العس الذي كان ماء البحر قد تسرب إليه أثناء شحن القارب عند بدء الرحلة.

استبد بنا الظمأ، ولكنني لم أجرؤ على زيادة حصة الماء خشية أن تصادفنا رياح

معاكسة تبعد بنا عن الجزيرة التي ننشد الوصول إليها، فتمتد الرحلة إلى عدة أيام أخر.

وغني عن القول أن نقص الماء أقسى ما يمكن أن يبتلى به المرء من حرمان يفرض عليه تحمله، ولقد عرفنا بالتجارب أثناء الشطر الأول من الرحلة أن ابتلال ملابسنا بالماء المالح وما يتناثر فوق وجوهنا من الرذاذ، ولكن كان لابد لي من التشدد في الأمر بحزم وصرامة، ورفض كل طلب الزيادة الحصة، أو السماح بصرف شيء من حصة الغد مقدما، استجابة لطلب بعض الرجال. ومضينا في القيام بالضروري من الأعمال في شيء من الفتور نتطلع في أمل للوصول إلى البر. وكنت قد غيرت خط السير، فلنا إلى الشرق لنضمن الوصول إلى بر الجزيرة، وهو أمر لم يكن ليتم لنا، لو أننا مررنا بالطرف الشمالي منها. وكان طريق السير، كما هو مرقوم على الخريطة للابحار بمقتضاه، يشير إلى نقطة للرسو تنحدر على الساحل بنحو ثلاثين ميلا. مر بنا ذلك اليوم، واليوم الذي يليه، وكأنهما كابوسان، فقد جفت حلوقنا، وتورمت ألسنتنا، وكانت الريح ما تزال تهب شديدة، والبحر متكاثر المياه بما يدعو إلى الحذر والانتباه في السير، وإن يكن الظمأ قد ألهانا عن التفكير في كل خطر من ناحية الأمواج. فلم يكن أحب إلينا ولا أبهج للنفس من تلك اللحظات التي كان يعطى فيها كل واحد منا كوب اللبن الساخن أثناء نوبة الحراسة الطويلة المريرة في جوف الليل. كانت الأمور أسوأ ما تكون في تلك الأيام، ولكن النهاية كانت قاب قوسين أوأدنى. وطلع علينا صباح اليوم الثامن من مايو مشحوناً بالسحب المتلبدة، قاتماً عاصفاً، وهطلت علينا فيه الثلوج القادمة من ناحية الشمال الغربي. فأخذنا نسرح البصر في الأمواج المترامية أمامنا علنا نلمح للأرض أثر، ولكننا لم نر شيئاً سوى ما اعتدنا رؤيته عدة أيام طوال. إلا أن شعورنا بأننا قد أصبحنا على مقربة من الهدف كان ينهض بعزائمنا ويبعث في النفوس بوارق الآمال.

وفي نحو الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم مررنا برقعة صغيرة من قش

البحر[1] وهي علامة سارة تدل على اقترابنا من البر، وبعد مضي ساعة من الزمن لمحنا غرابين من غربان البحر[2] جالسين فوق رقعة كثيفة من قش البحر، فعلمنا من ذلك أننا لم نعد نبعد عن الشاطئ بأكثر من عشرة أميال أوخمسة عشر ميلا على الأكثر. فغربان البحر دليل قاطع على دنونا من الشاطئ، مثلها في ذلك مثل الفنارات، لأنها لا تتوغل في البحر بعيدا عن الشاطئ أبداً. فأخذنا نسرح البحر أمامنا في لهفة مضاعفة، وما إن انتصفت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى كان ما كرثي، قد لمح خلال ثغرة في السحب صخور "جورجيا الجنوبية، السوداء، وكان هذا بعد انقضاء أربعة عشر يوما تماما على مغادرتنا جزيرة "إليفانت" ما أطيب تلك اللحظة! فقد شاع السرور في نفوسنا، وملأ جوانحنا، بالرغم مما كنا نشعر به من الظمأ الشديد والبرد، ومن الضعف والإعياء. لقد تم لنا الأمر الذي اضطلعنا به أوكاد، وقاربت الرحلة نهايتها.

وقفنا في مواجهة الشاطئ نبحث بأعيننا عن مكان ترسو فيه، وما هي إلا لحظات قصيرة حتى استطعنا تبين الحشائش والأعشاب بلونها الأخضر وهي تعلو الصخور العتيقة، التي ما تزال تلطمها الأمواج منذ الأزل، في صفوف كأنها رفوف متراصة. ورأينا أمامنا إلى الجنوب سربا من الشقراق الأعمى، فاستدللنا من وجوده على وجود شعاب بالشاطئ لم تبين على الخريطة التي معنا. وكانت الصخور متناثرة هنا وهناك قريباً من سطح الماء تتكسر عليها الأمواج الجبارة فيتطاير رذاذها في الفضاء بحنق وغضب إلى ارتفاع ثلاثين أوأربعين قدما.

وكان هذا الساحل الصخري يبدو شديد الانحدار إلى أعماق البحر، وكانت حاجتنا للماء والراحة قد بلغت منا مبلغ اليأس أو كادت، غير أن أي محاولة للنزول إلى البر في هذا المكان إنما تكون انتحاراً ، وكان الليل على وشك الهبوط وكانت حالة

[1]وهوعشب بحري من رتبة الألجا.

[2]هوغراب البحر ويقال له أيضاً قاق الماء.

الطقس تدل على أن الريح غير مواتية، فلم يكن بد من التريث والتذرع بالصبر حتى يطلع علينا الصباح فوقفنا جميعاً على الجانب الأيمن من القارب ليبتعد بنا إلى مسافة آمنة من الشاطئ. ثم حولنا صدر القارب إلى الناحية الغربية في مواجهة المياه المنحدرة المتلاطمة بالشاطئ، ومرت الساعات بطيئة ونحن في انتظار طلوع الفجر الذي كان يداعبنا الأمل بأنه سوف يكون بشير دخولنا في المرحلة الأخيرة من الرحلة.

كان الظمأ قد بلغ منا منتهاه، ونال وصب وعذاب شديد، حتى عزفت نفوسنا عن الطعام فما نكاد نتناول منه شيئاً أونستمرىء له طعما، وشعرنا بالبرد يخترق جسومنا الهزيلة الضعيفة. وفي الساعة الخامسة صباحا تحولت الريح إلى شمالية غربية، وسرعان ما تضاعفت حتى صارت زعزعا سيهوجا، لم يعرف لها أحد منا مثيلا على كثرة خبرته بركوب البحار وهبوب الأعاصير. وعلا ماء البحر، وتملكته ثورة من الغضب، فهاج وماج، وكنت تسمع للرياح زفزفة شديدة وهي تطيح بهامات الأمواج، وتمزقها بددا، حتى أصبح الفضاء الذي يلي سطح البحر مباشرة وكأنه بساط كثيف من الرذاذ، وكان قاربنا الصغير يهبط تارة في مثل الوديان، بين هبات الأمواج، ويرتفع تارة فوق رؤوسها الشامخة، حتى كادت تتفكك ألواحه من شدة ضغط الأنواء وهو يناضل نضال الأبطال على الرغم من تعثره، وكنا قد أدركنا أن الرياح والأمواج قد أخذت تدفع بنا نحو الشاطئ، ولكن لم يكن لنا من سبيل أو وسيلة للحيلولة دون هذا المصير. طلع علينا الفجر ، وانقضى الصباح دون أن نلمح للأرض أثرا، وما إن وافت الساعة الواحدة بعد الظهر، حتى لمحنا من خلال تصدع في الغام الذي أخذ ينزاح سريعاً رضام الجزيرة وجلاميدها الضخمة، فأدركنا أن موقفنا قد أصبح على جانب من الخطورة يبعث على اليأس. فالرياح تهب في مواجهة الشاطئ. وكنا نعلم من زفزفة الأذى وتكسره على جوانب الصخور الضخمة غير المنظورة، بأننا قد أخذنا نقترب، مدفوعين نحو الشاطئ، فأمرت بنشر الشراع الأساسي المزدوج أملا في أن تتمكن من الانحراف بالقارب لمواجهة الريح حتى لا تدفعنا من خلفنا، فترتطم بالصخور القائمة بيننا وبين الشاطئ، على ما في ذلك من مضاعفة الضغط على

القارب وتحميله فوق ما يطيق، فقد كان يتعثر متثاقلا في مخوره، وكانت المياه تتدفق فيه من كل جانب. فنسينا أمام هذا الخطر المحقق ما بنا من ظمأ. وأخذنا نعمل على الانسحاب بدون انقطاع، وننقل الأثقال من موضع إلى آخر من القارب حسب ما تقتضيه الظروف، وكان الشاطئ كلما وقعت عليه أبصارنا عرضة في لمحات خاطفة يبدو أكثر اقترابا. وكنت أعلم بأن جزيرة "أنيوكاو" تقع إلى الناحية الجنوبية من موضعنا. غير أن خريطتنا الصغيرة –على قلة وضوحها– كانت تشير إلى وجود سلسلة من الصخور قرب سطح الماء في الممر القائم بين الجزيرة والأراضي الداخلية. ولم أجرؤ على الثقة بها والاعتماد عليها. بيد أنه كان من الممكن إذا فشلت جميع الوسائل وانعدمت الحيلة أن نحاول كحل أخير أن نلجأ إلى الاعتصام بساحل الجزيرة في مواجهة الرياح. وانقضت فترة العصر ونحن نبحر محاذين للشاطئ، وقد أصم آذاننا أزيز الرياح وهزيم الرعد. وعندما اقترب المساء كنا لانزال على مسافة غير قصيرة من جزيرة "أنيوكاو" واستطعنا أن نلمح في أخريات الأصيل جبلا يشرف علينا وقد غطت قمته الثلوج فبدا ناصع البياض، وبدا أملنا في البقاء على قيد الحياة أثناء الليل هزيلا ضعيفا. بينما هذه الزوابع تعصف بنا، وهذا البحر لا ينفك يدفع بنا نحو الشاطئ وأكبر ظني أن معظمنا كان يشعر بأن النهاية قد أصبحت قاب قوسين أوأدنى، وفي الساعة السادسة مساء، أوبعد ذلك بقليل، حينها خيم الظلام، وبينما كان القارب يتخبط في الزبد الناجم عن انحسار الماء بعد تكسر الأمواج على صخور هذا الشاطئ الحديدي الوعر، وبدت الظروف أشد ما تكون سوءا، وإذا بها تتحول إلى نقيض ما كانت عليه تماما، ولطالما عجبت من ذلك الخط الرفيع، ذلك الصراط الحاد الذي يفصل بين النجاح والفشل، ومن ذلك التحول الفجائي الذي يطرأ على الظروف حينما تبدو الكوارث آتية لا ريب فيها، فيبدلها أمنا وسلاما، وإن تفاوتا في النسبة والمقدار. فقد تحولت عنا الرياح فجأة وأصبح لنا مطلق الحرية من جديد في الابتعاد عن الشاطئ بالقدر الذي يوائم ظروفنا، وما إن خفت حدة العاصفة حتى سقط من موضعه المسار الذي يثبت الصاري في قاعدته، ولابد من أنه كان على

وشك السقوط أثناء هبوط الزوبعة، ولو أنه فعل لانكسر الصاري في الحال ولما أنقذنا من الهلاك المحقق شيء أبداً، وخاصة لأن الحلقات الحديدية على جانبي القارب والتي كانت تشد إليها حبال الصاري لتثبيته، سبق أن اقتلعت من أماكنها عندما تراكم فوقها الجليد، ولم يتيسر لنا إحكام وضعها مثل الدقة التي كانت عليه من قبل. ولقد حمدنا الله على رحمته بنا إذ قدر للمسمار أن يظل في موضعه أثناء الزوبعة.

لبثنا في موقفنا، بعيداً عن الشاطئ مرة أخرى، وقد نال منا التعب والإعياء حتى كدنا لا نشعر بشيء أو نحس شيئاً. كان زادنا من الماء الصالح للشرب قد نفد منذ أمد غير قصير، بعد أن اقتسمنا آخر جرعة منه، وكانت لاتزيد على نصف لتر سكبناها في شاشة جئنا بها من صندوق الإسعاف لعزل ما خالطها من الشعر. والآن استبد بنا الظمأ بصورة أكثر شدة وقسوة شعرت معها بأنه لابد لنا من الرسو بالشاطئ في صبيحة اليوم التالي، والنزول إلى البر أيا كان الأمر، ومهما يكن مبلغ خطورة المجازفة.

وأخيراً عندما انبثق فجر اليوم التالي، العاشر من مايو، لم يكن للرياح أثر محسوس، وإن يكن البحر متكاثر المياه متعارض التيارات، فأخذنا نتقدم رويدا نحو الشاطئ. وفي نحو الساعة الثامنة صباحا هبت الرياح شمالية غربية مهددة قاربنا بلطمة جديدة. وكنا في أثناء ذلك قد لمحنا جونا، خيل إلى أنه لابد أن يكون خليج الملك هاكون. فقررت أن نرسو فيه. ومن ثم ولينا وجهنا صوب الخليج، مجدين السير قبل أن تدركنا الزوبعة، التي أخذت بوادرها في الظهور، وسرعان ماوجدنا أنفسنا بين صخور وعرة، تحف بنا من الجانبين. وفي نفس الوقت كانت هناك جبال ضخمة تنحدر نحو البحر، وقد كستها الثلوج. لم نجد فيها مكانا يصلح للإرساء، وكان البحر يقذف أمواجه على تلك الصخور غاضبة صاخبة، ويهجم على الشاطئ مزبدا. وفي نحو منتصف النهار لمحنا سلسلة من الصخور البارزة تراءت لنا وكأنها الأسنان المسودة قد اعترضت مدخل الخليج. أما داخل الخليج فكانت المياه تمتد هادئة نسبيا نحو ثمانية أميال أوتسعة حتى رأسه. وظهرت لنا ثغرة بين الصخور فأسرعنا نحوها، ولكن

الأقدار كانت قد أعدت لنا صدمة جديدة. فقد تحولت الرياح وهبت علينا من الشرق آتية من داخل الخليج، كنا نرى الطريق واضحة أمامنا من خلال الصخور ولكننا لم نستطع الاقتراب منها رأساً. تجلدنا وتذرعنا بالصبر طيلة عصر ذلك اليوم محولين مجرانا خمس مرات أمام هذه الرياح العاتية الشديدة، ولكن في المرة الأخيرة حالفنا التوفيق، واستطعنا في النهاية ولوج الخليج، حتى صرنا داخل مصبه الواسع الفسيح، كانت الشمس قد قاربت الغروب، وكان على مرمى البصر منا تجويف صغير في التلال الصخرية بالجانب الجنوبي من الخليج، قد انتشرت أمامه طائفة من الصخور كأنها قائمة على حراسته، فولينا وجهنا شطره، وأخذت مكاني عند مقدمة القارب مرشدا القائم على الدفة إلى الطريق، ونحن نمخر بين الأعشاب والقش متلمسين طريقنا بين الصخور، وبلغ المدخل من الضيق ما اضطررنا معه إلى سحب المجاديف إلينا، وتكاثر الماء حتى كاد يحجب الصخور والتجويف، ولكن ماهي إلا دقيقة أودقيقتان حتى كنا داخل التجويف وحملت القارب مع الظلام الذي بدأ يتكشف موجه ودفعت به إلى الشاطئ، فقفزت إليه من فوري وبيدي طرف الحبل، لأمنع القارب من التقهقر كثيرة مع الماء حين ارتداده إلى اللجة، وعندما عاد القارب مدفوعا إلى الشاطئ مع الموجة التالية قفز ثلاثة رجال إلى الشاطئ ومعهم طرف حبل آخر طويل. وفي الحال أمسكوا بالحبل القصير الذي كان معي بينما صعدت أنا بالحبل الآخر فوق بعض الصخور، وانزلقت قدمي فوق الصخور المبتلة، وأنا على ارتفاع عشرين قدما ولولا رحمة الله لما قدر لهذه القصة أن تختتم، فقد حالت إحدى الصخور البارزة دون سقوطي، وإن تكن قد سببت لي رضوضاً قاسياً، على أني بالرغم من ذلك كله استطعت عقد الحبل حول صخرة ضخمة، وما هي إلا طرفة عين حتى كنا جميعاً فوق الشاطئ سالمين آمنين. وفيما نحن كذلك إذ طرق آذاننا خرير كان أرق من نغمات الموسيقى، فتلفتنا حولنا فإذا جدول يجري بالمياه العذبة على مقربة منا حتى ليكاد يكون تحت أقدامنا مباشرة. فركعنا جميعاً من فورنا وأخذنا ننهل من ذلك السلسبيل العذب جرعات طويلة بعثت فينا حياة جديدة، في لحظة ما كان أروعها وأحلاها!

الموت الطنان

ترسا

تعتبر الحرب التي يشنها الإنسان على الحشرات في العادة، حربا غير شخصية، فلا حينما تفتك الحشرات بمحاصيلنا نعمد إلى إبادتها بالسوائل والمساحيق التي قد تكفل لنا ذلك. على أنه يحدث أحياناً أن تنكمش الحرب إلى معركة فردية شخصية مريرة، كما حدث لـ "ج. و. بيجل، أتكنز" الذي يكتب تحت اسم "ترسا"، وهواسم مستعار. ومن حسن حظ بيجل أتكنز أنه كتب له البقاء، بعد الحادث الذي وقع له. وما أكثر الذين قضوا نحبهم من لدغة أو عضة حشرة سامة. (والعناكب والعقارب، وتعرف فنية بفصيلة الأرخندا، تعتبر بموجب ما تواضع عليه العرف من بين الحشرات). وغني عن البيان أن آلافا من الناس قضوا نحبهم من عدوى الجراثيم التي تنقل إليهم من عضة بعوضة أوما يماثلها من الحشرات.

***

إن نحلة الشجر وهي من فصيلة الزنبور تعتبر على رأس قائمة الحشرات المؤذية العديدة التي تعيش في الجانب الشمالي الشرقي من الهند. وهي تتنقل في خشارم[١]كبيرة ضخمة وتتخذ خلياتها في الأشجار العالية. ومن عاداتها الانقضاض في آلاف مؤلفة على الضحية، لغير سبب ظاهر، وتطارده الآخر رمق من حياته، على عكس الزنبور الذي لا يلسع إلا متى تضايق واهتاج هياجا شديدا. وحدث ذات صباح مشمس، بينما كنت أسير، ممتطياً صهوة جوادي، فوق طريق مغبرة تسلكه عربات الجر والنقل. أن وجدت نفسي دون أي إنذار هدفا لعدوان فظيع. وفجأة

---

[١]جماعات النحل واحدها خشرم.

تكاثفت السماء من فوقي بجماعات النحل، وشعرت برعشة باردة كالثلج تسري في عمودي الفقري، فدفعت مهري سوفوفير إلى العدو. فقد بدا إلي أن الفرار هو الأمل الوحيد في السلامة والنجاة، ولكن سرعة سوفونير لم تجد شيئاً. فقد أسرعت خلفنا جميع النحل في عزم وإصرار. وراح سوفونير يقفز ويشب ويضرب الهواء برجليه الأماميتين، ويرفس برجليه الخلفيتين في جميع الجهات ليتخلص من النحل، ورحت أحاول وقاية وجاهي وأطرافي وأنا أبذل ما استطعت من جهد جهيد للاحتفاظ بمقعدي من صهوة المهر. وما هي إلا دقائق حتى اعترض طريقي ظبي غاضب نافر، وهو منعطف بأقصى سرعته حول مفرق من مفارق الطريق فرماني من فوق جوادي في التراب.

كانت المسافة بيني وبين أقرب موضع أمين أعتصم به، دون الميل طولا فشرعت أذرعها في عزم وإصرار لم أشعر بمثلهما من قبل طيلة حياتي، بيد أن خشارم النحل كانت قد انتشرت فوق جسمي كله، تغطيني من قلة الرأس إلى أخمص القدم. زاحفة في آلاف مؤلفة فوق كل جزء وعضو فتصيبني من لسعاتها آلام قاسية محضة لا تحتمل. وازدحمت تحت الحافة السفلي من قبعتي حتى أصبحت وكأنها خلية من النحل الغاضب الثائر. وكانت جهتي وأذناي ورقبتي كالمغطاة بضماد من طنين النحل ولسعاته وما يتبع ذلك من ألم وعذاب، كان النحل يزحف إلى جسمي من خلال سريالي المفتوح الرقبة، ومن سراويل القصيرة. عديمة الوقاية، فهو بكل موضع من جسمي، وكنت أنتزعه من جسدى ملء راحتي، ولكن لأفسح المجال لغيره من الجموع الخامة حولي وكأنها سحب مكفهرة.

ولم أكف –وأنا أجر قدمي مهرولا مترنحا– عن الصياح في جنون مستغيثا بطائفة من العمال لمحتهم على بعد مني، ولكن ما إن رأوا خشارم النحل حولي حتى ولوا الأدبار مطلقين لسيقانهم العنان في كل ناحية ما عدا ناحيتي، وما إن أفتح في جرحي المتورم لاهثا مبهورا حتى تتسرب إليه مئات أخرى من النحل، حتى أصبح لساني ضعف حجمه العادي وصرت أسحقهم أسناني، وتورم أنفي إلى درجة أصبح معها عديم النفع.

دخلت عرصة المصنع وأنا أتعثر من الضعف متحسسا طريقي صوب بناء في طور الإنشاء، ولكن ما إن لمحني العمال ورأوا الجيوش الطنانة المقاتلة وهي تلاحقني، حتى بادروا إلى أماكن تعصمهم بكل ما استطاعوا من سرعة وهم على يقين من أنهم إن لم ينجوا بأنفسهم كانوا من الهالكين.

كنت قد أصبحت الآن على صورة يرثى لها، أعمى أصم لا أستطيع التنفس إلا بمشقة وصعوبة بالغة. على أني أخذت أتحسس طريقي بعيون غير مبصرة حتى انتهى بي الأمر إلى السقوط على غير انتظار وسط كومة من مادة هشة مسحوقة، أحسست أنها لابد أن تكون تراب الآجر الأحمر المستعمل للبناء. فدفنت نفسي فيها بجنون حتى غطى التراب رأسي وكتفي. ولكن سرعان ما وجدت نفسي في مأزق أشد سوءا وحيرة. فقد أخذ تراب الآجر يزهق ما بقي لي من صبابة حياة ضئيلة، بينما راحت جماعات النحل الغاضبة الثائرة تركز هجومها الجديد على الأجزاء السفلى من جسمي، فلم أجد بدا من الانسحاب من تحت تراب الأجر، وشرعت بما بقي لدي من قوة أبحث عن خزان الماء الذي كنت أعلم بوجوده على مقربة مني. ورحت أتخبط وأدور حول نفسي، وأنا أنتزع النحل من وجهي ملء راحتي وأسحقه إلى أن سقط غائبا عن الرشد، عاجزاً عن مواصلة الدفاع عن نفسي. لقد كانت الغلبة للنحل.

وبعد فترة من الزمن خلتها دهرا. شعرت بإحساس غير رضي يسرى في كياني وكأنه متولد من حرارة شديدة، وسرعان ما شعرت بملمس أياد بشرية تجذبني إلى معتصم أمين. كان رد الفعل شديداً قويًا فأغمي عليَّ، ودخلت في غيبوبة عميقة.

أما الفضل في نجاتي، وأنا أكاد أجود بنفسي، فيرجع إلى رجلين من عشائر الجركا حاضري البديهة، سارعا عدوا إلى كومة من القش، فأحضرا حزما من حشيشها الجاف وأقاما حولي، بكل ما استطاعا من سرعة حائطاً كثيفاً من نار ودخان إلى أن أجلى النحل. وبعد ذلك، بينما كنت أرقد فاقد الرشد، وبينما كانت الجهود تبذل بهمة ونشاط في المنطقة بحثا عن طبيب الإسعاف، أصر هذان الرجلان الكريمان الشهمان على البقاء معي واستخراج حمات النحل من جسدي المتورم المنتفخ. ولقد

استغرقت هذه العملية يومين كاملين. وعندما أفقت من غيبوبتي في النهاية. أخبرت في ابتسامة مشرقة بأن النحل ترك جسمي ما لا يقل عن ألفي ثقب، ولعله رقم قياسي على أكثر الاحتمالات.

رقدت عدة أيام عانيت فيها أشد العذاب وأمر الآلام، لا أستطيع لجسدي حراكا، وقد انتفخ كأنه (سجقة) ماردة عملاقة. وتعددت ألوانه فهو أسود وأزرق وأرجواني. وكان صلبة كاللحم المثلج. ومرت بي أيام عديدة وأنا لا أبصر ولا أنطق إلا بمشقة، وكم من كمادات وضعت على أنفي وأذني قبل أن ينقص الورم وتتجلى معالمها وتستعيد بعض ما كان لها من سمات قبل وقوع الكارثة.

كان دور النقاهة طويلا امتد إلى ستة شهور قضيتها بالمستشفى، أعقبتها عدة أسابيع قضيتها فوق تلال "دار جيلبخ"[١] حيث النسيم عليل والرياح ريدانة. وحينما عدت إلى مقري القديم لم أكن أتمالك نفسي من الانسحاب على الفور والبحث عن أقرب ملجأ يعصمني كلما مرت الجموع الطنانة فوق رأسي في الفضاء.

---

[١]مصيف جبلي في شمال الهند.

خمسون ثانية، ازدادت تسعاً

اورفل ريت

يشرح "أورفل ريت" في هذه العجالة نجاح شقيقه في تسجيل بدء عهد الطيران بقوة محرك يفوق ثقله ثقل الجو، وارتفاعه عن الأرض لمدة تعتبر أطول مدة للطيران في العالم حتى ذلك العهد، فقد طار في "يكيتى هوك" من أعمال "كارولينا الشمالية" بالولايات المتحدة في السابع عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٣ بطائرة مزودة بمحرك ذي أربعة سلندرات قوته اثنا عشر حصانا، وبلغت مدة الطيران تسعة وخمسين ثانية بينما بلغت السرعة نحوا من ثلاثين ميلاً في الساعة، وبلغ وزن الطائرة بسائقها سبعمائة وخمسين رطلا. وكانت هذه أطول محاولة من بين محاولات عدة قام بها الأخوان " أورفل" و"ولبورريت" في ذلك اليوم، بيد أنهما لم يرضهما هذا القدر الذي حققاه من النجاح. ولا غرو، فقد علا جاهدين فترات طويلة من الزمن بحصافة ويقظة خطوة خطوة ومرحلة إثر مرحلة، لتحقيق هذا الهدف، خق لهما أن يترقبا نجاح أوفر قسطا وأبعد مدى. لقد سقط "اكاروس"[1]، على حد رواية الأساطير اليونانية في البحر لأنه ارتفع كثيراً في طيرانه فأذابت حرارة الشمس الشمع الذي لصق بوساطته الأجنحة إلى جسمه، وقد كان ليوناردودافنشي يحلم بمخترعات شتى تمكن الإنسان من أن يطير، ولكن الأخوان "أورفل" و"ولور" كانا صاحبي الفضل في اتخاذ أول خطوة عظيمة في ترجمة هذه الأحلام إلى حقيقة فعلية واقعية، حتى أصبح الإنسان في بحر خمسين عاما يعبر المحيطات طائرة، أو يعلق فوق القطبين في سرعة تربو على سرعة الصوت ضعفين أو تزيد، وهو ما فتئ بعد هذا كله يحدث نفسه في صورة جدية بإعداد العدة للاجتراء على اقتحام طبقات الجو العليا والتحليق بين الكواكب.

---

[1] ابن ديدال في الأساطير الإغريقية مثل يضرب للإسراف في الطموح.

اتخذت مكاني إلى جانب أحد الجناحين معتزما مساعدة الطائرة على الاحتفاظ بتوازنها أثناء اندفاعها هابطة فوق المجرى الأرضي. ولكن ما إن سحب السلك الحاجز لها، حتى انطلقت بسرعة مذهلة لم أتمكن حيالها من مسايرتها أكثر من بضع خطوات قلائل، وبعد أن اندفعت الطائرة مسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين فرسخا ارتفعت عن القضبان.

ولكن سمح للطائرة أن تميل أكثر مما يجب، فلم ترتفع إلى أكثر من بضعة أقدام، ثم اختل توازنها افتقاراً للسرعة اللازمة، ومن ثم هبطت قريباً من سفح التل، وهو ينخفض عن سطح الأرض بنحو خمس ومائة قدم. وعرفت من ساعتي[1] التوقيتية أن الطائرة لم تلبث في الجو سوى ثلاث ثوان ونصف ثانية. وكان جناحها الأيسر أول جزء من جسمها لامس الأرض، فدارت الطائرة حول نفسها ثم انغرزت فرملتاها في الرمل، وانكسرت إحداهما، إلا أن العطب الذي أصيبت به لم يكن جسيماً، وعلى حين أن هذه التجارب لم ينجم عنها ما يستدل منه على مدى قوة المحرك وقدرته على تسيير الطائرة في الجو، نظرا لأن المكان الذي هبطت فيه ينخفض عن مستوى نقطة البداية بعديد من الأقدام، إلا أنها قد برهنت على أن الطريقة التي اتبعت في الارتفاع بالطائرة طريقة سليمة وعملية في الوقت نفسه، وأيا كان الأمر فإننا كنا مغتبطين بالنتيجة بوجه عام.

قضينا يومين في إجراء الإصلاحات اللازمة، وكان فراغنا من إعدادها للقيام بمحاولة جديدة، بأخرة من عصر اليوم السادس عشر من الشهر. وبينما نحن نقوم بفحصها وإحكام آلاتها ومعداتها أمام المبنى الذي يؤوينا، وإذا برجل غريب قد طلع علينا، وسألنا بعد لحظات قضاها وهو يتطلع إلى الطائرة في فضول ما هي وما تكون؟ فأخبرناه بأنها طائرة ذات محرك، فسأل ما إذا كنا نعتزم أن نطير بها في الجو. فأجبناه بأن ذلك ما اعتزمناه بمجرد هبوب رياح مواتية! فأطال النظر إلى الطائرة دقائق غير

[1] ساعة توقيت المسافات وتحديد الزمن الذي يستغرق في قطعها.

قليلة. ثم قال رغبة منه في مجاملتنا: نعم، إنها تبدو كما لوكان في مقدورها أن تطير لو أسعفتها "رياح مواتية" مردداً ما قلناه آنفاً.

فضحكنا من قوله إذ أنه بلاشك كان يفكر في العاصفة التي هبت حديثا، والتي بلغت سرعتها خمسة وسبعين ميلا في الساعة حينما ردد قولنا "رياح مواتية".

وفي خلال ليلة السابع عشر من ديسمبر هبت علينا ريح شديد باردة من ناحية الشمال، فما إن نهضنا في الصباح حتى كانت المياه التي تجمعت على صورة مستنقعات صغيرة متناثرة حول المعسكر نتيجة الأمطار التي هطلت حديثا قد التحفت بطبقة من الجليد، وكانت سرعة الريح تتراوح ما بين عشرة أمتار واثني عشر مترا في الثانية "أي ما بين اثنين وعشرين وسبعة وعشرين ميلا في الساعة".

وقد توهمنا أنها قد تضعف قبل طويل وقت، فصرفنا الشطر الأكبر من الصباح داخل المقر، ولكن عندما تقدم النهار إلى الساعة العاشرة كانت الريح ما تزال على شدتها، فأجمعنا الرأي على أنه من الأوفق لنا في مثل هذه الحالة أن نخرج الطائرة من حظيرتها، وأن نحاول بتجربة أخرى. ومن ثم علقنا العلاقة الرمزية ايذانا لمحطة "فرقة الإنقاذ" ليكون رجالها على أهبة الاستعداد، وذهب بنا الظن إلى أن الطيار إذا واجه مثل هذه الريح الشديدة لم يجد صعوبة تذكر في محاولة الارتفاع من فوق الأرض الممهدة المحيطة بالمعسكر. ولم يغب عنا ما يكتنف محاولتنا الطيران في مواجهة مثل هذه الرياح العالية الشديدة من صعاب، ولكننا قدرنا أن ما يضاف إلى تجربتنا من الأخطار يعوضنا عنه تناقص السرعة في الهبوط.

بسطنا المجرى فوق رقعة مستوية من الأرض على بعد مائة قدم أو نحوها إلى يسار المبنى الجديد، ولكن برودة الزمهرير القارس جعلت مزاولة العمل عسيرة حتى إننا كنا كثيرا ما نأوي إلى حجرة الجلوس طلبا للدفء، إذ كان بها موقد مؤقت اتخذناه من صفيحة كبيرة الحجم، وإن لم يكن كل ما تصبو إليه النفس، إلا أن النار المتوهجة فيه كانت كافية لبعث الحرارة تسري في أجسامنا المتصلبة المقرورة. وما كدنا نفرغ من

عملنا حتى وصل "دانيلز" و"دو" "وإثردج" من رجال محطة شياطين الإنقاذ، ومعهم "برنكلى" من أهالي "مانتيو""وجوني مور"، أحد الصبية من خان "رأس الفرس المسرج".

وكان معنا "آلة يدوية" لقياس سرعة الرياح من طراز "ريتشرد"، علمنا منها أن سرعة الرياح قبل الطيران مباشرة أول مرة، كانت تتراوح بين أحد عشر واثني عشر مترا في الثانية. أو بعبارة أخرى بين أربعة وعشرين وسبعة وعشرين ميلا في الساعة، وسجل المقياس سرعة الريح قبل آخر طيران لنا مباشرة بما بين تسعة أمتار وعشرة في الثانية. والقياس الذي حققناه قبل ذلك بلحظات قصيرة سجل السرعة بما فوق ثمانية أمتار في الثانية بقليل.

ويؤخذ من سجلات المكتب الحكومي للأرصاد الجوية في "كتى هوك" أن متوسط سرعة الرياح فيما بين الساعة العاشرة والنصف والثانية عشرة —وهو الوقت الذي حققنا فيه التجارب الأولى الأربع– كان بمعدل سبعة وعشرين ميلا عند بدء التجربة الأولى، وبمعدل أربعة وعشرين ميلا عند بدء التجربة الأخيرة.

ولست أظن اليوم –على الرغم مما اكسبنا بعد آلاف المرات من التحليق في الجو خلال السنوات العشر الأخيرة– مقدم على الطيران لأول مرة بطائرة غريبة عنى في جو بلغت سرعة الريح فيه سبعة وعشرين ميلا في الساعة مهما يكن مبلغ يقيني من أن الطائرة قد سبق استعمالها بكل ثقة وطمأنينة.

وإنني ليأخذني العجب، بعد تجارب هذه السنين الطويلة، من جرأتنا وإقدامنا على محاولة الطيران بطائرة جديدة لم يسبق تجربتها في مثل تلك الظروف الغابرة، إلا أن إيماننا بدقة ما قدرناه وبسلامة التصميم الذي وضعناه لأول طائرة في الميدان، وفقاً للجداول التي سجلناها عن الضغوط الجوية بعد شهور طويلة قضيناها في العمل والحساب الدقيق بالمعمل، وما كان من ثقتنا في صلاحية الطريقة التي اتبعناها ورسمنا خطتها لضبط توازننا طيلة سنوات ثلاث، قضيناها في تجارب فعلية بالجو فوق متون

الطائرات الشراعية، كل هذه العوامل مجتمعة قد اقنعتنا بأن في مقدور طائرتنا أن ترتفع في الجو وأن تحتفظ بتوازنها فيه، وبأننا بعد قليل من الممارسة العملية مستطيعان أن نحلق بها دون كبير عناء في ثقة وأمان.

ولما كان "ولبور" هو الذي قام بالتجربة التي كان مآلها الفشل في الرابع عشر من الشهر، فبعد أن أدرنا المحرك بضع دقائق لتسخينه، حررت الطائرة من السلك الحاجز لها، والذي كانت مشدودة به إلى المجرى المؤقت، فانطلقت في تشق الريح. وجرى "ولبور" إلى جانبها ممسكا بجناحها لكي تحتفظ بتوازنها فوق المجرى.

بدأت الطائرة تتحرك ببطء شديد في مواجهة الرياح التي بلغت سرعتها سبعة وعشرين ميلا في الساعة، على عكس ما كانت عليه من سرعة الانطلاق في اليوم الرابع عشر والريح هادئة فاترة.

واستطاع ولور، أن يزاملها طيلة مسافة الأربعين قدما التي قطعتها فوق المجرى إلى أن ارتفعت عن الأرض. وأسرع أحد رجال فرقة الإنقاذ فالتقط لنا صوة بآلته الفوتوغرافية في اللحظة التي وصلت فيها الطائرة إلى نهاية المجرى وقد ارتفعت نحو قدمين عن الأرض.

وليس أدل على بطء حركة الطائرة في اندفاعا إلى الأمام من موقف "ولبور"، فقد استطاع أن يجري إلى جانب الطائرة في سهولة ويسر دون أن يبذل كبير مجهود.

كان تصرف الطائرة في طريقها معوجا إلى أقصى حد، نظرا لتغلب الهواء وعدم انتظامه من ناحية، ولقلة الخبرة بقيادة هذه الطائرة من الناحية الأخرى، وكان محرك الدفة الأمامية عسيرا في ضبطه لقربه من وسط الطائرة مما جعلها تميل إلى جانب أو آخر بمجرد ارتفاعها في الجو أكثر ما يجب وقد ترتب على ذلك أنها كانت ترتفع فجأة نحو عشر أقدام، ثم تهوى فجأة هابطة إلى الأرض أيضاً. وقد هوت بالفعل فجأة إلى الأرض وهي على أقل من مائة قدم أو أكثر بقليل من نهاية المجرى، أوبعبارة أخرى على مسافة مائة وعشرين قدماً أو أكثر من النقطة التي ارتفعت منها إلى الجو.

وبهبوطها الفجائي هذا انتهى طيرانها في هذه التجربة. ولما كانت سرعة الرياح تزيد على خمسة وثلاثين قدماً في الثانية، بينما بلغت سرعة الطائرة في انطلاقها فوق الأرض في مواجهة الريح عشر أقدام في الثانية، وكانت سرعة الطائرة بالنسبة إلى الجو خمسة وأربعين قدماً في الثانية، فيكون طول المسافة التي قطعتها في الطيران تعادل خمسمائة وأربعين قدما لو أنها طارت في جو هادئ معتدل.

لم تدم مدة الطيران سوى اثنتي عشرة ثانية، ولكنها كانت على الرغم من ذلك أول مرة في تاريخ العالم تطير فيها طائرة برجل دون أن يعتمد على شيء في ارتفاعها إلى الجو والسباحة فيه سوى قوة محركها. ثم هي قد اندفعت قدما في الجو دون أن تقلل من سرعتها هابطة في النهاية عند نقطة يعادل ارتفاعها ارتفاع النقطة التي بدأت منها.

استطعنا بمعاونة زائرينا حمل الطائرة والعودة بها إلى المجرى وإعدادها لشوط آخر. بيد أن أجسامنا كانت قد تصلبت أوك ادت من شدة البرد، فولجنا الدار مرة أخرى لنصطلي على نار الموقد، وننعم ساعة بالدفء المنبعث منه. قبل المحاولة التالية للطيران. وحانت من "جوني مور" التفاتة إلى علبة مليئة بالبيض تحت المائدة، فسأل أحد رجال الدار من أين لنا كل هذا القدر العظيم من البيض. وما يجدر ذكره هنا، أن أهل هذه الناحية يعيشون عيشة كفاف قوامها ما يصطادونه من الأسماك أثناء فصل الصيد القصير الأمد، أما الأنواع الأخرى من الأطعمة فمحدودة للغاية. ولعله لم ير مثل هذا العدد من البيض في أي وقت من حياته.

أجاب الذي وجه إليه السؤال على سبيل المداعبة: "أما لاحظت الدجاجة الصغيرة التي كانت تجري في عرصة الدار. إنها تضع ما بين ثمان عشر بيضات في اليوم!، كان "مور" لا يزال في ذهول ما رأى لتوه ولساعته من ارتفاع قطعة ثقيلة من المعدات والآلات عن الأرض إلى الفضاء وتحليقها فيه كما يحلق العصفور.

وهو أمر كان يعتبر في ذلك العهد ضربا من المحال، فشأنه من الاستحالة شأن

الحركة الدائمة الأزلية. لذلك كانت طبيعته الساذجة على استعداد لتصديق كل ما يقال له. ولكنه بعد أن خرج من الدار لمشاهدة هذه الدجاجة العجيبة عاد وهو يقول "إن منظرها كمنظر غيرها من فصيلتها، لا يختلف عنها في شيء".

بدأ "ولبور" التجربة الثانية في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين. ولم يختلف هذا الشوط عن سابقه كثيرة، فقد ظلت الطائرة تهدج بين الارتفاع والهبوط، إلا أن سرعتها فوق الأرض كانت أكثر بقليل من سرعتها في المرة الأولى، نظرا لأن الريح لم تكن شديدة كما كانت من قبل. وكانت مدة الطيران أكثر من سابقتها بأقل من ثانية، ولكن المسافة التي قطعتها كانت أطول من الأولى بحوالي خمس وسبعين قدما.

بدأت التجربة الثالثة بعد عشرين دقيقة من انتهاء الثانية، وكانت أكثر اتزاناً من التجربة الأولى التي قمنا بها من ساعة خلت، وبينما كنت أسير بالطائرة على خير ما يرام إذا هبة ريح نائية من الميمنة رفعت الطائرة نحو اثنتي عشرة قدما إلى خمس عشرة وأمالتها إلى جانبها الآخر بصورة سريعة مخيفة جانحة بها إلى الميسرة، فلويت الجناحين محاولة مني في الاحتفاظ بتوازنهما، متجها بمقدمة الطائرة في الوقت نفسه نحو الأرض، لأهبط بأقصى سرعة مستطاعة.

على أن ضابط الجناحين كان أبعد أثراً في حفظ توازنهما مما توهمت، ولكن قبل أن أصل إلى الأرض كان الجناح الأيمن أقل ارتفاعا من الأيسر، فارتطم بالأرض قبل نظيره. وكانت مدة الطيران خمس عشرة ثانية، والمسافة فوق الأرض مائتا قدم. قام "ولبور" بالشوط الرابع والأخير في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً. تصرفت الطائرة خلال بضع مئات من الأقدام في البداية كتصرفها من قبل، متأرجحة بين الارتفاع والانخفاض، إلا أنها كانت أكثر اتزانا عقب الثلاثمائة قدم الأولى. ولم يكن تأرجحها في الأربعمائة أوالخمسمائة قدم التي تلت شيئاً مذكورة، بيد أنها لم تكد تطوى ثمانمائة قدم أو نحوها حتى شرعت تخفض رأسها نحو الأرض عدة مرات، وفي مرة من تلك المرات ارتطمت بالأرض، فقسنا مسافة الأرض التي حلقت فوقها فوجدناها ثمانمائة واثنين

وخمسين قدماً، أما المدة التي استغرقتها في الطيران فكانت تسعا وخمسين ثانية. ولم تصب الطائرة بأي عطب على الإطلاق فيما عدا الدفة الأمامية التي حطم منها الهيكل الذي تعتمد عليه تحطيماً بعيد الأثر، وقدرنا أن في مقدورنا إصلاح ما أصابها من ضرر وإعدادها للطيران من جديد في بحر يوم أو يومين.

وبينما نحن وقوف نتباحث في نتيجة هذه التجربة الأخيرة إذا بريح عاصفة سيهوج هبت على الطائرة فجأة فانكفأت وانقلبت على ظهرها، فوثبنا جميعاً نحوها، وكان "ولور" بجانب المقدمة فأمسك بها بينها أمسكت أنا و"دانيال" مؤخرتها إذ كنا قريباً منها محاولين إنقاذها وتثبيتها في مكانها برفع المؤخرة إلى أعلى، ولكن كل جهودنا ذهبت أدراج الرياح، فقد تدحرجت الطائرة.

وهي تنقلب أمام الريح. بيد أن "دانيال" ظل ممسكاً بها لحملته معها يتدحرج رأساً على عقب داخل هيكلها. ومن حسن الحظ أن الإصابات التي مني بها لم تكن خطيرة، فلم تعد بعض الرضوض بأجزاء من جسمه أصابته حين ارتطامه بمحرك الطائرة وآلات التوجيه وما إلى ذلك.

على أن الطائرة تحطمت أضلاعها وتقوست آلاتها وأصيب محركها بضرر جسيم، أصبحت معه كل محاولة للطيران بها بقية العام ضرباً من المحال.

الفهرس